عقائد الإمامية

برواية الصحاح الستة

السيد محمد علي الحلو



مكتبة الصادق (ع)

عقائد الإمامية

برواية الصحاح الستة

السيد محمد علي الحلو



مكتبة الصادق

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

الإهداء

إلـى أوّل الإمامـة فـي عهـد خـاتم الأنبيـاء..

إلـى سـيدي ومـولاي علـي بـن أبـي طالـب..

أُقـــدم جهـــدي متواضـــعاً..

فالكتاب نفحـة مـن نفحـات روحـك القدسـية..

إلى خاتم الأئمة حيث النبوات تبعث من جديـد..

إلـــى ســـيدي ومـــولاي صـــاحب الزمـــان..

اقـــدم بضـــاعتي المزجـــاة..

راجيـــاً أن أحظـــى برضـــاك..

إلـى سـليلة خـاتم الأنبيـاء وأبـي الأئمـة..

سـيدتي فاطمـة بنـت موسـى بـن جعفـر.

هدية الولاء والجوار..

اللهم ... وكما أمرتنا ببرّهما حيين وميتين.

إلى أبي وأمي

محمد علي

«وأعظمُ خلاف بين الأمة،
خلافُ الإمامة، إذ ما سُلَّ سيفٌ في الإسلام
على قاعدة دينية مثلَ ما سُلَّ على الإمامةِ في كل زمان...».

الشهرستاني

الملل والنحل ج١ ص٢٤ دار المعرفة بيروت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أحمدك اللهم حمداً كما أنت أهله وأثني عليك ثناء موحد لك معترف بربوبيتك، أوليتنا عظيم نعم، وجميل آلاءٍ، حففتها برسولك الباطن، فدللتنا به عليك وأكملتها برسولك الظاهر فوفقتنا فيه إليك، اخترته على حين فترة من الرسل، وهجعة من الأمم، فكان (ص) خير دليل، وأعظم هاد وأحسنَ بشير، وأرأفَ نذير، وأبيت إلاَ أن تتم نورك بكلماتك التامة فأورثتها إمامة هادية راشدة، فكانت هي الطريق إليك والمسلك إلى سبيلك.

وبعد..

فقد عصفت بالأمة الإسلامية رياحٌ هبت من مناطق صراع أوجدتها تكتلات سياسية نشأت من معترك أطاح بالمعادلات الثوابت التي أرسى توازناتها النبي (ص) إبَان بعثته المباركة، وكانت تلك التوازنات الفكرية بعد أن حرص النبي (ص) على أن يبعثها حية تشير إلى عافية الإسلام وسلامة الرسالة، وحدود الدالة التي تنذر المسلم بالرجوع إلى موقعه الطبيعي عند حدوث أي تجاوز يجعل معالمها خلف ظهره.

وهي بقدر ما شاركت ببناء هيكلة العقيدة الإسلامية كانت كذلك أحد العوامل القوية التي اضطرب من أجلها فهم أُمة من الناس، فأحالت خارطة الجماعة الإسلامية إلى مناطق ولاء جغرافي اقليمي، أو سياسي عقائدي، بل وحتى إلى نفسيَ في أحايين أخرى.

وكانت أبرز هذه المعادلات الثوابت هي معادلة الإمامة وعلاقتها بمهمَة النبوة، فحدت بالرسالة إلى تقديم طروحاتها من أجل تنظيم الوشائج

العقائدية وحالت بينها وبين أي انقلاب على مستوى الفكر أو العاطفة أو هما معاً، حتى كان للجهد التثقيفي النبوي على صعيد البنية الفكرية في مجال الإمامة سُلَماً من الأولويات مرتباً في طول مهامه التبليغية.

إذن فقد كانت معادلات الإمامة ذات أطراف أربعة حرص النبي (ص) على توازن كل طرفين ذي علاقة، فطرفا النبوة والإمامة شكلاً معادلة واحدة، وطرفا التبليغ النبوي، وتسليم الأمة شكّلا معادلة أُخرى. وكلا المعادلتين تجتمعان لتشكلان الرؤية الإسلامية للإمامة.

فالمعادلة الأُولى ـ وهي النبوة والإمامة ـ كان المحور الأول والرئيسي للكتاب الذي بين يديك. والثانية وهي معادلة التبليغ النبوي والتسليم تُستل قراءتها من بين مطاوي الكتاب، إلاّ أنها كخطوة أولية تهيّىء القارىء للدخول إلى أبواب الكتاب المتفرقة المجتمعة، لذا فإني أسعى إلى بيان حقيقة واحدة مهمة وهي:

أن الفهم العام هذا قد انشطر بُعيد وفاة النبي (ص) إلى كيانات منظمة وغير منظمة، فرضتها الحالة العامة للظرف السياسي الملتهب الذي أبدى استعداداً عظيماً لانشطارات متلاحقة سريعة جداً ضبّبت الرؤية الإسلامية، وعمّقت خنادق الفكر بين خصم الفهم العام، فقد كانت الثوابت التي قدّمها النبي (ص) كنصوص أولية لأطروحة الإمامة واحدة تماماً، وكانت قراءات تلك الثوابت في الوقت نفسه مختلفة جداً، حتى حالت بين حقيقة تلك النصوص وبين الفهم العام الإسلامي لبعض التشكيلات السياسية، التي رتّبت نفسها مسبقاً، أو رتبها الظرف العام لاحقاً، ودعت أتباعها إلى قراءات موحدة، لا تخرج عن إطار تسييس النصوص، وتوجيهها بالوجهة الخاصة لاضفاء الشرعية الافتراضية التي من خلالها يحصل هذا التنظيم، أو تلك الجماعة على موطئ قدم في الحدث الإسلامي العام.

لقد كانت هذه الحالة وبطبيعة الحال على حساب نضج الوعي الإسلامي الخاص، وعلى حساب ترشيد الحالات الثقافية العامة في فهم النص وقراءته، لذا ظهرت إبّان هذا التحرك الفكري الذي صاحبه تحرك سياسي مواز له، بؤر ثقافية موجهةً تبرمجُ الشعور العام على أساس هذه المدرسة الفكرية السياسية أو تلك، ثم تقدّم طروحاتها ضمن صيغ توجيهية بعد أن أدخلت نصوص الإمامة في عملياتها المبرمجة الخاصة وقدّمتها للقارئ الإسلامي حالةً من التشويش في الرؤية، والاضطراب في المفهوم.

إن تضخمات هذه الحالة تساعد في تكوين جدار من جليد بين الفرق الإسلامية، حال بين الامة وبين الرؤية الإسلامية الواضحة، حتى أنه أدنى تأمل منصف ـ ليساعد في ذوبان هذه القطع الجليدية المتراكمة إثر الموروث التقليدي الذي حافظت عليه حالات متشنجة أسهمت في تكوين اللاوعي العام. وكتابنا هذا هو إحدى المحاولات «الفنية» التي قدّمتْ للقارئ أسلوباً آخر من قراءة النص وفهمه، وطرح كل التوجيهات التي بغت على النص النبوي وأودت بالمفهوم الإسلامي الخاص للوصول إلى أهدافها المتعددة.

كما هو في الوقت نفسه بطاقة دعوة للضمير الإسلامي، من أجل ايجاد برنامج للوحدة الإسلامية، يلتزم محاولات البحث العلمي، وقراءة ما ورد في كتب الفريقين المعتبرة والخروج بصيغ جديدة لفهم الحدث الإسلامي.

لقد عمدتُ في طول الكتاب وعرضه إلى الالتزام بصيغة جديدة من صيغ الوحدة الإسلامية تأخذ بوجدان المسلم وضميره إلى مواقع الحقيقة وتدله على ما تبحث عنه فطرته ووجدانه من أجل الوصول إلى مجريات الحدث الإسلامي، إلى ساحة الأحداث، إلى مشاهد قد حرص النبي (ص) ايصالها إلى فكر الأمة دون تعليق، إلى حيث أراد الله أن يجعل رسالته، إلى حيث أراد الله أن يُتم نورهُ بكلماته.

وها أنذا أقف أمام ربي، اسجل للتاريخ، أكتب لنفسي قبل غيري ثابتةً واحدة

هي من أهم ثوابت الحياة ومن معالم الرشد وأسباب الكمال: أن البحث عن الحقيقة أيسر ما هيأه اللّه لخلقه قبل غيره من أولويات الحياة لتكون الحجة للّه على الناس. لذا حاولت أن أقتحم الصعب الوعر للوصول إلى الحقيقة، فلما وضعت قدمي رأيتُ أن الوصول إلى الحقيقة من أيسر الأمور، وكنت أخدع نفسي حين تخيلت أن الخوض في هذا المجال هو من الصعوبة بحال، فكانت تجربتي أن أعرف حقيقة الشيء من طرفه المقابل، وأن اقرأ الأمر بعين غيري لكن بعقلي فقط، وأن استخرج شواهد القضية من جهتها المعاكسة وقُدّر لي أن أقرأ الإمامة برواية الصحاح الستة وأبحثها من مسانيد اخواننا أهل السنة، فكانت رحلة ممتعة كما هي خطيرة، وجميلة كما هي كبيرة، وكان الذي يحثني للبحث أكثر وبجدية لم أتصورها هو أنني إكتشفت خلال مسيرتي هذه، أن الفروق بين الإمامية واخوانهم أهل السنة تتلاشى كلّما أوغلت نفسي في البحث، واكتشفت أن الآراء الأخرى التي تلاحق النص وتتابع الحدث الإسلامي ما هي إلاّ افتراضاتٌ هامشية فرضها ظرفها السياسي، أو حجّمها ذوق هذا أو عاطفة ذاك.

كان جهدي هذا هو حصيلة أيام معدودة لكنها معاناة قديمة شاركت في إيجادها فكرة، كلمة، محاولة، كلها سعت إلى أن تقرئني الحدث الإسلامي بغير ما تقتضيه وقائع البحث العلمي وأدبيات النقاش، وكأنها قيّمة على وجداني العلمي، تفرض عليّ مسلكية خاصة في قراءة النص وفهم الحدث. حاولت أن أستفيد من حديث «إن الأئمة من قريش اثنا عشر خليفة» فاستفدت من ثلاثة ثوابت في الحديث نفسه، وهي: «الأئمة من قريش، الأئمة اثنا عشر، كلمة خليفة».

ثم استقر البحث إلى أن الدواعي التي دعت إلى إمامة قريش هي نفسها التي اقتضت ضرورات المقام، أن تكون في آل أبي طالب الهاشميين، ثم استعرضت آراء المدرستين حيث رشحت كل منهما قائمة من الخلفاء الاثني عشر، ودرست معالم القائمتين على ضوء معطيات الخلافة الإلهية، بعد ذلك تفحصت في كلمة «خليفة» فوجدتها هي الكلمة القرآنية التي سعى إلى تثبيتها النبي (ص) وقدّمها أطروحة الخلافة

الله في أرضه، كان هذا هو الفصل الأول، وما ضمّه الفصل الثاني هو تكملة لذلك المجهود، حيث كان استعراضاً للنصوص النبوية التي وردت في الصحاح الستة لقراءة الخليفة الإلهي بشخصه المعيّن مع انضمام ما ورد في مسانيد اخواننا أهل السنة من روايات تبارك ما ذهب إليه الإمامية من القول بالنص على إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام.

هذا استعراض سريع يأخذك إلى فضاء المشروع الواسع الذي سيضم كل ما هو جديد وليس بجديد، فالنصوص كلها مرّت عليك في كتابات سابقة، لكن الجديد في قراءة النص وفهمه بما يضمن عطاءً نبوياً تستقر إليه النفس ويرضى به الوجدان.

ثم بحثنا في عقائد الإمامية الأخرى كالمهدي والعصمة والبداء، وكانت بحوثاً مختصرة موجزة هي إلى المقدمة أقرب من التفصيل والإطناب، ولعلها ستكون مدخلاً لدراسات أوسع أوفّق أنا، أو يوفق غيري خدمة لمعالم مدرسة الأئمة المعصومين عليهم السلام، ولم أدّعِ أن هذه البحوث أوفت بالغرض المهم، بل هي مقدمة «تحفيزية»، لقراءة عقائد الإمامية برواية غيرهم خصوصاً من صحاح المذاهب الإسلامية الأخرى، ولم تكن هذه العقائد «بدعاً من القول»، ادّعته الإمامة وسجلته مذهبا إسلامياً خاصاً، بل هي مدرسة استجلت الفكر الإسلامي بكل حيثياته لتقدّمه على أساس منهجية فكرية يمكن من خلالها قراءة الإسلام المحمدي الأصيل.

وإن كنا قد غفلنا عن بعض المطالب، فإنما هي خطة البحث الموجزة التي اعتمدناها في هذا الكتاب ليكون مدخلاً لدراسة عقائد الإمامة وبرواية الصحاح الستة.

والله ولي التوفيق والسداد

محمد علي السيد يحيى السيد محمد الحلو

قم المقدسة

في ذكرى شهادة الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام

جمادى الآخرة ١٤١٨

المسلمون
وحدة دليل... وحدة نتيجة...

ثمة ثوابت ضمن البنية التشريعية الإسلامية، تدخل في صياغة الحكم الشرعي، تُحتَم على الفقيه أو غيره، الأخذ بها ضمن منهج قرره علماء المسلمين، للوصول إلى الحكم.

والحق أن بعض هذه الثوابت يشترك بها جميع المسلمين، ويقرها علماء الأمة دون النظر إلى محل النزاع في تحقيق المسألة الشرعية، ومثلُ الفقيه، الأصولي، والباحث التاريخي، والمحقق الكلامي وغيرهم ممّن يشترك في المبتنيات الإسلامية التي يُحدد على أساسها المسلم حياته ويستقبل بها آخرته.

والمتمعن في جهود علماء المسلمين، سيجد مدى الوسع الذي بذلوه لتحقيق وحدة الرؤية الناهضة في تحقيق مسألة ما، ولما كانت السنّة الشريفة بعد القرآن العزيز مصدر تشريع، نالت اهتمام العلماء من الفريقين وتتبعها العلماء في مصادر فرق المسلمين على اختلاف آرائهم ومذاهبهم، فلا حرج أن يأخذ أحدٌ عن أحد ولا عبرة لمذهب الراوي عند سامع الحديث، بل كان معيار الأخذ في الرواية أو الحديث هو صدق الراوي وورعه من الوضع أو التدليس أو الحذف أو الزيادة. فالإمامي يروي عن غيره ويأخذ بروايته متى كان ثقةً صدوقاً، ومثله غيره، حتى أكّد مثل ذلك أحد علماء الإمامية بقوله «وقد يظن الكثيرون أن الشيعة لا تأخذ برواية السنّي لأنه سنّي، وإن أهل السنّة لا تأخذ كذلك برواية الشيعي لاتصافه بالتشيع لأهل البيت

ﷺ، وهذا خطأ من البحث.. فأنت ترى أن الشيعة كانت وما تزال تأخذ عن السنّي إذا عرفت منه الصدق وعلمت منه التحفظ، ومن المعلوم أن الشيعة لا تفحص عن الحديث عندما يروي المخالف لأنه صادر من غير شيعي لأنه طريقة الفحص تسير عليها الشيعة مع السني والشيعي من غير أي خصوصية...»[1].

لذلك فإنك تجد للإمامية رواة من أهل السنة صحبوا الإمام الباقر، وأخذوا عن الإمام الصادق وسمعوا ما روي عن أمير المؤمنين ﷺ، وقدّموا للموروث الإسلامي بصورة عامة، وللموروث الإمامي بصورة خاصة، جملة من الأحاديث الصحيحة التي سكن إليها أغلب علماء الإمامية، فأخذوا بها وأدخلوها في منهج استدلالهم وطرق استنباطهم، فحفلت كتبهم لما رواه الحسين بن علوان وغياث بن كلوب البجلي والنوفلي وغيرهم كثير[2] حتى أطلق علماء الإمامية على من عرف من رواة المذاهب الأخرى لقب «الثقة»، وسمّوا حديثه «موثّقاً»، فقد ذكر العلامة البهائي وهو من أجلة علماء الإمامية في (الوجيزة) ما لفظه: «وأما غير الإماميّين من أحد الفرق المخالفة مع تعديل الكل من أصحابنا، موثق.»[3].

ذلك لأن علماء المسلمين جميعاً اتفقوا على أن ما يجمعهم هو توحيد اللّه رب العالمين والإقرار بنبوة محمد (ص)، وما اختلفوا فيه من مبان عقائدية، وآراء كلامية كان مردّها في أحايين كثيرة إلى فهم الآية الكريمة والحديث الشريف وتفسيرهما بعيداً عن الرؤية المعصومية مما اتاح للآراء الأخرى أن تتحكم في صياغة تشكيلات مضطربة تدور بين واقعية الحدث الاسلامي وبين توجهاتها السياسية، فالاجتهاد في المباني المؤدي للوصول الى الحقيقة والمعرفة مهما تطول أو تقصر المسافات الموصلة

---

(١) الشيعة، السيد محمد صادق الصدر ص١٣٣ .

(٢) راجع ترجمة هؤلاء وغيرهم، في كتب الرجال الإمامية كتنقيح المقال للعلامة الشيخ عبداللّه المامقاني وغير ذلك .

(٣) الوجيزة للشيخ البهائي ص٥ الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.ش المكتبة الإسلامية الكبرى. قم .

إلى الهدف الواحد، وهو عبادة رب العالمين وبالطرق التي أرادها، والسبل التي أمر عباده بسلوكها، لذا فإن علماء المسلمين يحكمون بإيمان أهل التوحيد، ونجاة أهل القبلة، حيث استفيد ذلك من صحاحهم ومروياتهم، وما أكدته فتاواهم، وقد أشار إلى ذلك العلامة شرف الدين (قدس سره) في محاولته الرائعة من أجل تأليف الأمة ضمن كتابة الفصول المهمة في تأليف الأمة قال: ((فصل ٦ في لمعة مما أفتى به علماء السنة من إيمان أهل التوحيد مطلقاً ونجاة أصحاب الشهادتين جميعاً أوردناها ليعلم الناس توافق النص والفتوى في ذلك، والغرض لمّ شعث المسلمين باجتماعهم ورتق ما انفتق بتدابرهم ونزاعهم، لأن العامي إذا رأى نصوص صحاحه وفتاوى علمائه تحكم بالإيمان على مطلق أهل التوحيد وتعلن نجاة جميع أصحاب القبلة لا يبقى بعدها أمر يدعوه إلى هذه النفرة أو يصدّه عن الوئام والالفة))[1].

هذا ما كان من شأن علماء الإمامية في الأخذ برواية غيرهم من المسلمين، ومثله يقال في علماء السنة الذين يأخذون برواية الامامي على اساس صدقه وورعه فإن الاختلاف في المذاهب والاراء لم يكن مشكلة تعرقل انسيابية الحديث بين اطراف المسلمين حيث تجد الرواية عند السني يرويها محدث إمامي وحديث عمل به الامامي يأخذ به السني وهكذا تتجلى وحدة الجماعة الاسلامية في الاخذ بالحديث الشريف للوصول إلى الحقيقة الواحدة وعندها ستندحر جميع الحواجز وتتراجع كل العقبات التي يتصورها أعداء الإسلام لتعرقل اجتماع الكلمة المفضي إلى وحدة النتيجة، فإن وحدة الدليل قادرة على أن تؤدي إلى وحدة النتيجة، وإن البحث الموضوعي مؤد إلى المعرفة الحق أخيراً.

---

(١) الفصول المهمة في تأليف الأمة، السيد عبدالحسين شرف الدين العاملي ص٢٦ مطبعة العرفان صيدا ١٣٤٧هـ.

الباب الأول




الباب الأول

عقيدة الإمامية في الإمامة




تعتقد الإمامية بوجوب الإمامة، وأنها بالنص وهي لطف من اللّه تعالى كما هو لطف النبوة، وتعتقد أنها أصل من أصول الدين فيجب على المكلف أن يدين بها على سبيل التحقيق والتدقيق لا على الحكاية والتقليد، فهي مسألة يدل عليها العقل، وتؤكدها النصوص المستفيضة كتاباً وسنة.

فمن الكتاب:

قوله تعالى: (إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين)[1].

والذي عليه المفسرون، أن الإمامة هي الاقتداء والرئاسة، ومهمتها التبليغ والهداية «والإمام اسم من يؤتم به، جعله سبحانه إماماً يأتمون به في دينهم ويقوم بتدبيرهم وسياسة أمورهم»[2].

صفة الإمام في نظر الإمامية:

فالإمام في نظر الإمامية ذو نفس قدسية، وطهارة ملكوتية ترفعه إلى حيث درجات الكمال فيستغني عما هو دونه، ويمكنه من التبليغ بما يتناسب وخطورة المهمة، وعظم المسؤولية.

قال العلامة الطباطبائي رحمه اللّه:

«فالإمام هادٍ يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه.. والإمام يجب أن يكون معصوماً

---

(١) البقرة: ١٢٤ .

(٢) الميزان في تفسير القرآن للعلامة الطباطبائي ١: ٢٧٤ طبعة اسماعيليان .

بعصمة إلهية وأن الأرض لا تخلو عن إمام حق... وأن يكون مؤيداً من عند اللّه تعالى... وأنه يجب أن يكون عالماً بجميع ما يحتاج إليه الناس في أمور معاشهم ومعادهم وأنه يستحيل أن يوجد فيهم من يفوقه في فضائل النفس»[١].

ومن السنة أنها في اثني عشر إماماً:

فقد روت الإمامية عن النبي (ص) بما رواه جميع المسلمين على وجوب الإمامة وأنها في اثني عشر إماماً، فقد روى الصدوق وغيره عن جابر بن سمرة قال: كنت مع النبي (ص) فسمعته يقول: يكون من بعدي اثنا عشر أميراً ثم أخفى صوته، فقلت لأبي: ما الذي أخفى رسول اللّه (ص)؟، قال: قال كلهم من قريش.

وأخرجها الصدوق عن جابر بن سمرة في عشرين طريقاً[٢].

وعن عبداللّه بن مسعود أنه سأله فتى شاب: هل عهد نبيكم (ص) كم يكون من بعده خليفة قال: إنك لحدث السن وإن هذا شيء ما سألني عنه أحد قبلك، نعم عهد إلينا نبينا (ص) أنه يكون بعده اثنا عشر خليفة بعدد نقباء بني اسرائيل.

وقد أخرجه الصدوق بستة طرق[٣].

ومن الدليل العقلي:

فقد استدل الإمامية على وجوب الإمامة بالعقل[٤]، وقالوا أن الإمامة لطف من اللّه تعالى، واللطف واجب عليه.

---

(١) المصدر السابق .

(٢) راجع الخصال للشيخ الصدوِ ٤٦٦ منشورات جامعة المدرسين قم .

(٣) المصدر السابق .

(٤) راجع كشف المراد للعلامة الحلي ٣٦٢ .

والصغرى تتم من حيث أن المكلفين بحاجة إلى الصلاح والكمال والتسديد نحو الهدى والرشاد، وإلى من يبعدهم عن التناحر والتنافر، ويمتّن فيهم روح الطاعة للّه تعالى وذلك ببث أحكامه، وتبليغ أوامره ونواهيه ليتم الدين للّه وتكون له الحجّة البالغة على الناس.

أما الكبرى: فإن الإمامية أجمعت على وجوب اللطف عليه تعالى، واللطف هو ما يكون المكلف فيه أقرب إلى فعل الطاعة، وأبعد من فعل المعصية، ولما كان تعالى قد أراد من عبده الطاعة وكره له المعصية، فإن عدله يقتضي توفر ما يهيّؤه لذلك فالإمام لطف يستعين به المكلف لمعرفة أحكام اللّه ليكون إلى الطاعة أقرب، ومن فعل المعصية أبعد وبهذا ثبت المطلوب.

وقد وافقهم المعتزلة:

وقد وافقهم جمعٌ من المعتزلة، إلاّ أنهم اختلفوا في من تجب عليه الرئاسة، فهل وجوبها على اللّه تعالى من حيث أنها لطف، أم على المكلفين من حيث أنها من مختصات شؤونهم ومصالحهم؟.

قال ابن أبي الحديد المعتزلي:

إن العقل يدل على وجوب الرياسة وهو قول الإمامية إلاّ أن الوجه الذي منه يوجب أصحابنا الرياسة على المكلفين من حيث كان في الرياسة مصالح دنيوية ودفع مضار دنيوية، والامامية يوجبون الرياسة على اللّه تعالى من حيث كان في الرياسة لطف، وبعدٌ للمكلفين عن مواقعة القبائح العقلية[1].

بل وافقهم بعض الأشاعرة:

بل يظهر من بعض متأخري الأشاعرة القول بوجوب الإمامة، وعدم استغناء

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٢: ٣٠٨ دار احياء الكتب العربة القاهرة ط ٢، ١٩٦٧ .

الناس عن إمام لحصول المنافع ودرء المفاسد، حيث شدد التفتازاني على عدم امكان استغناء الأمة عن إمام بقوله:

إن في نصب الإمام استجلاب منافع لا تحصى، واندفاع مضار لا تفخى، فكل ما هو كذلك فواجب(١).

الإمامة برواية الصحاح الستة:

حفلت الصحاح الستة بمزيد من أحاديث النبي (ص) وبطرق مختلفة تؤكد كلها وجوب الإمامة، وأنها في اثني عشر أميراً، أو خليفة، أو نقيباً على اختلاف ألسنتها لترجع في آخرها إلى القول بوجوب الإمامة وضرورتها، كما هي ضرورة النبوة، وأن الأمة لم تستغن عن إمام يسوسها وهاد فيه صلاح دينها ودنياها. وإليك طرفاً منها.

١ ـ صحيح البخاري: روى بسنده عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبي (ص) يقول: يكون اثنا عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها.

فقال أبي إنه قال كلهم من قريش(٢).

٢ ـ صحيح مسلم: عن جابر بن سمرة: قال دخلت مع أبي على النبي (ص) فسمعته يقول: إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة، قال ثم تكلم بكلام خفي عليّ، قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال كلهم من قريش. وأخرجه عن جابر بن سمرة بتسع طرق(٣).

٣ ـ سنن الترمذي: عن جابر بن سمرة قال: قال رسول اللّه (ص) يكون من

---

(١) شرح المقاصد للتفتازاني ٥: ٢٣٧ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الأحكام باب الاستخلاف ٤: ٤٤٨ دار المعرفة بيروت .

(٣) صحيح مسلم كتاب الامارة باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش ٦: ٣ دار المعرفة بيروت .

بعدي اثنا عشر أميراً، قال ثم تكلّم بشيء لم أفهمه فسألت الذي يليني فقال: كلهم من قريش[١].

هذه بعض النصوص الواردة في الصحاح تؤكد على حتمية الاستخلاف، وأن النبي (ص) لم يترك أمته في حياته حتى يستخلف عليهم من يقوم مقامه، فكيف بعد وفاته.

قراءة متأنية في حديث الأئمة من قريش:

ولغرض أن نقرأ هذا الحديث قراءة موضوعية لابد أن نؤكد أن الثوابت التي اشتركت فيها الأحاديث الواردة من الفريقين بالرغم من اختلاف ألفاظها إلاّ أنها تتمحور في ثلاث:

المحور الأول: أن الخلافة في قريش.

المحور الثاني: أن الخلفاء من بعد النبي (ص) اثنا عشر خليفة.

المحور الثالث: استخدام كلمة «خليفة» في ألفاظ الحديث المختلفة.

---

(١) سنن الترمذي باب ما جاء في الخلفاء ٤: ١ـ ٥ دار احياء التراث العربي بيروت .

الفصل الأول

الخلافة في قريش
هل الخلافة في قريش دون غيرهم؟

أكدت الصحاح النبوية أن الخلافة في قريش لا تخرج منهم أبداً. ففي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه (ص) لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان[1].

ومثله روى مسلم في صحيحه[2].

قال الإمام الكشميري الديوبندي في شرحه على صحيح البخاري ما نصه: باب الأمراء من قريش: والمشهور في كتب الكلام أن القريشية شرط للخلافة الكبرى، وفي الدر المختار في باب الإمامة أن الإمامة على نحوين إمامة صغرى، وإمامة كبرى ونشترط القريشية في الكبرى[3].

لماذا قريش دون غيرها؟

كانت قريش سيدة العرب دون منازع، والعرب تنظر إليها نظر تبجيل وتمجيد، فهم خير العرب حسباً ونسباً، فأما النسب فإن جدهم النضر بن كنانة، وأما الحسب فقد جمعت قريش مكارم الشرف والسؤدد، حتى ميزتهم عن العرب قاطبة.

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأحكام باب الأمراء من قريش ٩: ٧٨ دار الجيل بيروت .

(٢) راجع صحيح مسلم كتاب الامارة ٦: ٣ .

(٣) فتح الباري ٤: ٤٩٨ .

نقل الدكتور جواد علي عن المستشرق «كستر» مختارات من فصول الجاحظ الموجودة في المتحف البريطاني ما نصه:

وكانت قريش كريمة لم ترض بالغارات والغزو، ولا بالظلم، ولم تقبل بالوأد ولا بالدخول بمن يقع في أيديهم أسرى من النساء، وكان من فضائلهم أن منّ اللّه عليهم بالإيلاف، فأغناهم وجعلهم «لقاحاً» فلم يخضعوا لملك من الملوك بل كانت الملوك تأتي إلى مكة، وتنظِّم البيت وتحترم سكانه وهم قريش الحَمْس.. ثم قال: إن قريش عرفت بـ «أهل اللّه»[1]. هذا ما كان من أمر قريش، سيادة ووجاهة، سؤدداً ومجداً، فقد تدينوا بأجلّ الصفات وأحسنها، حتى سادوا العرب وأعرابها، من الجزيرة إلى اليمن، لا يألون جهداً من المكرمات، يترفعون عن كل منقصة تحط من أقدارهم، ويتنزهون عن كل دنية تشوب في أحسابهم، حتى ذلت لشرفهم رقاب العرب، وتواضعت لعزهم تيجان الملوك، وطاب ذكرهم، وحسُنَ صيتهم وذاعت مكارمهم، وطارت فحلّقت في سماء فارس والروم.

هذه هي حيثيات سيادة قريش على العرب، وهي ذاتها الأسباب التي جعلت العرب وما والاها تدين لقريش الكرائم وتحمد لها أحسابها، وتفتخر بسيادة قريش عليها، وكأن العربي لايدين إلاّ إلى ذوي الحسب من الصفات، ولا يقنع إلاّ إلى ذوي المحمدات، وليس وحده العربي قد امتاز بهذه النزعة، فإن الناس كلهم يشتركون في هذا الاحساس، فيرغبون إلى ذوي الرفعة دون غيرهم، وإلى ذوي الأحساب دون عداهم، وكأن النبي (ص) خاطب في حديثه هذا فطرة الناس ونزعة الاحساس في أن لا يتقدم في هذا الأمر إلاّ أهله.

وإذا كانت قريش سيدة العرب دون منازع فمن هي قريش التي عناها رسول اللّه (ص) بقوله، وقصدها بعنايته، جميعها، وهي خمسة وعشرون بطناً، فإذا

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د . جواد علي ٦: ٣٦٥ راجع أيضاً معجم البلدان للحموي في بلد مكة ٥: ١٨٦ دار صادر بيروت ١٩٧٩ .

ضمت إليها أحلافها عَدَّوا إلى الثمانين[1]، أم بيت من بيوتاتها؟ وقد عرفت أن الحديث الشريف قد عدّ اثني عشر خليفة، فإن حصر المعدود لا يناسب هذه الجمهرة من قريش.

بنو هاشم المرشحون للأمر أم غيرهم؟

ولا نعني أن قريش مطلقاً قد حازت على كرائم الصفات؛ بل في قريش من المثالب ما شاركت بها قرنائها من القبائل، فليس كل قريش قد ترفعت عما يشينها، بل اختصت بالفضيلة أوسطها نسباً وأكرمها حسباً.

فالمستفاد من السير وتواريخ العرب، أن هاشماً كان سيد قومه، وشريف قريش، وجيهاً فيها حتى ذاع صيته في الأمصار والأقطار، ودانت له مكة والحجاز، وبجّلته اليمن ومن والاها، وعرفته الحبشة، وما حاذاها، وكان له مع الشام وأطرافها غزة وغيرها أخبار مجد وسيادة.

قال ابن سعد في طبقاته:

كان [أي هاشماً] صاحب ايلاف قريش، وايلاف قريش دأب قريش، وكان أول من سنّ الرحلتين لقريش، ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن، وإلى الحبشة إلى النجاشي، فيكرمه ويحبوه[2].

فكانت صفات الخير والمحبة التي امتاز بها هاشم وآله قد رفعتهم إلى مقام السيادة والشرف والسؤدد، وكان هاشم سيد قريش وشيخ مكة ورئيس الحجاز، تهابه ذؤابتهم، وأشرافهم، وترجع إليه أمرو قريش شاردها وواردها يتخاصمون

---

(١) راجع جمهرة النسب لأبي المنذر هشام بن الكلبي برواية السكري عن ابن حبيب. عالم الكتب بيروت ط ١٩٦٨.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٧٦ دار صادر بيروت.

إليه، ويتحاكمون عنده، وإذا ضممتها إلى مكارم ابنه عبدالمطلب فما رأيت إلاّ رجلاً شريفاً في قومه، مهاباً قد انثنت له وسادة الحكم في قريش فكان سيدها، حتى ولي بعد أبيه هاشماً شرف السقاية، وفخر الرفادة.

قال ابن سعد في طبقاته:

وكان عبدالمطلب أحسن قريش وجهاً، وأمدهم جسماً، وأحلمهم حلماً، وأجودهم كفاً، وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال، ولم يره ملك قط إلاّ أكرمه وشفّعهُ، وكان سيد قريش حتى هلك[١].

وكان لأبي طالب ما كان لأبيه من الشرف والصفات الكريمة، حتى أن قريشاً كانت إذا منعت السماء استسقت بأبي طالب[٢]. وامتد هذا الشرف إلى بنيه فكانوا سادةً ميامين تطال لهم النفوس، وتشرأب إليهم الأعناق، وكان ذلك غير منكر ولا مستكثر عند آل سيد البطحاء، وشيخ مكة والحجاز، وقد عبّر عنهم الجاحظ في رسائله بأنهم أشرف الخلق[٣].

كان آل أبي طالب يتمتعون بصفات السيادة من الشرف والصدق والأمانة، وهي بعض مؤهلات الإمامة، فقد كان الناس بالجاهلية يتحاكمون عند ذوي الصفات الكريمة التي تؤهل صاحبها في القضاء عند المنافرة والحكم في الدماء، والاقرار في المواريث إلى غير ذلك من متطلبات التشريع لدى مجتمع ليست له شرائعه، لتنظم حياته وتتكفل بأحكامه فقد كان للعرب حكام ترجع إليها في امورها وتتحاكم في منافراتها ومواريثها ومياهها ودمائها لأنه لم يكن لهم دين يرجع الى شرائعه فكانوا يحكمون اهل الشرف والصدق والامانة والرئاسة والسن والمجد والتجربة)).

---

(١) نفس المصدر ١: ٨٥ .

(٢) راجع السرة الحلبية .

(٣) انظر رسائل الجاحظ ١: ٢٠٩ مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٦٤ .

هذا ما كان من حال الناس قبل الاسلام تدفعهم فطرتهم الانسانية لأختيار حاكمهم ورئيسهم وهو شعور نابع من دوافع الحاجة لاختيار ذوي الشرف والصدق والأمانة وذلك لنيل العدل وتوفير الأمن، وضمان السلام، ومن كان خلاف ذلك فهو إلى الحيف أقرب وعن العدل أبعد، فلما جاء الإسلام وهو دين الفطرة أقر ما تسالم عليه الناس قبل ذلك من صفات الحاكم، وزاد عليها العصمة، وأضاف إليها العلم، وزينها بالشجاعة، وقيدها بالزهد، وهي من متممات الكمال التي تأخذ بالإمام إلى أرقى درجات المعرفة بالله تعالى، لتنشأ منها ما يؤهله لتنظيم أمور الناس وسياسة أحوالهم، وسلامة العلاقة بينهم وبين خالقهم وهي محض العبودية وخلوص الطاعة.

وإذا تمعنت في صفات آل أبي طالب الذين غلب عليهم اسم بني هاشم لينصرف إلى علي بن أبي طالب وآله عليهم السلام لوجدت أن قريش الأئمة قد اختصت بهاشم العلويين ليعني بهم آل علي دون غيرهم، فعلى رواية عبدالملك بن عمير فإن قريش المقصودون، هاشم دون غيرهم.

رواية الأئمة من بني هاشم عن طريق عبدالملك بن عمير:

فعن عبدالملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال: كنت مع أبي عند النبي (ص) فسمعته يقول بعدي اثنا عشر خليفة ثم أخفى صوته فقلت لأبي ما الذي أخفى صوته قال، قال: كلهم من بني هاشم. وعن سماك بن حرب مثله[1].

بنو هاشم الأئمة، هم علي وآله عليهم السلام :

وقد عيّن النبي (ص) إرادته من بني هاشم مقصدها في علي دون غيره، حتى

---

(١) ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ٣: ١٠٤ مؤسسة الأعلمي بيروت .

أنه (ص) قرن دعوته لرسالته، بالتبليغ لخلافته، فقد روى ابن الأثير في كامله عن علي بن أبي طالب عليه السلام:

قال علي بن أبي طالب: لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ دعاني النبي (ص) فقال: يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت ذرعاً وعلمت أني متى أبادرهم بهذا الأمر أرَ منهم ما أكره فصمتُ عليه حتى جاءني جبرائيل فقال: يا محمد إلاّ تفعل ما تؤمر به يُعذّبك ربك، فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عُساً من لبن، واجمع لي بني عبدالمطلب حتى أكلمهم وأبلغهم ما أمرت به.

ففعلتُ ما أمرني به ثم دعوتُهم وهم يومئذ أربعون رجلاً أو ينقصون، فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعته لهم. فلما وضعته تناول رسول اللّه (ص) حزة من اللحم فنتفها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصفحة ثم قال: خذوا باسم اللّه، فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة، وما أرى إلاّ مواضع أيديهم، وأيمُ اللّه الذي نفس علي بيده إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمت لجميعهم ثم قال: اِسق القوْم، فجئتهم بتلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعاً، وأيم اللّه إن كان الرجل الواحد ليشرب مثله فلما أراد رسول اللّه (ص) أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال لشدَّ ما سحركم به صاحبكم، فتفرق القوم ولم يكلمهم (ص).

فقال الغد: يا علي إن هذا الرجل سبقني إلى ما سمعتَ من القول فتفرقوا قبل أن أكلمهم، فعد لنا من الطعام بمثل ما صنعت ثم اجمعهم لي. ففعل مثل ما فعل بالأمس فأكلوا وسقيتهم ذلك العسُ فشربوا حتى رووا جميعاً وشبعوا ثم تكلم رسول اللّه (ص) فقال: يا بني عبدالمطلب إني واللّه ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني اللّه تعالى أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت وإني لأحدثهم سناً وأرمحهم عيناً وأعظمهم

بطناً وأحمشهم ساقاً أنا يا نبي اللّه أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثم قل: فإن هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا قال: فقام القوم يضحكون فيقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[١].

ويستفاد من الحديث أمور:

١ ـ أظهر الحديث أهمية الإمامة وأنها مقرونة بدعوة التوحيد، فالنبي (ص) كما أعلن دعوته إلى اللّه تعالى أعلن في الوقت نفسه عن خليفته الشرعي وأشعر عشيرته الأقربين وغيرهم أن دعوته لخلافة علي عليه السلام أمرمن اللّه تعالى كما هي دعوته لرسالة ربه.

٢ ـ كانت دعوته (ص) لعلي مبكرةً مهّد فيها إلى إمامته، فسبق أحداث التنافس وأجهض محاولات البعض التي ستلد أطروحات الاستخلاف غير المشروع.

٣ ـ كان الحديث هذا بماله من الأهمية في تأسيس فلسفة الإمامة، فقد رفضتها مدارس الأطروحات المبرمجة، الداعية إلى أن الخلافة هي اختيار الأمة، وقد بدا الاضطراب على بعض هذه المدارس في معالجاتها لهذا الخبر حتى تطرقت في الانكار بعضها بقولها على لسان أحدهم: لا أرى هذا الحديث إلاّ مصنوعا، وإلاّ فلم يحتج به علي في استحقاق الخلافة[٢].

وقد غفل عن حيثيات يوم السقيفة التي سحقت ـ وللأسف ـ كل مبتنيات الاستخلاف ونصوصه، إذ كانت حركة عسكرية صرفة تسحق أية محاولة تقف في طريقها.

٤ ـ كان الحديث احدى الحجج القوية التي احتج بها علي عليه السلام في استحقاقه للخلافة فيما بعد، فقد روى الطبري أن رجلاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام بم ورثت ابن عمك دون عمك فقال ما هاؤم ثلاث مرات[٣]... ثم روى الخبر بتمامه.

---

(١) الكامل لابن الأثير ص٦٢ ج ٢، دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥م .

(٢) على هامش الكامل لابن الأثير فراجع ٢: ٤٢ .

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٦٢ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٣٩ .

وخلاصة القول:

إن دعوة الأشرفية في الإمامة نابعة من صميم الوجدان الإنساني الذي يأبى أن يحكمه من هو دونه في الشرف والمنزلة بل يتوق متطلعاً، أن يخضع لأهل الشرف من بني قومه اعتزازاً، وأن يسلّم لهم افتخاراً، وليس المقصود من ذلك أن الإسلام عزز فكرة الطبقية والتسلط من ذوي النفوذ، بل ألغى كل الامتيازات المادية من أن تتحكم في اختيار الإمام أو الخليفة ودعا إلى نبذ النزعة الطبقية، وعدها احدى الظواهر الظالمة التي ارتكزت في نفوس الجاهليين، ورد على من اقترح أن يكون الرسول من ذوي النفوذ المادي والتسلط الطبقي بقوله ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذير أو يلقى إليه كنزٌ أو تكون جنة يأكل منها﴾ (١).

وقوله حكاية عن المشركين ﴿فلولا أُلقي عليه أسورةٌ من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ (٢).

اذن فالإمامة منصب إلهي، يختار اللّه تعالى له خيرة عباده وخاصة أوليائه، وليس لأحد الخيرة في ذلك بل للّه الخيرة ولرسوله.

هذه قرائن مقالية نبوية أكدها (ص) إضافة إلى القرائن الحالية التي تفرضها حالات بني هاشم من الشرف والصدق والأمانة والمجد والرئاسة ثم ستنصرف إلى آل علي الاثني عشر ـ كما تتكفله البحوث القادمة انشاء اللّه تعالى ـ لتجتمع وتؤكد أن حديث الأئمة من قريش منصرف إلى الأئمة الاثني عشر من آل علي قطعاً، وسنوافيك بالمزيد قريباً ـ بحوله وقوته ـ من البحوث الأخرى.

---

(١) الفرقان ٧ ـ ٨ .

(٢) الزخرف ٥٣ .

الفصل الثاني

ما المقصود من لفظ ((خليفة)) الواردة في الحديث

لما كان النبي (ص) مبيناً لأحكام اللّه تعالى ومفسراً لكتابه الكريم، كان الخطاب النبوي موافقاً للخطاب القرآني، وذلك تأكيداً لما ورد في كتاب اللّه تعالى وتبياناً للأمر الإلهي.

فالنبي (ص) مفسر لآيات ربه قد حرص - وهو سيد البلغاء - أن يصوغ حديثه صياغة قرآنية صرفة وضمن الدائرة القرآنية الكبرى والغنية بما تحتاج إليه مقتضيات التبليغ من أمر أو نهي، بشارة أو انذار، بيان أو إخبار، ولا يمكن أن يتغاير كلام الرسول (ص) مع كلام مرسِلِه، فإن طبيعة العقلاء قد تسالمت أن يكون الرسول ممثلاً عن مرسله في كل غاياته بما في ذلك كلامه من لفظ ومعنى، وللرسول الحق أن يزيد في كلامه زيادة بيان وأن يتم من مقصوده ما يزيل الغموض والالتباس، وهذه سيرة العقلاء طراً.

لذا حرص النبي (ص) أن يستخدم اللفظ القرآني بأحسن استخدام وأن يوظف مفاهيم القرآن بما يعينه على أداء مهمة التبليغ.

وعلى هذا فإن القارىء للحديث النبوي، قراءة تفسير وتحليل يجب أن تكون نظرته للنص النبوي مبنية على أساس المفهوم القرآني، وأن يستعين بمعرفة للألفاظ القرآنية للوصول إلى ما أراده النبي (ص) وما عناه.

وفي الحديث المشار إليه ((الخلفاء من قريش)) ورد لفظ ((خليفة)) فما المقصود

به، وما المراد منه؟

أما على التفسير اللغوي ففي مادة ((خَلَفَ)): إن لفظ ((خليفة)) تعني السلطان الأعظم ويؤنث كالخليف خلائف وخلفاء وخلفة خلافة كان خليفته وبقي بعده، كذا أورداه في تاج العروس وفي القاموس المحيط[1] وعليه في الصحاح، وكذلك لسان العرب، وبه قال جمعٌ من اللغويين.

لكن المصطلح القرآني يفيد غير ذلك، أي ليست الخلافة بالمفهوم اللغوي هي أن يخلف فلان فلاناً أي يأتي بعده لغيبته أو موته مطلقا دون تحديد لخصوصية معينة، بل الخلافة التي أشار إليها القرآن الكريم وعليها كذلك الحديث الشريف هي خلافة إلهية تحتاج إلى جعل جاعل، ومعنى ذلك أن الخلافة الإلهية هي تصيير تكويني وتصيير تشريعي، ولنا على ذلك شواهد قرآنية نقدمها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ [ص٢٦].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ [الأنعام: ١٦٥].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم﴾ [يونس:١٤].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلنا خلائف﴾ [يونس: ٧٣].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره﴾ [فاطر: ٣٩].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾

---

(١) تاج العروس ج ٦ ص ٩٩ مادة خلف مكتبة الحياة ـ القاموس المحيط ج ٣ ص ٢٠١ مادة خلف دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

[الأعراف: ٦٩].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ [الأعراف: ٧٤].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ [النمل: ٦(ص)].

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ [السجدة: ص٢٤].

١١ ـ قوله تعالى: ﴿ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ [القصص: ٥].

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ [البقرة: ص٢٤].

والجدير بالذكر أن لفظ «إمام» استخدم بدل لفظ خليفة في بعض النصوص الواردة وقد تعاقب اللفظان ليعطيان معنى واحداً وهو خلافة اللّه في الأرض، فالإمام في المصطلح القرآني هو ذلك الخليفة الذي نوه عنه النبي (ص) وأشار إليه في حديثه أنه لا ينقضي هذا الأمر حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة وإليك ما أكده العسقلاني في شرحه على صحيح البخاري بقوله تعليقاً على هذا الحديث حيث قال: في حديث أبو بكر الصديق بلفظ «الأئمة من قريش» رجاله رجال الصحيح وفي لفظ الطبراني «الأئمة» بدل الأمراء وأخرجه الطيالسي والبزاز والمصنّف (أي البخاري) في التاريخ من طريق سعد بن إبراهيم عن أنس بلفظ «الأئمة من قريش»[1].

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنسوب عنه وإما لموته، وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف اللّه أولياءه في الأرض، قال تعالى: ﴿هو الذي جعلكم خلائف في

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج ١٣ ص ١١٤ دار المعرفة بيروت .

الأرض﴾ ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ وقال: ﴿يستخلف ربي قوماً غيركم﴾، والخلائف جمع خليفة، وخلفاء جمع خليفة قال تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ ﴿وجعلناهم خلائف﴾ ﴿وجعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾... انتهى(١).

إذن فالجعل في الآيات المباركة كلها هو التصيير، بقسميه، التصيير التكويني والتصيير التشريعي، فإنه تعالى لما خلق آدم وجعله خليفة، فقد صيّره، بحال يقتضي معه الخلافة وهيّأه لمهامها الكبرى، ثم صيّره خليفة بالتصيير التشريعي وذلك بعد أن أعلم الملائكة بذلك فشرّع لهم خلافته وأوجب عليهم طاعته وأمرهم بالسجود له.

فبالتصيير التكويني، استحق آدم الخلافة وبالتصيير التشريعي أوجب على الملائكة السجود له ثم بكلا التصييرين بعثه نبياً بعد أن جعله خليفة.

ونفس الكلام يأتي في خلافة داود عليه السلام حيث وهبهُ اللّه أعظم الصفات وأبدعها واصطفاه وصيّره خليفة وأوجب على الناس اتباعه والتصديق به فبالأول تمّ التصيير التكويني لخلافة اللّه تعالى، وبالثاني تم التصيير التشريعي بمتابعة الأمة له.

قال الشيخ إسماعيل البروسي في تفسير روح البيان، وفي معرض قوله تعالى ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ إنما قال جاعل وما قال خالق لمعنيين:

أحدهما أن الجاعلية أعم من الخالقية فإن الجاعلية هي الخالقية وشيء آخر، وهو أن يخلقه موصوفاً بصفة الخلافة، إذ ليس لكل أحد هذا الاختصاص، كما قال تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ أي خلقناك مستعداً للخلافة فأعطيناكها، والثاني: إن للجعلية اختصاصاً بعالم الأمور وهو الملكوت وهو ضد عالم الخلق لأنه هو عالم الأجسام والمحسوسات كما قال تعالى ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ أي الملك والملكوت فإنه تعالى حيث ذكر ما هو مخصوص بعالم الأمر ذكره

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص١٥٦ دار المعرفة بيروت .

بالجعلية لامتياز الأمر عن الخلق كما قال تعالى: ﴿الحمد للّه الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ فالسموات والأرض لما كانتا من الأجسام المحسوسات ذكرهما بالخلقية والظلمات والنور لما كانتا من الملكوتيات غير المحسوسات ذكرهما بالجعلية، وإنما قلنا الظلمات والنور من الملكوتيات لقوله تعالى ﴿اللّه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ فيفيد أنها من الملكوتيات لا من المحسوسات، وأما الظلمات والنور التي من المحسوسات فإنّها داخلة في السموات والأرض فافهم جيداً فكذلك لمّا أخبر اللّه تعالى عن آدم بما يتعلق بجسمانيته ذكره بالخلقية ﴿إني خالق بشراً من طين﴾ ولما أخبر عما يتعلق بروحانيته ذكره بالجعلية وقال: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ وفي إني جاعل إشارة أخرى وهو اظهار عزة آدم عليه السلام على الملائكة لينظروا إليه بنظر التعظيم ولا ينكروا عليه بما يظهر منه[1].

وقال الرازي في تفسيره للآية: جاعل من جعل الذي له مفعولان دخل على المبتدأ والخبر وهما قوله ﴿في الأرض خليفة﴾ فكانا مفعولين ومعناه مصيّر في الأرض خليفة.. والخليفة من يخلف غيره ويقوم مقامه.. وإنما سماه اللّه خليفة ((أي آدم)) لأنّه يخلف اللّه في الحكم بين المكلفين من خلقه وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والسدّي[2].

وكذا الكلام نفسه في الآيات الدالة على الإمامة وهي الخلافة، فإن الجعل الإلهي بتصيير الإمام إماماً هو المقصود منها، فالآيات الكريمة إشارة إلى العناية الإلهية في شخص الإمام وإلى جعل وتصيير لنفسه القدسية وشخصه الملكوتي، فإن المنصب الخطير هذا، وهو الولاية الكبرى والإمامة العظمى لا يكون تعيينه بيد الأمة عن طريق اجماعها، ولا بالقوة والغلبة كما ذهب إليه البعض، فإن ذلك خلاف

---

(١) تفسير روح البيان لاسماعيل البروسوي ج ١ ص ٩٥ دار احياء التراث العربي ـ بيروت .

(٢) تفسير الفخر الرازي ص١٨٠ دار الفكر بيروت .

النص القرآني ولا يحتمل التوجيه، ولا يقبل التأويل.

قال أبو عبدالله القرطبي في تفسيره عند تعرضه لآية ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ قال: هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة. ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلاّ ما روى عن الأصم حيث كان عن الشريعة أصم، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه قال: إنها غير واجبة في الدين بل يسوغ ذلك وإن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم وتناصفوا فيما بينهم وبذلوا الحق من أنفسهم وقسّموا الغنائم والفيء والصدقات على أهلها وأقاموا الحدود على من وجب عليه أجزأهم ذلك ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماماً يتولى ذلك، ودليلنا قول اللّه تعالى ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ وقوله تعالى ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ وقال ﴿وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض﴾ أي جعل منهم خلفاء إلى غير ذلك[1].

القول بالتصيير التكويني يوجب عصمة الأنبياء والأئمة:

ومن القول بالتصيير التكويني، يستفاد أن يكون الخليفة المبعوث معصوماً، وذلك فإن العصمة ـ كما سيأتي في مبحثها الخاص ـ هي امتناع النبي أو الإمام عن ارتكاب المعصية كبيرة أو صغيرة.

ـ وهو قول الإمامية خاصة ـ لأن التصيير الإلهي لنفس النبي أو الإمام الملكوتية، يجعل فيها ملكة الترفع عن ارتكاب الذنوب، فإن اللّه تعالى لما صيّر ((نفس)) المبعوث المبلّغ جعل فيها من العناية والإعمال ما أبعدها عن معصيته وجعل فيها ملكة الطاعة مستوفية لبلوغ الكمال الذي يرتضيه اللّه تعالى لأوليائه وحججه

(١) تفسير القرطبي لأبي عبدالله القرطبي ج ١ ص ٢٦٤ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

الذين يبلّغون رسالته، فلا يناسب قولنا إن اللّه صيّر الخليفة على نحو من التصيير والعناية الإلهية وهو مع ذلك تتوق نفسه إلى المعصية وارتكاب القبائح، فإن ذلك لا يناسب الغاية من التصيير الإلهي للخليفة وهي الطاعة للّه تعالى وأن يكون دالاً للعباد عليه. فاذن مقالة الجعل والتصيير الإلهي، دليلها عصمة النبي والإمام، وذلك فإن قولنا أن الإمام معصوم، وهو عين قولنا أن الإمام مصيّر بالتصيير الإلهي وبما يناسب الحكمة من البعثة، وهو التبليغ إلى رسالات ربه في مقام يليق بشأن الرسالة وحكمة التبليغ، فلا يعقل أنَ من صيّره اللّه تعالى خليفة وحجّة على خلقه وبعنايته، ثم نجوّز عليه المعصية وارتكاب الذنوب.

فهل خلقُ الحجة من قبل اللّه وتصييره كذلك، بارادة اللّه أم خارجٌ عنها؟.

فإن قلنا بارادته تعالى جعله خليفة، فقد اقتضى أن يجعله مطيعا، وكيف يرضى لمن صيّره بارادته أن يكون عاصياً له؟.

القول بالتصيير الإلهي لا يبطل المدح للنبي أو الإمام:

إن قولنا بأن اللّه جعل من الخليفة نفساً معصومة من الذنوب والقبائح، لا يبطل مدح اللّه لأنبيائه وأوليائه بالطاعة، بل لا يؤول هذا القول إلى أن اللّه تعالى قد أجبر المعصوم لأن يكون معصوما، وإذا كان كذلك فما معنى امتداحه لهم؟.

فنقول: إن اللّه تعالى لما تلطّف على الخليفة وأعانه على الطاعة وعَلِم استحقاقه للعناية والتصيير لنفسه القدسية، لأن في نفس المعصوم اقتضاءً للعصمة والطاعة، وأنها مهيأة لقبول الفيض الإلهي، فإن اللّه تعالى أعانه على بلوغ الكمال، ووفّقه لنيل الكرامة بعدما كانت نفس المعصوم قابلة لذلك، وهو أمرٌ ـ أي القبول لتلقي الفيض الإلهي ـ خاص بالأنفس القدسية الملكوتية، وليس كل نفس قابلة لهذا الفيض الإلهي، لِتُغمر ببركات اللّه ورحمته.

وعلى هذا فإن مدح اللّه تعالى لأنبيائه وأوليائه بالطاعة وعدم المعصية، هو

مدح لترويض الولي نفسه لأن يتقبل الفيض الإلهي، ويستحق الكرامة الربانية، فلا منافاة بين تصيير اللّه تعالى للولي بأن جعله خليفة، وبين المدح الذي يستحقه أولياء اللّه على حُسن طاعتهم وجميل متابعتهم، ألاترى أنهم عليهم السلام في مقام الطاعة والتأدب مع حضرة الحق تعالى بدعائهم إليه «هذا مقام من حسناتهُ نعمةٌ منك وسيئاته بعمله وذنبه عظيم وشكره قليل... إلى آخر الدعاء»[1] وهو اعتراف بعظيم أنعمه عليهم، ومنها اعانتهم على طاعته ولزوم عبادته، فبالمعرفة استحقوا الكرامة، وبالعبودية نالوا الثناء، ليصلوا إلى أسمى مراتب الكمال.

القول بالتصيير الإلهي يوجب بطلان القول بجواز تولي الظالم أمور المسلمين:

ذهب البعض إلى جواز تولي الظالم ولاية المسلمين، ووجوب طاعته وعدم مخالفته والخروج عليه فإن من حكم بالقهر والغلبة فعلى الأمة إطاعته لأن اللّه قد مكّن الحاكم من الولاية والسلطان، وقد رووا عن سلفهم: أن السلطان ظِلُّ اللّه في الأرض، ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان[2]، وهي كما تعلم تشمل باطلاقها السلطان العادل والجائر، بل روى البخاري وجوب الصبر على الحاكم الجائر وعدم الخروج عليه أو نزع الطاعة منه، فعن النبي (ص) أنه قال: من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية[3].

لذا فإن طاعة السلطان الجائر وأنه ظل اللّه في أرضه هي أحكام دخيلة على المفهوم الإسلامي، لأن الإسلام يرى أن الخليفة الذي يختاره اللّه تعالى حجةً على

---

(١) انظر مفتاح الفلاح في عمل اليوم والليل للشيخ البهائي باب صلاة الليل ص ٣٣٣ ـ دار الأضواء بيروت .

(٢) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٦٢ ط ٤ دار المعرفة بيروت ١٩٦٩ .

(٣) صحيح البخاري كتاب الفتن ج ٤ ص ٢٢٢ .

عباده، ومبلغاً لرسالاته، يجب أن يكون معصوماً من ارتكاب الذنوب ومقارفة القبيح، لأن نظرية التصيير الإلهي وجعل اللّه خلفاء في أرضه توجب القول ببلوغ الكمال لدى الإمام السائس، فاللّه تعالى صيّره بعد أن اختاره خليفة في شأن لم يعصِ اللّه طرفة عين أبداً، فكيف يكون الجائر ظل اللّه في أرضه وقد ارتكب مالا يرضاه اللّه ويكرهه؟

نعم، هو ظل اللّه في أرضه بعد اختياره له وتصييره وجعله بما تقتضيه موجبات الخلافة الإلهية، وهو ما يوافق الإمامية من القول بعصمة الإمام وعدم ارتكابه الذنوب، فإن العدل الإلهي يقتضي جعل الحاكم العادل ليبسط العدل في أرضه وينشر الصلاح بين عباده.

فإن قيل:

سلّمنا أن في خلافة آدم وداود وجميع الخلفاء والأئمة، جعلاً وتصييراً، فما تقول في الآيات الباقية، حيث أن الآيات الأخرى يشترك فيها المؤمن والكافر، وبعضها اشارة إلى المؤمنين المتقين الذين اتبعوا أنبيائهم وأخرى عامة تشمل جنس الناس مؤمنهم وكافرهم، فقد استخلف هؤلاء في الأرض، فما معنى الجعل هنا، وهل هناك حاجة إلى هذا الكلام؟

قلت: إن اللّه تعالى لما استخلف الإنسان على الأرض مؤمنهُ وكافرهُ هيأهم للبقاء والعيش، فخلقهم ثم مدّ في أعمارهم ليستخلفوا من كان قبلهم، وهذه أمورٌ لا تتم إلاَ بأمر اللّه وإرادته وتصييره لحال الأمة دون غيرها، وهي نعمة أتمها اللّه وجعلها من نواميس الخلافة على الأرض ودون هذا الجعل والتصيير لمقتضيات البقاء، لما كان بمقدور الأمم والأفراد استخلاف من قبلهم، ألاترى أن مورد الآيات هذه هي في مقام التذكير لأنعم اللّه تعالى وقد مَنّ على الإنسان بأنه جعلهُ وصيّرهُ خليفة في الأرض؟ ولو لم تكن هناك نعمة في مقام الامتنان لما صحّ منه تعالى أن يحتج على المخلوقين بفواضل نعمه في البقاء والاستخلاف.

إذن فالجعل والتصيير كلها من الله تعالى إعمالاً بالخليفة لأن يستخلفه تعالى، كل بحسبه، فالأنبياء جعلهم خلفاء بعدما أعمل فيهم وصيرّهم في مقام استحقاق الخلافة والإمامة، والأمم جعل فيها قابلية البقاء لترث الأرض بفضله وجوده.

أقول: إذا كان الأمر كذلك، وهي الحاجة إلى الجعل والتصيير الإلهيين، وذلك بأن يجعل الله تعالى في الخليفة ما يليق بشأن مقام الخلافة من العناية والإعمال تهيئةً لهذه المهمة الكبرى، كما جعل لآدم وداود والأنبياء جميعاً ولأوصيائهم عامة، فهل يليق بخلافة خاتم النبيين (ص) أن تهمل دون أن يكون لله فيها شأن من الجعل والتصيير؟ وأن تترك خاتمة الرسالات دون أن تكون يد الغيب قد صيّرت في الأمة من يرث مقام الخلافة والإمامة؟. وإذا كانت الرسالات السابقة قد هيأ الله تعالى لها من يكون حجته في تبليغها، فكيف يترك خير الرسالات وأفضلها لاجتهاد الأمة وآرائها؟ والطبيعة الإنسانية معروفةً بتغايرها في الآراء واختلافها في الأهواء، حتى أودى بأمة محمد (ص) ـ وهي خير الأمم كما صرّح بذلك القرآن الكريم ـ إلى التنازع والاضطراب والفتنة، حتى صرّح بذلك الثاني في قولته المشهورة؛ إن بيعة أبي بكر كانت فلتة.

أجل يا بن الخطاب، إنها فلتةٌ جرّت إلى فتنة، ويا للعجب كم هي فلتة، وفتنة، وخدعة، فإن كانت ـ هذه الفلتة ـ من رسول الله، فهو التفريط، لأنه ترك الأمر هكذا ولم يوص، وإن كانت من غيره فهي الخيانة، ولكنك ـ صاحب رسول الله والعالم بحاله ـ تجلّهُ من أن يفرّط في الأمر ليترك أمته سدى دون الدليل إلى الخليفة الراعي، والإمام السائس.

أوليس ذلك بالقبيح على الله أن يرضى لأمة محمد (ص) ـ وهي خير الأمم ـ مشغولة في تعيين الخليفة، حيث كل يراها في صاحبه، لتجرّ على الأمة الفتن والفرقة، والضلالة والحيرة، فكلٌ يكفر الآخر، وكلّ يستحل دم صاحبه ويستبيح حرمته فلا يرضى الحق في غيره، والأمر دونه؟.

وهل بلغت الأمة من الرشد والكمال حتى تختار من تراه مناسباً يحل محل رسول اللّه (ص) بدعوى إجماع أهل الحل والعقد؟.

وإذا كان أهل الحل والعقد قد بلغوا من الأمر معرفة ما يصلح الأمة به من أمر الخلافة لأنهم بلغوا من الصلاح والكمال ما جعلهم يختارون من يبلّغ رسالات ربه، فما الحاجة إلى أن يبعث اللّه النبيين والمرسلين، مبلغين ومنذرين، والأمم يصلحها أهل الحل والعقد؟.

قالوا: إن الأمة عندها كتاب ربها، وحسبهُ مبشراً ونذيراً، وأهل الحل والعقد منها، تقرأ ما جاء في كتاب اللّه، ينتهجون منهجه، ويتخذون مسيره، فكل ما أجمع عليه أهل الحل والعقد فهو من كتاب اللّه، واجماعهم على اختيار الخليفة مثلهُ.

قلت: فما الحاجة إذن إلى أن يبعث اللّه رسولاً؟ فالوحي، بدلَ أن يلقيه لرسول اللّه، يُلقيه عند أهل الحل والعقد، تقرأ ما جاء في كتاب ربها، وتبلّغ الأمة أحكامه، فيلزم من بعث النبي اللغو والعبثية، ومن كلامه جلّ شأنه ﴿ما أتاكم الرسول فخذوه﴾ كذلك.

قالوا: إن اللّه سدد إجماع الأمة، بأن الأمة لا تجتمع على خطأ، وإذا كان الأمر كذلك، فإنها مسددةٌ في اختيار الخليفة.

قلت: على الرغم من قولكم أن النبي غير معصوم، يخطأ ويسهو، ينسى ويغفل، وجوّزتم أن يصدر منه القبيح على خلاف بينكم في ارتكابه الصغائر أو الكبائر بحجة أنه بشر، فإن الأمّة أفضل من نبيها لأن فيها إجماع أهل الحل والعقد، ينقذها من الضلالة، ويأخذ بها إلى المحجة البيضاء، وقد عصمها اللّه من الخطأ والسهو وارتكاب القبيح، لأنها لا تجتمع إلاّ على خير.

وهل كل إجماع الأمة مسددٌ من اللّه، وقد أجمعت من قبل أمة موسى على عبادة العجل واتّباع السامري، وما الفرق بين إجماع أمة محمد، وإجماع أمة موسى؟.

قالوا: قياس مع الفارق، فإن أمة محمد (ص) هي الأمة المرحومة، وقد نَضُجَ عقلها، واكتمل رشدها، وهي خير الأمم بنص الكتاب: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾، سادت الأمم في الجاهلية، وحسنت سيرتها بالإسلام، حتى كانت أفضل الأمم، وأشرفها وأحسنها، فنظر إليها الناس نظرة إكبار وإجلال وسيادة، ومن كان هذا حالها فحريٌ بها أن لا تجتمع إلاّ على خير.

قلت: ينتقض كلامكم هذا باجماع أهل التوحيد بالقول بوجوب بعثة الأنبياء وأنتم منهم، واتفاق أهل القبلة على أن اللّه تعالى لا يبعث نبياً إلاّ مبلغاً ومنذراً لأمته إنقاذاً لهم من الضلالة وحيرة الجهالة، وهو ما يدل على أن الأمة مهما بلغت من الرقي فإنها لا تبلغ الصلاح من معرفة ما أراده اللّه تعالى وما نهى عنه إلاّ بحجة يبلغها أحكام اللّه ويأخذ بها إلى معرفته ووجوب طاعته، ولو كان الأمر كذلك فإن الأمة قبل البعثة قد اجتمعت على كثير أمور وجُلّ عادات، اتخذتها لنفسها ورضيتها في معاشها، كالربا في أرزاقهم، وزواج الشغار في نكاحهم، والغارات في سياستهم حتى بعث اللّه فيهم رسولاً هادياً ومبشراً ونذيراً، أزال عنهم أدران الجاهلية وأرجاس ما اجمعوا عليه.

قالوا: إن الأمة بعد إسلامها اكتمل رشدها، وعند صحبتها لنبيها وقد حلّ بين ظهرانيها أرشدها إلى أحسن المناقب وأكمل الصفات حتى صارت لا تجتمع إلاّ على خير، وهذا بفضل الإسلام وحُسن الصحبة، وهو ما يصحح إجماعها ويوّحد كلمتها.

قلت: إذا كان الأمر كذلك فما الحاجة إلى خليفة يرعاها وإمام يسوسها؟ ألا تكتفي بحسن تأديب نبيها وقد أودع عندها أحسن الصفات، وأدّبها بأكمل الأخلاق، فكان من اختيار الخليفة لغواً وعبثاً وهي القادرة على إدارة شؤونها وسياسة أحوالها، وقد ذهب إلى هذا القول من المعتزلة أبو بكر الأصم، وردّ عليه القرطبي

في تفسيره[١] بوجوب الإمامة، لدلالة القرآن عليها وحاجة الأمة إليها وقوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ دليل علىوجوب الإمامة والخلافة، ثم وصفه بأنه الأصم عن الشريعة، لقوله بعدم وجوب الإمامة.

قالوا: لا زلت تُسفّهُ اجماع أهل الحل والعقد وتطعن في كلمتهم وما برحت تشق الكلمة وتدعو إلى الفرقة، وذلك بأمور تثيرها وقد مضت عليها سنون، والأمة مجتمعة على ما ذهبت إليه كلمة أهل الحل والعقد وما أجمعت عليه آراؤها والواجب علينا أن لا نشغل أنفسنا ونمزق اجتماعنا بأمورٍ قد خلت القرون فيها وذهب كلّ إلى ربه، وليس من الحكمة الرجوع إلى الماضي واثارة أشجانه.

قلت: معاذ الله من التسفيه بل الحكمة معرفة ما حلّ بالأمة من نكسات وما جرى فيها من المصائب لأن معرفة حالنا منوطاً بمعرفة ماخلت منه القرون الأولى، ألا سمعت كتاب الله تعالى يقول: ﴿وما أرسلنا من قبلك رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخر خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[٣] فإن السير في الأرض، هو الضرب فيها لمعرفة أحوال الماضين وأخذ العبرة مما جرى عليهم، وهي كناية عن البحث والتحقيق في أخبار الأمم السابقة، مسلمة كانت أو غير مسلمة، وهذا لعمري خير ما دعا إليه القرآن الكريم للكشف عن الذات المسلمة، بالبحث عن عاقبة من سبقنا، بل هو برنامج تثقيفي اعتمده القرآن وأكد عليه لقراءة تراثيات الأمم، واستخلاص العبرة منها.

فهل إعادة قراءة التاريخ لمعرفة ذاتنا المضطربة والبحث عن هويتنا المفقودة بين

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٦٤ دار احياء التراث العربي - بيروت .

(٢) سورة يوسف ١٠٩ .

(٣) آل عمران ١٣٧ .

زحام الآراء والأهواء وتلمّس معالم شخصيتنا المشوّهة واصلاحها جرّاء تجاعيد التوجيه والتشكيك، هو شقّ للكلمة ودعوة للفرقة؟.

إن اللجوء للطعن في جهود البحث والتنقيب وكَيل التهم إليها ما هي إلاّ حيلة العاجز ومنطق الخسران.

قالوا: مهما أردت أن تقول ففيه من الصواب وجه، وقد نُسلّم في ما ذهبت إليه، لأن بيننا وبينك كتاب اللّه شاهد، ومنطق العقل والواقع حاكم، لكنك لا تستطيع أن تردَّ على اجماع الأمة، وما ذهبَ إليه أهل الحل والعقد، فإنه بيننا وبينك حجة دامغة وقضية قاطعة وقد عرفناك أن تجعل بيننا وبينك ما اتفقنا عليه وما سطرهُ أهل السير والتاريخ من الفريقين، وهو خير ما احتكمت به، ورجعت إليه.

قلت: إن كنتم قد أخذتموني باجماع الأمة، وصدقتموني بما أورده أهل السير والتاريخ فسأرجعكم إلى ما أقررتم له وسلمتم به، وسنقرأ عليكم من أخبار البيعة، وأحوال الاجماع ما يكون لكم شافيا ودليلاً وافياً، وأراكم قوماً ليس بيننا وبينكم خلاف، فقد أقررتم ما أقررنا به وذهبتم إلى ما نذهب إليه، غيز أننا نلتزم بالنص الذي ورد عن رسول اللّه (ص)، بطريق الفريقين، وأنتم تلتزمون بما ورد من توجيه أو رأي أو نظرة تفسرون ما ورد عن رسول اللّه (ص) ونحن وإياكم كالظمآنين، أحدهما لا يرد إلاّ من أصل العين فينتقع غليله ويطفئ لهب ظمئه، والآخر يترك صاحبه ليبتعد ويبتعد حتى يرد من آخر الماء ليشرب، فيعلق به من الوحل والحجارة والأخلاط، ما يُنغّص عليه شربه، ويكدّر عليه نقيعه وإني، كما سلّمتم معي في أمور، فسأسَلم معكم في إجماع الأمة، مراعاةً لأدب البحث والنقاش بيننا وبينكم، فإنا لا نبغي على أحد، وإن بُغي علينا في مقالاتهم، ولا نتهم أحداً وإن كالوا علينا من التهم والشتائم، ولا نطعن في إيمان أحد وأن كُفّرنا واتُهمنا واعتدي علينا، وليس لشيء سوى النقاش والبحث عن الحقيقة، فانا كلما دعونا إلى الحقيقة ونبذ الخلاف بيننا والاتفاق على ما ورد عن طريق الفريقين، سمعنا ما يُقرّح القلوب ويُثير الغيور،

فمثلاً لو أراد الفخر الرازي مناقشتنا في الإمامة والخلافة فإنه لا ينهي قوله إلاّ بالشتم واللعن حيث يقول: وذلك يوجب القطع بسقوط قول هؤلاء الروافض لعنهم اللّه(١).

ومن ذلك قول الذهبي في التفسير والمفسرون، وهو حديث عهد بأساليب أدب الجدل العلمي والنقاش الموضوعي في القرن العشرين قال في عنوان له، احتيالهم - يعني الإمامية - على تركيز عقائدهم وترويجها: يدّعون أن القرآن حُرّف وبُدّل عما كان عليه زمن النبي (ص) وكل هذا لا أعتقد إلاّ أنه من قبيل الاحتيال على تركيز عقائدهم وايهام الناس أنها مستقاة من القرآن الذي هو المنبع الأول للدين. وأعجب من هذا أنهم أخذوا يموهون على الناس ويغرون العامة بما وضعوه من أحاديث على رسول اللّه (ص) وعلى أهل بيته.. (٢) ومثله ما استخدمه أحمد أمين من أسلوب الشتم في قوله: وأما التشيع فقد كان عش الشعوبية الذي يأوون إليه، وستارهم الذي يستترون به ثم قال مباشرةً بعد هذه الجملة مفسراً لها: يذهب ابن قتيبة إلى أن الذين اعتنقوا الشعوبية هم سفلة الناس وغوغائهم(٣).

ولا أريد أن أثير طرفا مما تعاني منه الطبقة المفلسة من الكتاب، وقد اتخذوا من أساليب السَوَقَة ما يُنَفر الطباع ويُقزز الأسماع، ويدعو إلى الشفقة بهم والعطف عليهم، فلعلهم لا يملكون أسلوب البحث العلمي والمنطق الموضوعي الجاد.

والنصوص التاريخية المعتبرة تُقرأنا الاجماع، وتصور لنا الحالة غير الطبيعية التي أفرزتها ظروف ذلك اليوم، وتُحصي لنا الحالات الشاذة التي رافقت التحركات المتسرعة.

فقراءة مقطع تاريخي من يوم السقيفة سيقّدم لنا الصورة الواضحة للاجماع المدعى، وهل يصلح ذلك الاجماع حجة يحق للباحث التاريخي على ضوئها أن

---

(١) انظر تفسير الرازي ج ٦ ص ٣١ .

(٢) انظر التفسير والمفسرون محمد حسين الذهبي ج ٢ ص ٢٩ .

(٣) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ج ١ ص ٦٢ .

يؤسس مبتنيات مدرسته؟.

قال ابن قتيبة الدينوري في الإمامة والسياسة:

إن أبا بكر رضي اللّه عنه تفقد قوماً تخلفوا عن بيعته عند علي كرم اللّه وجهه، فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم وهم في دار علي، فأبوا أن يخرجوا فدعا بالحطب وقال والذي نفس عمر بيده، لتخرجنّ أو لأحرقنّها على من فيها، فقيل له يا أبا حفص: إن فيها فاطمة؟ فقال وإن، فخرجوا فبايعوا إلاّ علياً فإنّه زعم أنه قال: حلفت أن لا أخرج ولا أضع ثوبي على عاتقي حتى أجمع القرآن، فوقفت فاطمة رضي اللّه عنها على بابها فقالت: لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضراً منكم، تركتم رسول اللّه (ص) جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا، ولم تردوا لنا حقاً.

فأتى عمر أبا بكر فقال له: ألا تأخذ هذا المتخلف عنك بالبيعة؟ فقال أبو بكر لقنفذ وهو مولى له: اذهب فادع لي علياً، قال فذهب إلى علي فقال له ما حاجتك؟ فقال: يدعوك خليفة رسول اللّه فقال علي لسريع ما كذبتم على رسول اللّه، فرجع فأبلغ الرسالة، قال فبكى أبو بكر طويلاً، فقال عمر الثانية: لا تمهل هذا المتخلف عنك بالبيعة، فقال أبو بكر رضي اللّه عنه لقنفذ: عد إليه فقل له خليفة رسول اللّه يدعوك لتبايع، فجاءه قنفذ، فأدى ما أمر به فرفع علي صوته فقال سبحان اللّه؟ لقد ادعى[1] ما ليس له، فرجع قنفذ فابلغ الرسالة، فبكى أبو بكر طويلاً ثم قام عمر، فمشى معه جماعة، حتى أتوا باب فاطمة فدقوا الباب، فلما سمعت أصواتهم نادت

---

(١) إلى هنا تنتهي في نسخة الإمامة والسياسة المطبوعة في دار المعرفة والمحققة من قبل د . طه محمد الزيني ثم ينتقل البحث مباشرة إلى قتل مصعب بن الزبير المختار بن أبي عبيدة، وذلك بحجة الخطأ المطبعي مع أن النسخة القديمة المطبوعة في مصر بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ورد النص كاملاً وهي غير محققة وغير خاضعة للشطب والتحريف، وأريد بذلك أن أوقف القارىء على أساليب المحققين الذين يدعون روح التحقيق العلمي والبحث الموضوعي . فإنهم يعمدون أخيراً إلى حذف فقرات من النصوص إرضاءً لأهوائهم لكن: ما هكذا تورد يا سعدُ الإبل .

بأعلى صوتها يا أبت يا رسول اللّه ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة، فلما سمع القوم صوتها وبكاءها انصرفوا باكين، وكادت قلوبهم تتصدع وأكبادهم تنفطر وبقي عمر ومعه قوم، فأخرجوا علياً فمضوا به إلى أبي بكر فقالوا له: بايع، فقال إن أنا لم أفعل فمه؟ قالوا: إذاً واللّه الذي لا إله إلاّ هو نضرب عنقك، قال: إذاً تقتلون عبداللّه وأخا رسوله، قال عمر: أما عبداللّه فنعم، وأما أخو رسوله فلا، وأبو بكر ساكت لا يتكلم، فقال له عمر ألا تأمر فيه بأمرك فقال: لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه، فلحق عليّ بقبر رسول اللّه (ص) يصيح ويبكي وينادي: يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني، فقال عمر لأبي بكر رضي اللّه عنهما انطلق بنا إلى فاطمة، فإنّا قد أغضبناها، فانطلقا جميعاً فأستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما فأتيا علياً فكلماه، فأدخلهما عليها، فلما قعدا عندها، حولت وجهها إلى الحائط، فسلما عليها، فلم ترد عليهما السلام، فتلكم أبو بكر فقال: يا حبيبة رسول اللّه، واللّه إن قرابة رسول اللّه أحب إليّ من قرابتي، وإنك لأحب إلي من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك أني متُ، ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول اللّه، إلاّ أني سمعت أباك رسول اللّه (ص) يقول لا نورث، ما تركنا فهو صدقة فقالت: أريتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول اللّه (ص) تعرفانه وتفعلان به؟ قالا: نعم فقالت: نشدتكما اللّه ألم تسمعا رسول اللّه يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟ قالا نعم سمعناه من رسول اللّه (ص) قالت: فإني أشهد اللّه وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه فقال أبو بكر أنا عائذ باللّه تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة ثم انتحب أبو بكر يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق، وهي تقول: واللّه لأدعون اللّه عليك في كل صلاة أصليها ثم خرج باكياً. فاجتمع إليه الناس، فقال لهم: يبيت كل

رجل منكم معانقاً حليلته، مسروراً بأهله، وتركتموني وما أنا فيه لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني بيعتي[١].

ثم ينقل ابن هشام في سيرته عن الخليفة الثاني وهو يروي ((إجماع الأمة)) قال: إنه كان من خبرنا حين توفى اللّه نبيه (ص)، أن الأنصار خالفونا فاجتمعوا بأشرافهم في سقيفة بني ساعدة، وتخلف عنا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومن معهما.. ثم يروي الحديث حتى يقول: قال قائل من الأنصار أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش. قال: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى تخوفت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته ثم بايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم قتلتم سعد بن عبادة، قال فقلت: قتل اللّه سعد بن عبادة[٢].

هذا وقد اجتهد عمر بأخذ البيعة لأبي بكر خوف الاختلاف كما صرّح به، فلا يسمى مثل هذا اجماعاً كما هو ظاهر، بل حرص الخليفة الثاني على الأمة من الفرقة والاختلاف دون الحاجة للاعتماد على النصوص النبوية أو الانتظار لما تجتمع عليه الأمة وما تراه، بل أعلن الخليفة رأيه ورأى أن التخلف عن رأيه سيثير مشكلة تذهب ضحيتها وحدة الأمة، هكذا ادّعى الخليفة وحرص عليه، فلا حاجة إلى زج هذا في الاجماع الذي بيّنه العلماء وشدّدوا على شرائطه كما في ما أورده الفقيه ابن حزم في المحلى وسيأتي كلامه بعد قليل.

لكن دعونا ننقلب إلى الطبري في تاريخه، لعلنا نجد اجماعاً يوافق ما ذهب إليه

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٢ - ١٤ . الطبعة الثالثة ١٩٦٣ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ٢٢٦ دار الجبل بيروت ١٩٧٥ . وكذا مثله في السيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص ١٤٨٩ دار احياء التراث العربي . ومثله في البداية والنهاية لابن كثير أيضاً ج ٥ ص ٢٤٨ مكتبة المعارف . بيروت .

العلماء من الفريقين في تعريف الاجماع، وهل حدث اجماع دون أن يتخلف أحد من الأمة عن البيعة والخليفة الثاني رافع عقيرته بين المسلمين يهدد من يتردد في قبول البيعة لأبي بكر خوفاً من الفتنة واختلاف الكلمة حيث روى الطبري عن زياد بن كليب قال: أتىٰ عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال والله لأحرّقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة فخرج الزبير مصلتاً بالسيف فعثر فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه.. قال: وتخلف علي والزبير واخترط الزبير سيفه وقال لا أغمده حتى يبايَع عليٌّ، فبلغ ذلك أبا بكر وعمر، فقال عمر: خذوا سيف الزبير فاضربوا به الحجر... (١).

والمسعودي يؤكد أن البيعة لم تلق تأييد بني هاشم على الأقل فضلاً عن الأنصار وغيرهم، ولكن الخليفة اعتذر بأن قبول البيعة ما هي إلاّ ردعاً للفتنة وخشية الاختلاف، ولم يعتذر باجماع الأمة وآراء أهل الحل والعقد كما هو صريح الرواية:

ولما بويع أبو بكر في يوم السقيفة وجدّدت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة خرج علي فقال: أفسدت علينا أمورنا ولم تستشر ولم ترع حقاً فقال أبو بكر: بلى ولكني خشيت الفتنة، وكان للمهاجرين والأنصار يوم السقيفة خطب طويل، ومجاذبة في الإمامة وخرج سعد بن عبادة ولم يبايع فصار إلى الشام فقتل هناك(٢).

ونحن إذا تمعنا في هذه القصة أعقبتها أسئلة لا أملك الإجابة عنها ولعل القارىء النبيل سيعينني على بعض منها أو جميعها وهو الخبير اللبيب.

١ - «بويع أبو بكر يوم السقيفة، وجددت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة» فمن بايع الخليفة يوم الاثنين؟ عامة الأمة وهي لم تبايع إلاّ يوم الثلاثاء؟ أم أهل الحل والعقد؟ ومن هم؟ وأنت تسمع تخلّف سعد بن عبادة شيخ الأنصار معارضاً، وعليٌّ محتجاً، وطلحة وهو في بيت علي مُعرضاً، والزبير شاهراً سيفه لا يريد غمده حتى

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٠٢ دار سويدان بيروت .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٣٠٧ .

يبايِع عليّ.

٢ - ((خرج علي فقال لأبي بكر بعد البيعة أفسدت علينا أمورنا ولم تستشر ولم ترع حقاً)) فما الذي أُفسد من أمر علي، ولِمَ لم يستشر أبو بكر علياً؟ وما الذي جعل علي يعترض على أبي بكر بعدم أخذ رأيه؟ أليس هو من أهل الحل والعقد أم ماذا؟ وما هو الحق الذي يراعيه أبو بكر في علي والآخرين من أصحابه؟.

٣ - بعد اعتراض علي لم يَرد أبو بكر عليه بأن ذلك إجماع الأمة فلا حق لأحدٍ أن يعترض على ما أجمعت عليه أمة محمد (ص) وما اتفق عليه أهل الحل والعقد، بل قال أبو بكر ((بلى)) معترفاً لعلي بأنه أفسد عليه أمره ولم يستشره ولم يرع حقه، فما الذي في نفس أبي بكر؟ وما الذي يرتكز في ذهنه من حق علي وأمره؟.

٤ - ((وخرج سعد بن عبادة ولم يبايع فصار إلى الشام فقتل هناك)) ما الذي أخرج سعداً؟ وما الذي دفعه إلى عدم المبايعة ليترك المدينة ويذهب إلى الشام؟ أفسق سعد بعد إيمانه، وهو من قد عرفت، سيد الأنصار وصاحب رسول اللّه؟ أم احتجاج سعد على البيعة حيث كان في نفسه شيءٌ منها؟ ألا يرى أن الأمة قد أجمعت على البيعة فلا يجوز مخالفة ما أجمعت عليه أمة محمد (ص)؟ أم هو إجماعٌ لم يصل إلى ما أجمع عليه علماء الأمة من شرائط تحققه؟ أم شيء آخر خفي علينا كما خفي علينا سبب قتله بعد وصوله الشام مباشرةً؟.

هذه ثلّةٌ من الأسئلة، ألحت علينا ونحن نتوسل في قراءة الاجماع، فهل نتروى في الإجابة عنها كما تروت هي في أن تطرح نفسها علينا منذ أن احتفظ لنا التاريخ بوقائع يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول اللّه (ص) وفي وقته تم الاجتماع في السقيفة حيث حرص على انعقاده الشيخان والنبيُ بعد لما يوارى جسده الطاهر والأمة مشغولة عن الدنيا مذهولة بفقد نبيها عازفة عن الملك والمال والأولاد والأزواج، مذعورة لهذا المصاب الجلل والحدث المدلهم، والشيخان تركا النبي مسجى يتداولان

الحكم حيث من سيخلف النبي خوف الفتنة واختلاف الأمة، كما عبّرا في أكثر من مناسبة.

ولعلنا نجد عند المتأخرين من المؤرخين ما يزيدنا عن يوم الاثنين، وما ترتب عليه من يوم الثلاثاء في تلك السقيفة، حيث قدّم توفيق أبو علم في كتابه أهل البيت ﵈ أحصائية مفصلة عن المواقف الأخرى التي عبّرت عن وجهة نظرها إبان اجتماع السقيفة وما هي ردود الفعل التي أبدتها وما هي النسبة التي حظيت بها نتائج السقيفة من تأييد أو استنكار، تحفظ أو توقف لدى عامة المسلمين وأهل الحل والعقد منهم فقال:

إن الناس انقسموا بعد وفاة الرسول إلى عدة أحزاب: حزب سعد بن عبادة رئيس الخزرج، حزب الشيخين وهم جل المهاجرين، حزب علي وهم بنو هاشم ومعهم قليل من المهاجرين منهم الزبير وكثير من الأنصار ويقول الطبري: إن أكثرهم أرادوا البيعة لعلي. ونضيف إلى هذه الأحزاب الثلاثة حزب عثمان من بني أمية، وحزب سعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف من بني زهرة[١].

وعلى هذا فقد قدّم لنا أبو علم قائمة من قوى المعارضة، ونسبة المؤيدين لنتائج السقيفة، وهي احصائية دقيقة تفيدنا بنسب التكتلات الدينية والسياسية يومذاك وما أفرزته مواقف ذلك اليوم من قوى فكرية وتحزبات سياسية قسّمت المجتمع الإسلامي ومهدّت فيما بعد لظهور الاجتهادات الفردية والجماعية، وسيتم ترتيب القائمة كما يلي:

١ ـ الخزرج، برئاسة سعد بن عبادة، معارضاً.

٢ ـ بنو هاشم وقد انضم إليهم كثير من الأنصار وقليل من المهاجرين اضافة إلى الزبير، برئاسة علي بن أبي طالب، معارضاً.

٣ ـ بنو أمية، برئاسة عثمان بن عفان، معارضاً.

---

(١) أهل البيت: توفيق أبو علم ص ٢٣٥ الطبعة الأولى ١٩٧٠ .

٤ ـ بنو زهرة، برئاسة سعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف، معارضين.

وإذا ما أضفنا عبارة الطبري السابقة ((إن أكثرهم أرادوا البيعة لعلي)) اتضحت لنا نسبة المعارضة لاجتماع السقيفة وتبين لنا أن الخط البياني التصاعدي للآراء المعارضة يتناسب طرديا مع النتائج التي حصلت عليهاكتلة السقيفة، فكلما حصلت على تقدم في عدد الأصوات المؤيدة. إتّجه الخط التصاعدي للمعارضة بنسبة أكبر وبزيادة ملحوظة جداً حيث أن المعارضة لم تقتصر على كتلة واحدة سياسية أو لون واحد معارض، بل تحالفت القوى الدينية والكتل السياسية بصورة مباشرة وغير مباشرة على تصحيح ما تم الأمر به لاستبعادها عن تقرير المصير، واقتصرت كتلة السقيفة على أخذ التأييد على مستوى الأفراد القلائل، أو التفاوض مع حركات سياسية اتفقت مصالحها على السكوت كما في كتلة أبي سفيان بعد انقلابه من معارض إلى مؤيد محالف وقد حصل جناحه على كرسي في الحكم وهو ما تحقق فعلاً في تعيين معاوية بن أبي سفيان والياً فيما بعد.

وإذا استعرضنا شخصيات بعض المعارضة لاحظنا مدى الثقل الديني والسياسي الذي تحتفظ به هذه الشخصيات واستقرأنا توجهات الخط المعارض وكم كانت الشرعية التي يتحرك على أساسها، والتأييد الذي كسبه من قبل الأمة والتحفظات التي أبداها هذا الخط على نتائج السقيفة، وما هي المؤهلات التي ساعدته على تقدّمه كمعارضة حسب لها حسابها كلٌ من الأمة، وأعضاء السقيفة، والتاريخ والكاتب، والقارىء، وإليك بعضاً منها.

علي بن أبي طالب، الخليفة الرابع، من العشرة المبشرة بالجنة.

الزبير بن العوام: من العشرة المبشرة بالجنة.

سلمان الفارسي: قال ابن الأثير: وكان سلمان من خيار الصحابة، وزهادهم وفضلائهم وذوي القرب من رسول اللّه. قالت عائشة: كان لسمان مجلس من رسول اللّه (ص) بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول اللّه... وقال فيه رسول اللّه (ص): إن

الجنة تشتاق إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان[١].

المقداد بن الأسود: قال فيه رسول اللّه (ص): إن اللّه عز وجل أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم، قيل يا رسول اللّه سمهم لنا، قال: علي منهم يقول ذلك ثلاثاً وأبو ذر والمقداد وسلمان[٢].

عمار بن ياسر: قال فيه رسول اللّه (ص): عمار مُلىءَ إيماناً إلى مشاشته. وعن الأسود، قال: كان بين خالد وعمار كلام فشكاه خالد إلى النبي (ص) فقال رسول اللّه «من يعادِ عماراً يعاده اللّه، ومن يبغض عماراً يبغضه اللّه». وجاء رجل إلى ابن مسعود فقال: إن اللّه قد أمننا من أن يظلمنا ولم يؤمنا من أن يفتنا، أرأيت إن أدركت فتنة؟ قال عليك بكتاب اللّه قال أرأيت إن كان كلهم يدعو إلى كتاب اللّه؟ قال سمعت رسول اللّه (ص) يقول: إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق. وقال أبو نعيم: إن حذيفة أتى وهو ثقيل بالموت فقيل له قُتل عثمان فما تأمرنا؟ فقال سمعت رسول اللّه (ص) يقول: أبو اليقظان على الفطرة ثلاث مرات لن يدعها حتى يموت أو يلبسه الهرم[٣].

العباس بن عبدالمطلب: عم النبي. وروي عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب كان إذا أقحطوا، استسقى بالعباس بن عبدالمطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا (ص) فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون[٤].

هذه نماذج المعارضة التي ظهرت إبّان يوم السقيفة وإذا ضممت إليهم الأنصار وسيدهم سعد بن عبادة فإنك ستضم قوى سياسية كبرى ومدارس فكرية لا يستهان بها، وعلى هذا فلم يظهر الاجماع والحالة هذه على أرض الواقع، بل هو لا يزال

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ٤٢٠ دار الشعب .

(٢) أسد الغابة ج ٥ ص ٢٥٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١ ص ٤٠٦ مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٩٨١ .

(٤) صحيح البخاري في فضل العباس بن عبدالمطلب ح ٢ ص ٣٠١ .

في حيز التنظير التزمته بعض المدارس لتصحيح توجهاتها وايجاد مبتنياتها الفكرية والسياسية.

وإذا أردنا أن نقرأ الإجماع قراءة علمية لها دلائلها على المستويين الفقهي والأصولي أو على مستوى التنظير السياسي فإن الاجماع الذي تصوره البعض لا يتعدى مستوى الاجماع الصوري، الذي بواسطته يمكن تصحيح بعض المبتنيات السياسية أو الفكرية.

قال ابن حزم الأندلسي في المحلى:

ومسألة الاجماع هو ما تيقن أن جميع أصحاب رسول الله (ص) عرفوه وقالوا به ولم يختلف منهم أحد، كتيقننا أنهم كلهم رضي اللّه عنهم صلوا معه ﷺ الصلوات الخمس كما هي في عدد ركوعها وسجودها أو علموا أنه صلاها مع الناس كذلك وأنهم كلهم صاموا معه أو علموا أنه صام مع الناس رمضان في الحضر وكذلك سائر الشرائع التي تيقنت مثل هذا اليقين والتي من لم يقر بها لم يكن من المؤمنين. وهذا ما لا يختلف أحد في إنه اجماع وهم كانوا حينئذ جميع المؤمنين لا يؤمن في الأرض غيرهم ومن ادعى أن غير هذا هو إجماع كلف البرهان على ما يدعي ولا سبيل إليه.

وما صح فيه خلاف من واحد منهم أو لم يتيقن أن كل واحد منهم رضي اللّه عنهم عرفه ودان به فليس إجماعاً، لأن من ادعى الاجماع ها هنا فقد كذب وقفا ما لا علم له به، واللّه تعالى يقول: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ [1].

وقد عرّف أبو الوليد الباجي الاجماع بقوله: الاجماع في كلام العرب على معنيين: أحدهما العزم على الشيء من قولك: أجمعتُ على فعل كذا وكذا إذا عزمت على تنفيذه وامضائه. والثاني عبارة عن الاجماع عل القول والفعل المجتمع عليه، وذلك مأخوذ من اجتماع الشيء وانضمام بعضه إلى بعض، فإذا قلت

---

(١) المحلى لابن حزم ج ١ ص ٥٤ دار الآفا الجديدة ـ بيروت .

أجمعت الأمة على الحكم فإنه يحتمل الأمرين جميعاً أحدهما أنها عزمت على انقاذه والثاني أنها اجتمعت على القول به وتصويبه[١].

هذا هو الاجماع الفقهي والاجماع المدعى يوم السقيفة غير هذا الاجماع المتعارف، فهو إما إجماع سياسي أو إجماع رمزي على سبيل المجاز وهو كما تعلم ليس بحجة ولا دليل بل هو نافع على مستوى التنظيرات السياسية والأدبية.

أما الاجماع السياسي، فليس في أعراف السياسة أن يتم أخذ التصويت للمنتخب أو المرشح للرئاسة بالقوة والتهديد، وهل رأيت تهديد الخليفة الثاني لعلي والزبير وغيرهما بأخذ البيعة موافق لأعراف السياسية؟ أم هو خوف الفتنة واختلاف الكلمة وانشقاق وحدة المسلمين كما اعتذر به أبو بكر ومثله عمر كذلك، فلا يبقى مجال إلاّ أن نطلق على إجماع يوم السقيفة بالاجماع الصوري المجازي وليس اجماعاً فقهياً متعارفاً أو سياسياً معهوداً يصل إلى مصافي اجماعات الحجة أو أدلة البرهان.

(١) أحكام الفصول في أحكام الأصول . أبو الوليد الباجي ص٤٣٥ دار الغرب الإسلامي طبعة أولى ١٩٨٦ .

الفصل الثالث

هل الخلفاء، اثنا عشر خليفة، ومن هم؟

اتفق الفريقان على أن نص الرسول (ص) يثبت أن الخلفاء بعد النبي (ص) اثنا عشر خليفة، إلاّ إنهم اختلفوا في تعيينهم، فكلّ رشح قائمة من الأسماء، يعلن فيها أسماء خلفائه وكل يحاول من خلال دليله إثبات مدعاه. فالإمامية، قالوا إن الأئمة بعد النبي (ص) اثنا عشر إماماً، نُص عليهم بأسمائهم فالسابق ينص على اللاحق وهكذا، وكلّ نصّ عليه رسول الله (ص) وعيّنهُ، وأهل السنة أقروا بالاثني عشر خليفة لكنهم وقعوا في خلاف عند ذكر أسمائهم فمنهم من ذكر بني أمية مع الخلفاء الراشدين ومنهم من أضاف إليهم بني العباس، والآخر رشح بعضاً دون بعض ومنهم من استحسن هذا وأبعد ذاك، لذا فإنك لن تجد اضطراباً وقع فيه البعض كما تجده في تعيين الاثني عشر خليفة، وهذا مما يثير الشك في صحة الدعاوى التي ذكرت، لأن النبي (ص) لن يوهم في كلامه أبداً وهو لن يتحدث عن مبهم مجهول، فلو كان كذلك فما الفائدة من ذكره؟ فالنبي (ص) إنما أخبر بعدتهم، إما أن يكون بمعنى الاخبار، حيث إنه أخبر بأن عدد الخلفاء اثنا عشر خليفة وإمّا أن يكون بمعنى الأمر، حيث أمر أن يتولى الخلافة من قريش دون غيرهم، وكلا الفرضين يوجبان معرفة أسماء الخلفاء بعد ذكر عدتهم حتى يتبيّن من حال الحديث ما يبعث على الأمر أو النهي أو الإخبار.

فأما الأمر بأن يكون الخلفاء من قريش فإنه يحتاج إلى ذكر أسمائهم بعد ذكر عدتهم، لئلا يدخل فيهم غيرهم، وأما إرادة النهي، وهو عدم إرادة دخول غير هؤلاء المذكورين في ضمنهم، وأما إرادة الإخبار، فإن النبي (ص) إذا أراد الاخبار عن شيء فإنه لن يخبر عن مبهم مجهول، وها هي أخبار الفتن والملاحم بين يديك واضحة سهلة يستفاد منها ما يزيل الشبهة حين وقوع الفتن ويطرد الشك حين يطرأ في نفس المسلم ولم يجد من يعينه على تمييز الحق.

وإلى هذا ذهب ابن حزم الأندلسي بقوله: هذه اللفظة لفظة الخبر، فإن كان معناه الأمر فحرام أن يكون الأمر في غيرهم أبداً، وإن كان معناه معنى الخبر كلفظه فلا شك في أن من لم يكن في قريش فلا أمر له وإن ادعاه، فعلى كل حال فهذا خبر يوجب منع الأمر عمن سواهم[1] فالقول في عدتهم، وهو عين القول في تعيين أسمائهم ليتم مطلوبه (ص).

إذن فعلى هذا القول لابد من معرفة أسمائهم وتعيينها والابتعاد عن الدوافع الأخرى في ترشيح هذا أو اقصاء ذاك.

فقد ذكرت الإمامية أن عدتهم اثنا عشر إماماً، أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم المهدي (عج) وهم:

علي بن أبي طالب ـ الحسن بن علي ـ الحسين بن علي ـ علي بن الحسين ـ محمد بن علي الباقر ـ جعفر بن محمد الصادق ـ موسى بن جعفر الكاظم ـ علي بن موسى الرضا ـ محمد بن علي الجواد ـ علي بن محمد الهادي ـ الحسن بن علي العسكري ـ محمد بن الحسن الحجة المنتظر عليهم من الله آلاف التحية والسلام.

هذا ما ذهب إليه الإمامية، وتسالمت عليه. أما ما ذهب إليه اخواننا أهل السنة، فأقوال هي إلى الفرض أقرب منها إلى الواقع، وإلى الاحتمال والظن أقرب منه إلى القطع واليقين، فكلٌ استحسن رأياً وذهب إليه، لكنه لم يكن لديه دليلاً وافياً

---

(١) المحلى لابن حزم الأندلسي ج ١ ص ٤٥ .

علـى ذلـك، بـل اتفقـوا علـى القـول بـأن الخليفـة الـذي عنـاه رسـول اللّه (ص) هو الذي اجتمعت عليه الأمة وائتلفت به الكلمة، وكأن الملاك في تعيين الخليفـة، هـو رأي الأمـة لا رأي الـنبي (ص) وإلى هـذا ذهـب ابـن الجـوزي وتبعـه القاضـي عياض وأيدهما ابن حجر العسقلاني في فتح الباري بقولـه:وينتظم مـن مجموع ما ذكراه أوجه أرجحهما الثالث من أوجه القاضي، لتأييده بقوله في بعض طرق الحديث الصحيحة «كلهم يجتمع عليه الناس»[1] وايضاح ذلك أن المراد بالاجتماع انقيادهم لبيعته، والذي وقع أن الناس اجتمعوا على أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي إلى أن وقع أمر الحكمين في صفين، فسمى معاوية يومئذ بالخلافة، ثم اجتمع الناس على معاوية عند صلح الحسن ثم اجتمعوا على ولده يزيد ولم ينتظم للحسين أمر بل قتل قبل ذلك، ثم لما مات يزيد وقع الاختلاف إلى أن اجتمعوا على عبدالملك بن مروان بعد قتل ابن الزبير ثم اجتمعوا على أولاده الأربعة: الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام وتخلل بين سليمان ويزيد عمر بن عبدالعزيز فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشدين، والثاني عشر هو الوليد بن يزيد بن عبدالملك اجتمع الناس عليه لما مات عمه هشام فولى نحو أربع سنين ثم قاموا عليه فقتلوه، وانتشرت الفتن وتغيرت الأحوال من يومئذ ولم يتفق أن يجتمع الناس على خليفة بعد ذلك[2].

أقول: قوله في يزيد بن عبدالملك «قاموا عليه فقتلوه» ينافي قوله بأنه أخرج الحديث بطرق صحيحة «كلهم يجتمع عليه الناس»، فهو يحتمل ثلاثة وجوه:

---

(١) لم يذكره البخاري في صحيحه ولم ينص عليه مسلم كذلك ولا غيره من أهل الصحاح ولا أدري من أين جاء به القاضي وأيده ابن حجر ولعل ضرورة الانتظام في أعداد الخلفاء وتسلسلهم ألجأهما إلى هذه الكبوة وكأن حرصهما على تخريج الحديث بما يلائم مذهبيهما قد أباح لهما هذه الطريقة من النقاش والجدال.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الأحكام لابن حجر العسقلاني ج ١٣ ص ٢١٤ دار المعرفة بيروت .

الأول: أن النبي لم يكن جاداً فيما أخبر أنهم كلهم يجتمع عليه الناس، وحاشا رسول اللّه (ص) وهو الصادق الأمين على رسالات ربه من أن يرد في كلامه حرف يخالف ما أراده اللّه وأخبر عنه.

الثاني: احتمال فسق الأمة التي اجتمعت على خليفتها ثم تثب عليه لتقتله، وهل يعقل أن تجتمع أمة محمد (ص) كلها ـ وهي خير الأمم ـ على الفساد والضلال والانحراف؟ فيثبون على خليفتهم الذي أمر النبي بطاعته واتباعه حتى يقتلوه؟.

الثالث: أن يزيد بن عبدالملك لم يكن في عداد الخلفاء المشار إليهم في الحديث، فتنخرم بذلك قاعدتهم فيلزم غير ما ذكروه.

ولغرض التحقيق في صحة دعوى كل فريق فإننا سنبحث في أحوال هؤلاء الخلفاء المرشحين من قبل الفريقين ومعرفة سيرهم كما نص عليه المؤرخون من المسلمين ليتسنى معرفة الأليق بالخلافة ومنصب الإمامة، وما يليق بشأن مقام النبي (ص) في جعله خلفاء يبلغون أحكام اللّه تعالى ويؤدون رسالته.

أزمة المؤرخ الإسلامي بين النظرية والتطبيق:

تنتاب المؤرخ الإسلامي حالةٌ من العاطفة، بل قل من العصبية ما يربك نظرته للحدث الإسلامي، ويكون تقريره للأحداث من الزاوية التقليدية التي ورثها من بيئته أو تلقاها من أسرته، وهذه النظرة التقليدية، هو الموروث التقليدي الذي خلّفه الكثير من المؤرخين للجيل الإسلامي، بل وللفكر والثقافة الإسلاميتين.

فمن نظرية تقديس الصحابة، والتوقف في ذكر بعض التجاوزات المرتكبة، نشأت مدرسة تاريخية خطيرة، تلتزم بعدم التعرض للسيرة أو التوقف فيها أو توجيهها بما يناسب ذوق الكاتب نفسه، وهي أخطر عملية لاستنزاف فكري مقيت يكلّف الأمة دفع ثمنه إلى مدى أجيال.

وقد حرص الكاتب التاريخي أن يصحح ما صدر من الصحابة لئلا تنخرم قاعدة «عدالة الصحابة» وهي كما تعلم نظرية مدخولة ودخيلة، اخترقت الفكر الإسلامي وأخذت تسايره في كل حين حتى دخلت دون استئذان إلى كتب الحديث فوضعت من الأحاديث وحرّفت وغيرت ما يضمن إبقاء الهالة المقدسة لبعض الصحابة، وما يؤدي من توجيه «الشطحات الصحابية» إلى نظرات حكيمة» لأن الحديث الموضوع «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» يبرر أي عمل قد صدر من بعض الصحابة.

ولا يخفى أن «الحديث السياسي» قد لعب دوراً مهما في انقاذ ماء وجه البعض كما أن القول بعدم العصمة يوجب التسليم إلى أن الخليفة إنسان ينسى ويسهو ويرتكب القبيح كأي إنسان آخر، وهو مع ذلك يقتدى به ويهتدى بهداه، أليس حديث: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم يضمن لزوم الطاعة ويوجب التقديس لكل الصحابة؟ إذن فكل صحابي يشمله عموم قوله أصحابي كالنجوم.

لذا فإن « وضع الحديث على رسول الله ـ كما قال أحد الأئمة ـ أشد خطراً على الدين وأنكى ضرراً بالمسلمين من تعصب أهل المشرقين والمغربين. وإن تفرق المسلمين إلى شيع وفرق ومذاهب ونحل لهو أثر من آثار الوضع في الدين»[١].

وبهذا استطاع المتآمرون على الإسلام ومبادئه أن يُدخلوا في دائرة الارهاب الفكري بجميع أساليبه ثلة كبرى من المؤرخين، وصار المؤرخ الإسلامي من حيث يشعر أو لا يشعر، مستسلماً للموروث التقليدي من «الثقافة السلطانية» التي أدخلت في روعه عدالة بعض الصحابة وتقديسهم، فهو بين مدافع عن انحراف البعض، وبين متوقف عندها وبين مشكك في صحة ما نقل عن انحرافهم، وهذا الأخير هو أخطر لون تصطبغ به كتب الحديث ليُزَين وجوه البعض، ثم العمل على

---

(١) أضواء على السنة المحمدية ـ محمود أبو ريه ص ١١٩ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ الطبعة الخامسة ـ بيروت .

اصطباغ العقلية المسلمة بصبغة عدالة الصحابة وتقديسهم وعلى ضوء ذلك سنقوم بدراسة جميع الشخصيات المرشحة للخلافة وعلى كلا النظريتين نظرية الإمامية، ونظرية أهل السنة لنختار أيهما الأليق لمقام الخلافة ومنصب الإمامة، وهو استقراء سنطرح من خلاله جميع القيود التاريخية الموروثة وسنلقي بكل التحليلات جانباً ونلتزم بالنصوص لنستخلص من كل منها الصورة الواضحة لجميع الخلفاء، وبجميع ملامحهم وتقاسيم وجوههم.

إننا سنتجاوز ـ الآن ـ الخلفاء الراشدين، فقد خصصنا فصلاً خاصاً لحياة ـ علي بن أبي طالب عليه السلام ـ ومن خلاله ستتعرف على الشخصيات الباقية، وسنبدأ بالخليفة الرابع حسب نظرية مدرسة الاجماع وسنقتصر على ذكر النصوص فقط دون تعليق تاركين ذلك للقارىء النبيه أن يستنتج من خلال هذه النصوص حكماً يتناسب مع ما ورد من طرق اخواننا أهل السنة ليعرف بعد ذلك أي النظريتين أحق؟ ما يدعى من اجماع الأمة أم ما نص عليه رسول اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، وإليك قراءة سريعة في تلك الشخصيات.

خلفاء الأمويين:

في خضم الحدث الاسلامي بُعيد وفاة النبي (ص) تبرز حالةٌ تسلطية عنيفة هي افراز لتلك الظروف السياسية المرتجلة التي اطاحت بالنص النبوي في تعيين الخليفة الشرعي، ونحت منحى جديداً من اختيار الخليفة، كان للقهر والغلبة مكانهما في ترسيم الاحداث السياسية الحبلى بالمفاجئات التي قدّمت من خلالها على المسرح السياسي صنائع حاكمية اختلقت لنفسها تياراً سياسياً تسلطياً كان بعد ذلك في مستقبل الحدث الاسلامي دولة أموية لها معالمها ورؤيتها الخاصّة.

يُعدُ معاوية بن أبي سفيان صنيعة لتلك الظروف السياسية التي أقيمت على أنقاض الثوابت الاسلامية، وكانت فترته اطروحة لتأسيس دولة أموية على انقاض

الدولة الاسلامية، مما دعا المسلمين الى التصريح بانزعاجهم من هذه الدولة التي سحقت معها جميع المسلمات، مما حدى بالحسن البصري الى القول بأن «أربع خصال كن في معاوية، لو لم تكن فيه إلاّ واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الامة بالسيف حتى أخذ الامر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة.

واستخلافه بعده ابنه سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير.

وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول اللّه (ص) الولد للفراش وللعاهر الحجر.

وقتله حجراً وأصحاب حجر، فيا ويلاً له من حجر ويا ويلاً له من حجر وأصحاب حجر[1].

ولم يكن هذا التذمر على لسان الحسن البصري وحده، بل شاركته ام المؤمنين عائشة في تقييم هذه الفترة على الرغم من مشاركتها في توجهات معاوية السياسية ورؤيته العامة.. قالت: لو أنا لم نغيّر شيئاً إلاّ صارت بنا الأمور الى ما هو أشد منه لغيرنا قتل حجر، أما واللّه ان كان ما علمت حجاجاً معتمراً[2].

ولم يكن ذلك ـ على ما يبدو ـ غائباً عن الخليفة عمر بن الخطاب سلوكية معاوية ومنهجيته السياسية، اذ كان على الرغم من كونه صنيعته إلاّ أنه كان لا يرى إمرة لمعاوية على أجلة الصحابة اذ «ان عبادة بن الصامت أنكر على معاوية أشياء، ثم قال له لا أساكنك بأرض فرحل الى المدينة.

فقال له عمر ما أقدمك الي، لا يفتح اللّه أرضاً لست فيها أنت وأمثالك فانصرف لا امرة لمعاوية عليك[3].

ولا أدري ما الذي دعا الخليفة الثاني الى تعيين معاوية والياً على الشام وهو يرى أن معاوية لا أمرة له على عبادة بن الصامت وأمثاله، ولعل ذلك يعني في نظر

---

(١) الكامل لابن الاثير ٣: ٤٨٧ دار صادر بيروت ١٩٧٩م .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المستدرك على الصحيحن للحاكم النيسابوري ٣: ٣٣٥ دار المعرفة بيروت .

الخليفة أن جلالة عبادة ومنزلته لا تؤهل معاوية وأمثاله أن يكونَ جديراً في الامرة على ذوي السابقة والفضل في الاسلام، اذن فلماذا أقرّ الخليفة الثاني، معاوية وأنفذ أحكامه؟!

واذا كان معاوية لا يعترف بشرعية خلافة علي بن أبي طالب فان عمرو بن العاص يعترف بعدم استحقاق معاوية لأن ينازع الشرعية أهلها متمرداً على خلافة علي وهو يعلم أنه ليس على الحق، وقد جاء اعتراف عمرو بن العاص بقوله: لولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها، فاني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأننا على ضده[١].

وقد عبّر الناس عن سخطهم واستيائهم بقولهم: اول ذل دخل الكوفة موت الحسن بن علي، وقتل حجر، ودعوة زياد.

ولعل اسوأ ما ختم به معاوية عهده، تعيينه ابنه يزيد من بعده، ولقد لخّص الامام أبو عبدالله اليافعي اليمني آراء المسلمين فيه بقوله: وأما حكم قاتل الحسين والأمر بقتله فمن استحل منها قتله فهو كافر، وان لم يستحل ففاسق فاجر، وكالحسين رضي الله تعالى عنه يفر عن مبايعة معاوية فضلاً عن مبايعة يزيد[٢].

ومع نهاية فترة يزيد يبدأ الدور المرواني ليمثله عبدالملك بن مروان، ولعل المسعودي[٣] قد وفق في تلخيص فترته بأربعة نقاط تشارك في تكوين الرؤية العامة للفترة المروانية قال:

١ ـ وكان ـ أي عبدالملك بن مروان ـ يحب الشعر والفخر والتقريظوالمدح وكان الغالب عليه البخل، وكان له اقدام على الدماء، وكان عماله مثل مذهبه كالحجاج بالعراق والمهلب بخراسان وهشام بن اسماعيل بالمدينة وغيرهم بغيرها، وكان

---

(١) النصائح الكافية لمن يتولى معاوية: ٤٤ الطبعة الثالثة مكتبة الحيدرية / النجف .

(٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي اليمني ١: ١٣٦ مؤسسة الأعلمي بيروت ط ٢ ١٩٧٠ .

(٣) مروج الذهب للمسعودي ٣: ٩٩ وما بعدها .

الحجاج أظلمهم وأسفكهم للدماء.

٢ ـ كان الحجاج وهو والي عبدالملك على العراق، يخبر عن نفسه أن أكثر لذاته سفك الدماء وارتكاب امور لا يقدم عليها غيره ولا سبق اليها سواه.

٣ ـ أراد الحجاج الحج فخطب الناس وقال: يا أهل العراق اني قد استعملت عليكم محمداً وبه الرغبة عنكم أما أنكم لا تستأهلونه وقد أوصيته فيكم بخلاف وصية رسول اللّه (ص) بالانصار فانه أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وقد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم.

٤ ـ وأحصي من قتله ـ أي الحجاج ـ صبراً سوى من قُتل في عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفاً ومات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهن ستة عشر الفاً مجردة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء وكان له غير ذلك من العذاب ما أتينا على وصفه في الكتاب الأوسط، وذكر انه ركب يوماً يريد الجمعة فسمع ضجة فقال ما هذا؟ فقيل له المحبوسون يضجون ويشكون ما هم فيه من البلاء، فالتفت الى ناحيتهم وقال: «اخسئوا فيها ولا تكلمون» فيقال انه مات في تلك الجمعة ولم يركب بعد تلك الركبة.

قال ابن الأثير في الكامل في ذكر وصية عبدالملك بن مروان لأولاده عند موته[1]:

١ ـ «واكرموا الحجاج فإنه الذي وطّأ لكم المنابر ودّوخ لكم البلاد وأذلّ الأعداء».

٢ ـ وكان عبدالملك أول من غدر في الإسلام.. وأول خليفة بخل وكان يقال له رشح الحجاره لبخله وأول من نهى عن الأمر بالمعروف، فإنه قال في خطبته بعد قتل ابن الزبير: ولا يأمرني أحد بتقوى اللّه بعد مقامي هذه إلّاضربتُ عنقه.

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٥١٨ وما بعدها .

٣ ـ قال عبدالملك لسعيد بن المسيب: ((يا أبا محمد صرت أعمل الخير فلا أسَر به واصنع الشر فلا أساء به فقال الآن تكامل فيك موت القلب)).

وحج بالناس عبدالملك فخطب الناس بالمدينة فقال بعد حمد اللّه والثناء عليه:

أما بعد فإني لست بالخليفة المستضعف يعني عثمان، ولا بالخليفة المداهن يعني معاوية ولا بالخليفة المأفون يعني يزيد ألا ونى لا أداوي هذه الأمة إلاّ بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم[١]..

هذا وقد خلفه ابنه الوليد بن عبدالملك وقد ذكرت كتب التاريخ أن الوليد كان لا يحسن علوم العربية، وهي المشكلة التي تواجه المرء في معرفة آيات أحكام دينه ومعالم قرآنه، فضلاً عن القاضي الذي لا يستطيع الاجتهاد في الحكم والافتاء ما لم يتقن علوم العربية كاملة بمن يلي أمور العرب ويتصدر خلافة المسلمين؟ وهي القضية التي تنبَه إليها عبدالملك بن مروان ووبّخ ولده الوليد عليها، حيث حاول تدارك هذا العيب بأن أمر الوليد أن يكون عند علماء النحو يستفيد منهم ما فقده من قدرة على فهم الكلام العربي وفنون اللغة ((فقد كان الوليد لحاناً لا يحسن النحو.. وعاتبه أبوه على ذلك وقال: نه لا يلي العرب لا من يحسن كلامهم. فجمع أهل النحو ودخل بيتاً فلم يخرج منه ستة أشهر ثم خرج وهو أجهل من يوم دخل فقال عبدالملك قد أعذر))[٢] إلاّ أن ذلك لم يعذر الوليد أمام علماء المسلمين الذين اشترطوا للقاضي شروطاً لا يمكن تجاوزها ولا يعذر في التقصير عنها لغرض فهم أحكام اللّه تعالى وادارة البلاد على أساس القرآن الكريم وأحاديث النبي الكريم الذي لا يفهمه إلاّ من توفرت لديه شروط ذكرها العلامة أبو يحيى زكريا الأنصاري في فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب بقوله: وشروط القاضي كونه أهلاً للشهادات كافياً مجتهداً وهو

---

(١) نفس المصدر ص ٣٩١ .

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٠ .

العارف بأحكام القرآن والسنة والقياس وأنواعها ولسان العرب، لغة ونحواً وصرفاً وبلاغة[1]. وبديهي أن الذي يجهل أحكام اللغة فقد يجهل بأحكام القرآن وهو باجتهاده في أحكام الله أجهل.

هذا على صعيد علمه، أما فيما يتعلق بإدارته لأمور رعيته فقد أظهر الوليد أسلوباً من الشدة والتنكيل برعاياه حتى وصفه إسحاق بن يحيى بقوله:

ولم نر منهم أشد تجبراً منه[2].

ومنهم سليمان بن عبدالملك فقد وصفه المسعودي بقوله:

وكان سليمان صاحب أكل كثير يجوز المقدار، وكان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشي وكان شبعه في كل يوم من الطعام مائة رطل بالعراقي، وكان ربما أتاه الطباخون بالسفافيد التي فيها الدجاج المشوية وعليه جبّة الوشي المثقلة فلنهمه وحرصه على الأكل يُدخل يده في كمه حتى يقبض على الدجاجة وهي حارة فيفصلها.

وذكر أن سليمان خرج من الحمام ذات يوم وقد اشتدّ جوعه فاستعجل الطعام ولم يكن فرغ منه فأمر أن يقدم عليه من الشواء فقدم إليه عشرون خروفاً فأكل أجوافها كلها مع أربعين رقاقة ثم قرب بعد ذلك الطعام فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل شيئاً.

وحكي انه كان يتخذ سلال الحلوي ويجعل ذلك حول مرقده، فكان أذا قام من نومه يمدّ يده فلا تقع إلاّ على سلّة يأكل منها[3].

ثم يليه أخوه يزيد بن عبدالملك.

قال ابن الأثير في الكامل ما نصه:

---

(١) فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب لزكريا الأنصاري ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٦٠ .

(٣) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ١٨٤ .

كان يزيد من فتيانهم فقال يوماً وقد طرب وعنده حبابه وسلامة القس: دعوني أطير. قالت حبابة:على من تدع الأمة؟ قال: عليك. قيل وغنته يوماً:

وبين التراقي واللهاة حرارةً ... مـا تطمئن وما تسوغ فتبردا

فأهوى ليطير، فقالت يا أمير المؤمنين أن لنا فيك حاجة. فقال والله لأطيرن. فقالت: على من تخلّف الأمة والملك؟

قال: عليك والله، وقبل يدها فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك فما أسخفك. وخرجت معه إلى ناحية الأردن يتنزهان، فرماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها حتى انتنت وهو يشمها ويقبّلها وينظر إليها ويبكي، فكلم في أمرها حتى أذن في دفنها.. وبقي يزيد بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس، أشار عليه مسلمة بذلك وخاف أن يظهر منه ما يسفهه عندهم[١].

لذا علق أبو حمزة الخارجي على «طيران الخليفة حينما يذكر بني مروان ويعيبهم بذكر يزيد بن عبدالملك فيقول: أقعد ـ أي يزيد ـ حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره، ثم قال أريد أن أطير، فطار إلى لعنة الله وأليم عذابه»[٢].

وقد روى ابن قتيبة الدينوري طرفاً من سياسته في الأمة وتجبره في الرعية بقوله: واتهم منهم ـ أي من قريش ـ نفراً بالخلع والخروج، فأخذهم عمه محمد بن مروان بن الحكم فأسكنهم السجن عشرين شهراً ثم دس لهم السم فماتوا جميعاً، وأقصى من سائر قريش ثلاثين رجلاً بعد أن أغرمهم منه ألف ألف وباع عقر أموالهم ورباعهم، وحمل العذاب عليهم والنكال حتى أصارهم عالة يتكففون الناس، متفرقين في كور الشام وآفاق البلاد، وصلب من الناس جملة ممن ألف هؤلاء

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٢١ وكذا رواه المسعودي في مروجه ج ٣ ص ٢٠٧ ومثله الطبري في تاريخه ج ٧ ص ٢٢ .

(٢) المسعودي في مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٠ .

القوم، وأتهم بمصانعتهم ومصاحبتهم[1].

ولقد سجّلت الوثائق التاريخية المهتمة بشؤون الخلافة الإسلامية، سجلَت على هشام بن عبدالملك حرصه المالي وحبه لجمع الموارد المالية القادمة من أطراف الدولة الإسلامية وادخالها ضمن تصرفاته الشخصية، حتى وصفته بالبخل وزاد عليها المقريزي السراق لأنه كان يؤثر نفسه على أرزاق الجند وربما حجب عنهم عطاءهم.

ارتكزت سيرة هشام المالية حتى عندبني أبيه فطعنوا في لياقته للخلافة حتى أخيه مسلمة بن عبدالملك وهو يمازحه يوماً فقال له: يا هشام أتؤمل الخلافة وأنت جبان بخيل؟ فقال: واللّه إني عليم حليم[2].

وقال صاحب خطط الشام: وكان هشام يحب جمع المال وعمارة الأرض واصطناع الرجال[3].

ومن طريف ما رواه الجاحظ في كتابه «البخلاء» قال:

دخل هشام بن عبدالملك حائطاً له فيه فاكهة وأشجار وثمار ومعه أصحابه، فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة، فقال هشام يا غلام إقلع هذا وأغرس مكانه الزيتون[4].

وقال المسعودي في مروجه:

وما نال هشاماً من المثلة بما فعل بسلفه من احراق كفعله بزيد بن علي، وقد ذكر أبو بكر بن عياش وجماعة من الاخباريين أن زيداً مكث مصلوباً خمسين شهراً عرياناً فلم ير له أحد عورة ستراً من اللّه له وذلك بالكناسة بالكوفة، فلما كان في

---

(١) الإمامة والسياسة ـ ابن قتيبة الدينوري ص ١٢٤ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٢٢٣ .

(٣) خطط الشام محمد كرد علي ج ١ ص ١٢٦ مكتبة النوري دمشق . طبعة ثالثة ١٩٨٣ .

(٤) البخلاء للجاحظ ص ١٧٧ دار صادر بيروت ١٩٦٠ م .

أيام الوليد بن يزيد بن عبدالملك وظهر ابنه يحيى بن زيد بخراسان كتب الوليد إلى عامله بالكوفة: أن أحرق زيداً بخشبته ففعل ذلك به وأذرى رماده في الرياح على شاطئ الفرات[1].

لقد نحت دائر تثقيف النظام إلى سياسة الاعتذار وحاولت اصلاح ما ارتكبه هشام من البطش بأنه حزم تستوجبه سياسة البلاد وهيبة الدولة، ومن حرصه بأنه من متطلبات السياسة.

ولقد ارتكب الوليد بن يزيد بن عبدالملك أموراً عظاماً.

قال السيوطي في تاريخه، مؤرخاً للوليد بن يزيد ما نصه:

الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان بن الحكم الخليفة الفاسق، أبو العباس، وكان فاسقاً شريباً للخمر منتهكاً حرمات الله أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة فمقته الناس لفسقه وخرجوا عليه، ولما قتل وقطع رأسه وجيء به إلى يزيد الناقص نصبه على رمح فنظر إليه أخوه سليمان بن يزيد، فقال: بُعداً له أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً، ولقد راودني على نفسي. وقد ورد في مسند أحمد حديث، ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد لهو أشد على هذه الأمة من فرعون لقومه.

وقال ابن فضل الله في المسالك: الوليد بن يزيد الجبار العنيد، لقباً ما عداه، فرعون ذلك العصر الذاهب، والدهر المملوء بالمصائب، يأتي يوم القيامة يقدم قومه فيوردهم النار ويرديهم العار وبئس الوردالمورود، والمورد المردي في ذلك الموقف المشهود، رشق المصحف بالسهام وفسق ولم يخف الآثام[2].

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٢٢٠ وانظر الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٢٤٦ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٣٣ .

نظرية الإمامية في تعيين الاثني عشر خليفة

بعد استعراضنا لنظرية أهل السنة في تعيين الخلفاء، يحسن بنا استعراض نظرية الإمامية في تعيينهم، إتماماً للبحث أن يستوفي آراء الفريقين، ثم يمكن لنا بعد ذلك اختيار الأصلح منهما الموافق للمفهوم الإلهي والرؤية الإسلامية للخلافة.

تنبثق النظرية الإمامية في تعيينها لخلفاء النبي (ص) من النصوص النبوية الواردة إليهم عن طريق رواة الفريقين، والتزم الإمامية بدلالة ما ورد فيها دون اللجوء إلى التحليل والتفسير واتخذ أهل السنة طريقة تحليل النصوص اعتماداً على نظرية اجماع الصحابة لتعيين الخلفاء، لذا أقصيت كثيراً من نصوصهم وعُطلّت واستبعدت وهي تتحدث عن تعيين الخلفاء الاثني عشر، وذلك تصحيحاً لنظرية الاجماع ودعماً للموقف السياسي المتخذ يوم سقيفة بني ساعدة، لذا تعامل أهل السنة مع خلفاء النبي في النظرية الإمامية كآل بيت النبي بل تطرّف البعض منهم فأنكر التحاقهم بآل البيت كما تسرع في ذلك وللأسف ـ الحاكم الترمذي في فصوله.

ذهبت الإمامية إلى أن الخلفاء الذين نص عليهم النبي (ص) هم عليّ وذريته،ولهم على ذلك نصوص صحيحة صريحة.

ولغرض معرفة مدى صحة ما ذهبت إليه الإمامة في نظرية الخلفاء ينبغي لنا استعراض حياتهم والتحقق من شخصياتهم بروايات جميع المذاهب الإسلامية وسنكتفي بعرض بعض النصوص فقط دون التعليق عليها:

الحسن بن علي عليه السلام: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي (ص) أنه قال لحسن اللهم إني أُحِبُهُ وأحبب من يحبه، عن البراء بن عازب قال: رأيت الحسن بن علي على عاتق النبي (ص).

وهو يقول اللهم إني أحبه فأحبه[1]

١ ـ قال السيوطي في تاريخ الخلفاء:

كان الحسن رضي اللّه عنه لـه مناقب كثيرة، سيداً، حليماً ذا سكينة ووقار وحشمة، جواداً، ممدوحاً.

وأخرج الحاكم عن عبداللّه بن عبيد بن عمير قال: لقد حج الحسن خمساً وعشرين حجة ماشياً وإن النجائب لتقاد معه[2].

٢ ـ قال ابن الجوزي:

وخرج ـ أي الحسن ـ من ماله مرتين وقاسم اللّه عز وجل ثلاث مرات حتى أن كان ليعطي نعلاً ويمسك نعلاً[3].

٣ ـ قال الذهبي: الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف الإمام السيد ريحانة رسول اللّه (ص) وسبطه، وسيد شباب أهل الجنة، أبو محمد القرشي الهاشمي المدني الشهيد[4].

الحسين بن علي عليه السلام: في مناقب ان ماجة ورد صحيحاً عن النبي (ص)[5]:

حسين مني وأنا من حسين، أحبَّ اللّه من أحب حسيناً، حسينٌ سبطٌ من الاسباط. وقال (ص): من أحب الحسن والحسين فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني. وزاد عليه الترمذي في سننه ما أخرجه عن النبي (ص) صحيحاً[6].

الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

---

(١) صحيح مسلم ج ٧ ص ١٢٩ ـ وأخرجه بن ماجه في سننه وزاد عليه: قال وضمه إلى صدره . انظر ابن ماجه فضائل الحسن والحسين ج ١ ص ٥١ . وكذا الترمذي في صحيحه ج ٥ ص ٦٦١ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٧٧ .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي ج ١ ص ٧٥٨ دار المعرفة بيروت ط٢ ١٩٧٩ .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٣ ص ٢٥٣ مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٩٨١ .

(٥) سنن بان ماجة ح١ ص ٥١ دار الفكر .

(٦) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٥٦ .

إن الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا.

وقال الذهبي في ترجمة الحسين بن علي:

الإمام الشريف الكامل سبط رسول اللّه (ص) وريحانته من الدنيا ومحبوبه[١].

علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ: قال عنه الذهبي، ابن الإمام علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف، السيد الإمام زين العابدين الهاشمي العلوي المدني.

وروى عن الزهري قال: ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين، وقال أيضاً: كان علي بن الحسين من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة، وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: ما رأيت فيهم مثل علي بن الحسين، وعن مالك قال: لم يكن في أهل البيت مثله، وعن سفيان: حج علي بن الحسين فلما أحرم أصفرّ وانتفض ولم يستطع أن يُلبي فقيل: ألا تلبي؟ قال أخشى أن أقول لبيك فيقول لي لا لبيك، فلما لبّى غشي عليه وسقط من راحلته فلم يزل بعض ذلك به حتى قضى حجه.

ومثله عن مالك وزاد عليه: ولقد بلغني أنه كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات وكان يسمى زين العباد لعبادته، وعن محمد بن اسحاق: كان ناسٌ من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل[٢].

ثم قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: وكان له جلالةٌ عجيبة، وحُقّ له واللّه

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٢٨٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٤ ص ٢٨٦ وما بعدها، هكذا ورد في سير النبلاء، ولا يُستكثر على أئمة آل البيت الذين وضعوا كل كيانهم للّه تعالى وفي طاعته، وبغض النظر عن ماديات الحساب الزمني فان حالاتهم الخاصة تهيئهم للوصول إلى الغايات القصوى من العبودية وربما كان يصلي هذه النوافل أثناء سيره أو جلوسه أو في بعض حالاته الأخرى .

ذلك فقد كان أهلاً للإمامة العظمى، لشرفه وسؤدده وعلمه وتألهِهِ، وكمال عقله[١].

محمد بن علي الباقر عليه السلام: عن عبدالله بن عطاء قال: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر منهم علماً عند أبي جعفر (محمد بن علي) لقد رأيت الحكم عنده كأنه متعلم[٢].

قال الذهبي عنه في سير أعلام النبلاء: هو السيد الإمام أبو جعفر محمدبن علي بن الحسين بن علي العلوي الفاطمي المدني.. وكان أحد من جمع بين العلم والعمل والسؤدد والشرف والثقة والرزانة وكان أهلاً للخلافة. وأشتُهر أبو جعفر بالباقر من: بقر العلم أي شقه فعفرف أصله وخفيّه.ولقد كان أبو جعفر إماماً مجتهداً، تالياً لكتاب الله كبير الشأن[٣].

جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: قال عنه ان حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة: جعفر الصادق ومن ثم كان خليفته ووصيه ـ أي خليفة ووصي محمد الباقر ـ ونقل الناس عنه من العلوم، ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريج ومالك والسفيانين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السختياني[٤]... وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ: جعفر بن محمد بن علي بن الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي. الإمام أبو عبدالله العلوي المدني الصادق أحد السادة والأعلام... (وروى) عن مالك والسفيانين وحاتم بن إسماعيل ويحيى القطان وأبو عاصم النبيل وخلق كثير... وثّقه الشافعي ويحيى بن معين. وعن أبي حنيفة قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد. وقال أبو حاتم: ثقة لا يسأل عن مثله. وعن صالح بن أبي الأسود سمعت جعفر بن محمد يقول سلوني قبل

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٤ ص ٣٩٨ .

(٢) صفوة الصفوة ج ٢ ص ١١٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٤ ص ٤٠٢ .

(٤) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي ص ٢٠١ مكتبة القاهر . . مصر .

أن تفقدوني فإنّه لا يحدثكم أحد بعدّي بمثل حديثي. وقال هياج بن بسطام كان جعفر الصادق يطعم حتى لا يبقى لعياله شيء(١).

وعن عمرو بن أبي المقدام قال: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين(٢).

موسى بن جعفر الكاظم ﷺ: قال ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة: موسى الكاظم وهو وارثه ـ أي الصادق ـ علماً ومعرفة وكمالاً وفضلاً سمي الكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه، وكان معروفاً عند أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله وكان أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم.

وترجمة الشعراني في طبقاته الكبرى: موسى الكاظم رضي اللّه تعالى عنه: أحد الأئمة الاثني عشر وهو ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهم أجمعين.. وكان يكنى بالعبد الصالح لكثرة عبادته واجتهاده وقيامه بالليل وكان إذا بلغة عن أحد أنه يؤذيه يبعث إليه بمال. فلما قدم الرشيد المدينة حمله معه وحبسه ببغداد إلى أن توفي مسموماً (رضى اللّه عنه)(٣).

وفي صفة الصفوة قال ابن الجوزي: موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي أبو الحسن الهاشمي ﷺ كان يدعى العبد الصالح لأجل عبادته واجتهاده وقيامه بالليل(٤).

علي بن موسى الرضا ﷺ: قال بن حجر الهيثمي: علي الرضا وهو أنبههم ذكراً وأجلهم قدراً، ومن ثَمَ أحله المأمون محل مهجته وأنكحه ابنته وأشركه في مملكته وفوض إليه أمر الخلافة.

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) صفوة الصفوة لابن الجوزي ج ٢ ص ١٦٨ .

(٣) الطبقات الكبرى للعشراني ج ص ٣٨ .

(٤) صفة الصفوة ج ١ ص ١٨٥ .

وذكر ابن خلكان سبب بيعة المأمون للرضا بولاية العهد: إن المأمون جمع خواص الأولياء وأخبرهم أنه نظر في أولاد العباس وأولاد علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهما، فلم يجد في وقته أحداً أفضل ولا أحق بالأمر من علي الرضا فبايعه[١]... ومثله ما ذكره ابن الأثير في الكامل في ولاية العهد وسبب انعقادها لعلي الرضا بقوله: وذلك أنه نظر ـ أي المأمون ـ في بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً أفضل ولا أورع ولا أعلم منه[٢].

محمد بن علي الجواد ﷺ: قال النبهاني فى جامع كرامات الأولياء ما نصه: محمد الجواد بن علي الرضا: أحد أكابر الأئمة ومصابيح الأمة من ساداتنا أهل البيت، ذكره الشبراوي في الاتحاف بحب الأشراف وبعد أن أثنى عليه الثناء الجميل وذكر شيئاً من مناقبه وما جرى له مما دل على فضله وكماله.

حكى أنه لما توجه رضي اللّه عنه من بغداد إلى المدينة الشريفة خرج معه الناس يشيعونه للوداع فسار إلى أن وصل باب الكوفة عند دار المسيب فنزل هناك مع غروب الشمس ودخل إلى مسجد قديم مؤسس بذلك الموضع يصلي فيه المغرب، وكانت في صحن المسجد شجرة نبق لم تثمر قط فدعا بكوز فيه ماء، فتوضأ في أصل الشجرة فقام وصلى معه الناس المغرب فقرأ في الأولى بالحمد للّه وإذا جاء نصر اللّه والفتح، وقرأ في الثانية بالحمد للّه وقل هو اللّه أحد ثم بعد فراغه جلس هنيهة يذكر اللّه وقام فتنفل بأربع ركعات وسجد معهن سجدتي الشكر، ثم قام فودع الناس وانصرف، فأصبحت النبقة وقد حملت من ليلتها حملاً حسناً فرآها الناس فتعجبوا من ذلك وهذا من بعض كراماته الجليلة ومناقبه الجميلة[٣].

علي بن محمد الهادي ﷺ: قال ابن خلكان في وفياته: أبو الحسن علي الهادي

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبى العباس ابن خلكان ج ٣ ص ٢٧٠ دار صادر بيروت .

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٣٢٦ .

(٣) جامع كرامات الأولياء للنبهاني ج ص ١٦٨ .

بن محمد الجواد بن علي الرضا... ويعرف بالعسكري وهو أحد الأئمة الأثني عشر عند الإمامية، كان قد سُعي به إلى المتوكل وقيل أن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته، وأوهموه أنه يطلب الأمر لنفسه فوجه إليه بعدة من الأتراك ليلاً فهجموا عليه في منزله على غفلة، فوجدوه وحده في بيت مغلق وعليه مدرعة من شعر وعلى رأسه ملحفة من صوفوهو مستقبل القبلة يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد ليس بينه وبين الأرض بساط إلاّ الرمل والحصى فأخذ على الصورة التي وجد عليها وحمل إلى المتوكل في جوف الليل، فمثل بين يديه والمتوكل يستعمل الشراب وفي يده كأس، فلما رآه أعظمه وأجلسه إلى جنبه، ولم يكن في منزله شيء مما قيل عنه ولا حالة يتعلق عليه بها، فناوله المتوكل الكأس الذي كان بيده، فقال: يا أمير المؤمنين ما خامر لحمي ودمي قط فاعفنا منه، فأعفاه وقال: أنشدني شعراً فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غُلب الرجال فما أغنتهم القُللُ
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم فأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا

إلى آخر الابيات المعروفة قال: فأشفق من حضر على علي، فظن أن بادرة تبدر إليه فبكى المتوكل بكاء كثيراً حتى أبلت دموعه لحيته وبكى من حضره، ثم أمر برفع الشراب ثم قال: يا أبا الحسن أعليك دَين؟ قال: نعم أربعة آلاف دينار فأمر بدفعها إليه وردّه إلى منزله مكرماً(١).

روى ابن حجر الهيثمي في تاريخه للإمام الهادي ما نصه:

وكان وارث أبيه علماً وسخاءً. ومن ثم جاءه أعرابي من أعراب الكوفة وقال: إني من المتمسكين بولاء جدك وقد ركبني دين أثقلني حمله ولم أقصد لقضائه سواك، فقال كم دَينك فقال عشرة آلاف درهم فقال طب نفساً بقضائه إن شاء اللّه تعالى، ثم كتب له ورقة فيها ذلك المبلغ ديناً عليه وقال له أئتني به في المجلس العام وطالبني بها واغلظ علي في الطلب، ففعل فاستمهله ثلاثة أيام فبلغ ذلك المتوكل

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٢٧٢ .

فأمر له بثلاثين ألفاً فلما وصلته أعطاها الأعرابي، فقال يا ابن رسول اللّه إن العشرة آلاف أقضي بها أربي، فأبى أن يسترد منه من الثلاثين شيئاً، فولى الأعرابي وهو يقول: اللّه أعلم حيث يجعل رسالته[1].

الحسن بن علي العسكري ﷺ: روى الشبلنجي في نور الأبصار عن أبي هاشم داود بن قاسم الجعفري قال: كنت فى الحبس الذي فيه الجوسق أنا والحسن بن محمد ومحمد بن إبراهيم العمري وفلان وفلان خمسة أو ستة إذ دخل علينا أبو محمد الحسن بن علي العسكري وأخوه جعفر فحففنا بأبي محمد وكان المتولي للحبس صالح بن يوسف الحاجب وكان معنا في الحبس رجل أعجمي فالتفت إلينا أبو محمد وقال لنا سراً لولا أن هذا الرجل فيكم لأخبرتكم متى يفرج اللّه عنكم، وهذا الرجل قد كتب فيكم قصة إلى الخليفة يخبره فيها بما تقولون فيه وهي معه في ثيابه يريد الحيلة في ايصالها إلى الخليفة من حيث لا تعلمون فاحذروا شره قال أبو هاشم فما تمالكنا أن تحاملنا جميعاً على الرجل ففتشناه فوجدنا القصة مدسوسة معه في ثيابه وهو يذكرنا فيها بكل سوء فأخذناها منه وحذرناه.

وكان الحسن يصوم في السجن فإذا أفطر أكلنا معه من طعامه، قال أبو هاشم فكنت أصوم معه فلما كان ذات يوم ضعفت عن الصوم فأمرت غلامي فجاء لي بكعك فذهبت إلى مكان خال في الحبس فأكلت وشربت ثم عدت إلى مجلسي مع الجماعة ولم يشعر بي أحد فلما رآني تبسم وقال أفطرت فخجلت فقال: لا عليك يا أبا هاشم إذا رأيت أنك قد ضعفت وأردت القوة فكل اللحم فإن الكعك لا قوة فيه وقال عزمت عليك أن تفطر ثلاثاً فإن البنية إذا أنهكها الصوم لا تتقوى إلاّ بعد ثلاث، قال أبو هاشم لم تطل مدة أبي محمد الحسن بن علي في الحبس بسبب أن قحط الناس بسر من رأى قحطاً شديداً فأمر الخليفة المعتمد على اللّه بن المتوكل بخروج الناس إلى الاستسقاء فخرجوا ثلاثة أيام يستسقون فلم يستسقوا فخرج

---

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي ص ٢٠٥ .

الجاثليق في اليوم الرابع إلى الصحراء وخرج معه النصارى والرهبان وكان فيهم راهب كلما مد يده إلى السماء هطلت بالمطر ثم خرجوا في اليوم الثاني وفعلوا كفعلهم أول يوم فهطلت السماء بالمطر فعجب الناس من ذلك وداخل بعضهم الشك وصبأ بعضهم إلى دين النصرانية فشق ذلك على الخليفة فأنفذ إلى صالح بن يوسف أن أخرج أبا محمد الحسن من الحبس وأتني به فلما حضر أبو محمد الحسن عند الخليفة قال له أدرك أمة محمد (ص) فيما لحقهم من هذه النازلة العظيمة فقال أبو محمد دعهم يخرجون غداً اليوم الثالث فقال له قد استغنى الناس عن المطر وإستكفوا فما فائدة خروجهم؟ قال لأزيل الشك عن الناس وما وقعوا فيه.

فأمر الخليفة الجاثليق والرهبان أن يخرجوا أيضاً في اليوم الثالث على جاري عادتهم وأن يخرج الناس فخرج النصارى وخرج معهم أبو محمد الحسن ومعه خلق من المسلمين فوقف النصارى على جاري عادتهم يستسقون وخرج راهب معهم ومد يديه إلى السماء ورفعت النصارى والرهبان أيديهم أيضاً كعادتهم فغيّمت السماء في الوقت ونزل المطر فأمر أبو محمد بالقبض على يدي الراهب وأخذ ما فيها فإذا ما بين أصابعه عظم آدمي فأخذه أبو محمد ولفه في خرقة وقال لهم استسقوا فانقشع الغيم وطلعت الشمس فتعجب الناس من ذلك وقال الخليفة ما هذا يا أبا محمد؟ فقال هذا عظم نبي من الأنبياء ظفر به هؤلاء من قبور الأنبياء وما كشف عن عظم نبي من الأنبياء تحت السماء إلاّ هطلت بالمطر فاستحسنوا ذلك وامتحنوه فوجدوه كما قال فرجع أبو محمد إلى داره بسر من رأى وقد أزال عن الناس هذه الشبهة وسر الخليفة والمسلمون بذلك وكلم أبو محمد الحسن الخليفة في اخراج أصحابه الذين كانوا معه في السجن فأخرجهم وأطلقهم من أجله.. قال نقله غير واحد[1].

---

(١) نور الأبصار للشيخ مؤمن بن حسن الشبلنجي ص ١٨٤ دار الفكر الطبعة الأخير ص ١٩٧٩ وذكر ذلك ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة ص ٢٠٧ .

وترجمه الزركلي في أعلامه بقوله: الحسن بن علي الهادي بن محمد الجواد الحسيني الهاشمي أبو محمد الإمام الحادي عشر عند الإمامية... وكان على سُنة سلفه الصالح تقى ونسكاً وعبادةً(١).

محمد بن الحسن المنتظر المهدي: هو ثاني عشر أئمة آل البيت ﷺ، غاب سنة مائتي وست وستون وله من العمر خمس سنين أمّه نرجس(٢) وهو المهدي المنتظر من آل البيت ﷺ، وقد ذكر ابن حجر في الصواعق المحرقة: أبو القاسم محمد الحجة وعمره عند وفاة أبيه خمس سنين لكن أتاه اللّه الحكمة ويسمى القائم المنتظر(٣).

وقد خصصنا قسماً خاصاً للحديث عن مهدي آل محمد وسيأتي بيان أحواله بالتفصيل إن شاء اللّه تعالى.

وبعد هذا كله... أيُّ النظريتين أحق؟

قدّمت لنا نظريتا الإمامة وأهل السنة عرضاً لا طروحتيهما المتغايرتين، فكلٌ منهما رشّح اثني عشر خليفة، وحاول اثبات صحة ذلك بما لديه من مبتنيات بنى عليها نظريته وجاهد في اثبات صحة ما ذهب إليه، فمدرسة النص اعتمدت على ما وردت من نصوص صحيحة عن النبي (ص) في النص على إمامة علي بن أبي طالب والأئمة الباقين من ولده، وإن منصب الخلافة والإمامة لم يكن إلاّ منصباً إلهياً، يصطفي اللّه من عباده من يشاء للتكامل الروحي الذي يصله الإمام وأن العناية الإلهية تتدخل لاصطفاء الإمام ومن ثَمّ تكون الأمة مأمورة بطاعته ولزوم متابعته.

وأهل السنة قدّموا نظريتهم في ترشيح الخلفاء على أساس أجماع الأمة وآراء

---

(١) الأعلام للزركلي ج ٢ ص ٢٠٠ دار العلم للملايين الطبعة السادسة ١٩٨٤ .

(٢) نور الأبصار للشبلنجي ص ١٨٥ .

(٣) الصواعق المحرقة ص ٢٠٨ .

أهل الحل والعقد، وليس للنبي في ذلك من شأن بل هي قضية ترجع إلى الأمة لتختار من يصلحها في أمورها وسياسة حياتها. إن استعراضاً سريعاً لحياة خلفاء النظريتين يقدم لنا حلاً للاشكالات المطروحة في المقام، فالشرائط التي تؤهل الخليفة من أن ينال مقامه بفيض اللّه وألطافه تراجعت في قائمة خلافة أهل الحل والعقد، ولم تثبت واحدة منها إلاّ بعد مناورات دفاعية يجيدها كادرٌ متخصص في هذا المجال، وهي اليوم تتراجع بعد اندحار هذا الأسلوب، وقد رفضت الأمة التعامل مع مدارس سياسية تاريخية أرست قواعدها السلطات الحاكمة المتعاقبة على العالم الإسلامي ورجالاتها، فالأمة تقتحم اليوم معركة فكرية ثقافية تنافح بها ثقافات التيار المضاد القادمة من خلف حدود الوطن الإسلامي، فكان لا بد من إعادة قراءة التاريخ بعقلية جديدة متحررة غير خاضعة لاستعمار دوائر التثقيف الحاكم.

فقراءة التاريخ جعلها البعض لا تتعدى عن ترف فني وترفيه أدبي يلجأ إليه القارئ عند أوقات فراغه، لتمر عليه حبكةً فنيةً قصصيةً عن ورع «الحاكم المؤمن» وهو في مجلس لهوه مذكَراً ندماءه «بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» مشدداً على ذكر اللّه واستغفاره، وكم كان «الحاكم العادل» وهو « ظل اللّه في أرضه » حريصاً على قتل المخالفين وتنكيلهم وهو لم يألُ جهداً في سجن النساء والأطفال لضرورات نشر «عدل اللّه في خلقه» وكيف كان «الحاكم التقي سخياً يملأ من البيت المال أفواه الشعراء بالمال عند مدحهم إياه»، كل ذلك تقوية «لشوكة الخلافة وهيبة الإسلام» وكم كان «الحاكم الزاهد» متواضعاً حليماً عطوفاً على رعيته يجالس المخنثين ويلهو معهم ويفاخر بين المطربين وهو على هيبته وسطوة ملكه، وهكذا من القصص العابثة ما يثير شوق القارئ «لإيمان الحاكم» و«ورعه» و«عدله» و«تقواه» و«زهده».. إلى آخره. إن القارئ الإسلامي اليوم غدا وهو جزءٌ من الأمة يقرأ تاريخها لمعرفة ذاته وقراءة شخصيته، وهو يبحث كذلك عن مقومات الشخصية الإسلامية التي تشارك في خلق شخصية الخليفة الإلهي، وهي

تمثل الحقيقة المحمدية بكل فيوضاتها الربانية، فالشجاعة والحلم، والاصلاح، والعبادة والعلم، والصدق، وكظم الغيظ، والرضا بما قدره اللّه وقضاه، والجود، والهداية والصبر على المحسن، ونشر كلمة اللّه وعدله، كلها يقرأها في ملاحم علي، وصلح الحسن، وجهاد الحسين، وعبادة السجاد، وعلم الباقر والصادق، وكظم غيظ الكاظم، والرضا بما قدره اللّه في الرضا من آل محمد، وجود الأئمة، وهداية الهادي وصبر الحسن وما أوعد اللّه عباده الصالحين من أن يرث الأرض المتقون من عباده في مهدي آل محمد.

عقيدة الإمامية في أن الإمامة بالنص

تمهيد

بعد ان بحثنا في الفصل الأول عن خلفاء النبي (ص) وورثته وبيّنا على اي النظريتين يستقر حديث الأئمة من قريش اثني عشر، وبعد أن قدّمنا تعريفاً بخلفاء النظريتين الإمامية وأهل السنة، نود الآن أن نتناول استعراضاً للنظرية القائلة بالنص على الإمام، وسنورد نصوصاً صريحة صحيحة في إمامة من سيخلف النبي (ص) عن طريق الصحاح الستة وكتب الحديث لأهل السنة، وستكون معززة بشواهد مقامية حالية تدل على شخص الإمام واسمه وكيف كانت رعاية اللّه تعالى بعباده أن أتم نعمته عليهم بهدايتهم إلى من سيخلف النبي في تبليغ أحكامه لتكون للّه الحجة البالغة على العباد.

إن مدرسة الخلفاء السنية تعاملت مع الإمامة على أنها منصب سياسي يؤخذ من انتخاب أهل الحل والعقد، أو اجماع الأمة على اتفاقها لتنصيب من تراه مناسباً على أساس تقييمها، وكانت نظرية عزل الدين عن السياسة التي أصّلها النظام الأموي وأكدها البيت العباسي ودرجت عليها ثقافات الحكومات التالية بعدها وتثقّفت عليها أجيال من الأمة حتى صارت من مرتكزات النظرية الجدلية السياسية المنافحة لكثير من دعاوى الاصلاح الإسلامية، هي من مبتنيات المدرسة السنية، حيث رأت ذلك أقرب إلى الوحدة والحفاظ على كلمة المسلمين من الانشقاق - وهي ما اعتادت عليه النظرية السنية من تبريرات سلوكياتها المراعية للخط السياسي العام - وراح أتباعها يتعاملون مع الحدث الجديد دون أن يتركوا بصماتهم عليه مداراة للحاكم الذي أجمعت عليه الأمة، أو اتفق عليه أهل الحل والعقد، كما هي عليه

الطروحات السياسية الحاكمية، وعلى الأمة اطاعته، وعدم شق عصا الطاعة خوفاً من انشقاق كلمة المسلمين، وحفاظاً على وحدة الجماعة الإسلامية، مع الاحتفاظ بالانكار في القلب، وعدم الرضا القلبي كاف لكون المسلم مستنكراً لما فعله الحاكم من ارتكاب الفسق والظلم، هذه توجهات نظرية الاجماع وتحالفاتها مع أي نظام سياسي قائم أو سيقام مستقبلاً. أما اتباع النظرية الإمامية فإنهم يستنكرون من أول الأمر أن يكون الخليفة غير معصوم وذلك بتعيينه بالنص النبوي الشريف وعندها فلن تواجه الأمة بعد ذلك خطر انحراف الحاكم وتبعية التصرفات الطائشة التي سيرتكبها غير المعصوم والذي اجمعت عليه الأمة.

فالإمامية تعتقد أن منصب الإمامة لم يكن إلاّ بالنص من اللّه تعالى وعلى لسان نبيه الكريم، لا على أساس الانتخاب أو الشورى، فالإمامة منصب إلهي أقدس لا يستحقه إلاّ من كانت له نفس قدسية ملكوتية منزهة عن السفاسف ومحقَّرات الأمور، وتهيئه لاحتمال أعباء الرسالة ومهمة التبليغ، حتى يصل الفيض إلى عامة الملكفين وقد تعذر على الأمة تعيين المعصوم من بين باقي المكلفين، فصار النص على الإمام لطفاً إلهياً، مكملاً لألطاف الإمامة. وللعلامة الحلي وهو من أكابر علماء الإمامية دليل عقلي لاثبات الإمامة وأنها منصب إلهي لا يناله الإمام إلاّ بالنص عليه من قبل اللّه تعالى قال فيه[1]: والدليل على ما ذهبنا إليه وجهان: الأول أنا قد بيَنا أنه يجب أن يكون الإمام معصوماً والعصمة أمر خفي لا يعلمها إلاّ اللّه تعالى فيجب أن يكون نصبه من قِبلِه تعالى لأنه العالم بالشرط دون غيره.

الثاني: إن النبي (ص) كان أشفق على الناس من الوالد على ولده حتى أنه ﷺ أرشدهم إلى أشياء لا نسبة لها إلى الخليفة من بعده كما أرشدهم في قضاء الحاجة إلى أمور كثيرة مندوبة وغيرها من الوقائع وكان ﷺ إذا سافر عن المدينة يوماً أو يومين استخلف فيها من يقوم بأمر المسلمين ومن هذه حاليه كيف ينسب إليه

---

(١) كشف المراد في تجريد الاعتقاد للعلامة الحلي ص ٣٦٦ .

اهمال أمته وعدم ارشادهم في أجلّ الأشياء وأسناها وأعظمها قدراً وأكثرها فائدة وأشدهم حاجة إليها وهو المتولي لأمورهم بعده فوجب من سيرته ﷺ نصب إمام بعده والنص عليه وتعريفهم إياه وهذا برهان لمي(١).

هذا وقد صَرح أئمة آل البيت عليهم السلام، أن الإمامة قائمة بالنص، عهدٌ من رسول الله (ص) يتلقاها اللاحق من السابق حتى أتمت كلمة الله في اثني عشر إماماً من آل محمد (ص)، فقد أورد الصفار في بصائر درجاته عن عمرو بن الأشعث قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: أترون الموصي منا يوصي إلى من يريد لا والله ولكن عهد من رسول الله (ص) رجل فرجل حتى ينتهي إلى صاحبه(٢).

---

(١) البرهان اللمي هو الاستدلال بالعلة على المعلول كقولنا هذه الحديدة حارة وكل حديدة حارة تتمدد، فالاستدلال بارتفاع الحرارة على التمدد استدلال بالعلة على المعلول ففي قول العلامة أن النبي ﷺ أشفق على الناس من الوالد على ولده يعلمهم كل ما أرادوه حتى في قضاء حوائجهم وقد استخلف على المدينة عند غيبته يوماً أو يومين ليقوم بأمر المسلمين ومن كانت هذه حاله وجب أن يستخلف على المسلمين بعد موته من يقوم بأمورهم . فقد استدل بالعلة وهي حرص النبي على المسلمين بالمعلول وهو استخلافه الخليفة ليقوم بأمورهم ويرعى شؤونهم...

(٢) بصائر الدرجات أبو جعفر محمد بن الحسن الصفار القمي ص ٤٧٠ منشورات مكتبة المرعشي قم ١٤٠٤ هـ .ق .

أدلة الإمامية على أن الإمة بالنص،
برواية الصحاح الستة

أجمعت الإمامية على إمامة علي بن أبي طالب ﷺ بالنص من الآيات والروايات وأيدهم في ذلك جميع أهل السنة لكنهم اختلفوا في تقديمه على الشيخين لدعوى اجماع الأمة ـ كما مر بك في الفصل الأول ـ وسلّموا لفضائله جميعاً، لكنهم اعتذروا بأن الأمة اختارت غيره، مع العلم أن منصب الإمامة أمر إلهي مقدّس لن ينال بالشورى أو الاجماع، بل هو تعيين يعلنه النبي (ص) ويؤكده في مناسباته حرصاً منه على الأمة من الضياع أو التخبط في اختيار الخليفة والاجماع عليه. والنص قاطع بتعيين من سيخلف النبي وقد تسالم الفريقان على نقل ما ورد عنه (ص) في علي بن أبي طالب فضلاً وعلماً وشجاعة ثم النص على خلافته جلي صريح.

فالإمامية التزمت بالنص دون التكلف بتوجيهه وتنظيره، وقد ساعد في ذلك جملة من مقومات فهم النصوص النبوية الكريمة، والعقل والوجدان ساعدا على استنباط مقاصده صلى الله عليه وآله، وهي كلها تتكامل لتقدم فهماً ناضجاً على استنباط مقاصده صلى الله عليه وآله، وهي كلها تتكامل لتقدم فهماً ناضجاً رشيداً يدخل في معرفة الرسالة ضمن دائرة النص النبوي المبارك وأهل السنة سلكوا مسلكاً آخر حيث حاولوا التوفيق بين هذه النصوص وبين نظرية اجماع الأمة، إلاّ أنها عملية كانت متعسرة صعبة، فدار الأمر بين طرح إحدى اثنتين النص أم الاجماع، فكان الأخذ بالاجماع أوفق لمجريات التاريخ السقيفي، والتحفظ على النص بالشكل الذي يضمن إلقائه دون منافسته لنظرية الاجماع واصطدامه مع السرد التاريخي للأحداث،

وهي محاولة أقل ما يقال فيها متعذرة الوقوع تلكأت حتى في إقناع أتباع مدرسة الخلفاء السنية وذلك لمعاناتها من قوة النص النبوي الذي يفرض نفسه على الأحداث، ومن ضعف مقالة الاجماع لأنها مخدوشة علمياً وعملياً فالاجماع في نظر هذه المدرسة هو اطباق المسلمين على شيء وشذوذ أحدهم خرق بيّن للاجماع فكيف بانشطار المسلمين إلى مجاميع وتكتلات وأحزاب إبان يوم السقيفة بين مؤيد لها وبين رافض وبين مساوم وبين متوقف؟

فكتلة الشيخين ومن تبعهما تحت ظل سقيفة بني ساعدة تتداول الأمر بينها، وجماعة الهاشميين ومن تبعهم من المهاجرين والأنصار يجتمعون عند علي بن أبي طالب يعبّرون على أقل تقدير عن رفضهم لهذا العمل المتسرع الذي استبعدهم عن الأحداث كمسلمين ضمن الجماعة الإسلامية فضلاً عن قربهم لرسول اللّه (ص) ومكانتهم عنده، والحزب الأموي بزعامة أبي سفيان يترصد الأحداث ليتخذ ما يلزم اتخاذه من أجل الحصول على موطأ قدم في ساحة الأحداث الجديدة الساخنة، وبني زهرة كعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص واتباعهم مرتبكون عن اتخاذ أي إجراء لا يعلمون ما يجري خلف كواليس تلك السقيفة، وإذا بالاعلان يسمعه الملأ المنقسم على نفسه المختلف في رأيه المنشطر في تأييده، أن قد تم الأمر باجماع من عامة المسلمين واتفاق آرائهم، وهي عملية طارئة كانت لها كسب الجولة الآنية فقط، وقد بُرر ذلك بأن الأحداث الخطيرة التي تلوح في أفق المسلمين تنذر بخطر الفتنة وشق وحدة الأمة وأن أي تأخير لاتخاذ ما يلزم سيؤدي بالجماعة الإسلامية إلى الاختلاف، لذا حاولت هذه المدرسة تنظير مبرراتها الفكرية وإن كانت غير ملائمة لمجريات الأحداث ومسلمات الوقائع التاريخية المتفق عليها بين الفريقين، والمدرسة الإمامية تبنت النصوص النبوية المتواترة عند الفريقين والدالة على إمامة علي بن أبي طالب بعد ما ارتكزت في أذهان الأمة شخصية الخليفة الشرعي، وذلك منذ حياة النبي حينما أوصى (ص) بخلافة علي في كل مناسبة وحدث، إلاّ أن الأحداث الجديدة قد

طرأت على تاريخ الخلافة وأربكت مسلَّمات المجتمع الإسلامي وبديهيات الخلافة وأجَلت النصوص النبوية واقتحمت دائرة الجماعة الإسلامية بسرعة هائلة جداً قياساً للانقلابات العسكرية الحديثة، حفاظاً على وحدة المسلمين كما أعلنت في بيانها الأول، ونجحت في اسكات المعارضة بكل الأساليب، حتى رأى علي بن أبي طالب تأجيل المطالبة بحقوقه في الخلافة في خضم السلوكية المتشنّجة، التي اختارتها الجماعة في مؤتمرهم العاجل الذي فرض عليهم التسابق إلى الأخذ بزمام الأحداث، والنبي بعدُ لَما يوارى جدثه الشريف، وعليٌ مشغول بتجهيز ابن عمه والأمة مفجوعة بفراق نبيها. قد شغلها المصاب عن أي تحضير للخلافة الجديدة أو التفكير في خصوص انتخاب الخليفة فلا داعي لذلك بعد أن علمت الأمة أن الأمر يخص السماء في النص على الخليفة الشرعي، وأن مفهوم الخلافة كما ارتكز في أذهان الأمة: هو المنصب الإلهي الذي عهدته من قبل إبَان التحضير النبوي المبكّر للخلافة الإلهية، وهي غير منصب الخلافة السياسية الذي يأتي إثر مناورات سياسية تقتضيها ظروفها، بل الخلافة الإلهية لها تراثها من النصوص النبوية الممتدة منذ فجر الرسالة حتى آخر لحظة من حياة النبي (ص)، أما الثاني فهو المنصب السياسي الذي تفرضه الأحداث الطارئة والقاهرة ليدخل إلى مفهوم الإسلامي، طارئاً جديداً يضاف إلى قائمة الأحداث السياسية.

وسنتناول ما تحتج به الإمامية لإمامة علي بن أبي طالب إلاّ أن من نافلة القول ذكر ما هو في مفهوم أهل السنة من مقومات وشروط لابد من توفرها عند الإمام وسنطبقها على شخصية علي بن أبي طالب استناداً إلى النصوص النبوية الصحيحة، وإليك ما اشترطه التفتازاني من شروط الإمامة بقوله: التكليف والحرية والذكورة والعدالة وذلك ظاهر. وزاد الجمهور الشجاعة ليقيم الحدود ويقاوم الخصوم والاجتهاد[1] ليقوم بمصالح الدين واصابة الرأي ليقوّم الأمور وكونه قريشياً لقوله

---

(١) هو شرط اشترطه أهل السنة في الإمام، والإمامية لم يشترطوا ذلك بل اكتفوا بعصمة الإمام

(ص) الأئمة من قريش، الولاية من قريش، قدموا قريشاً ولا تَقَدَّموها[1].

وسنحاول ذكر ما اختص به علي بن أبي طالب من صفات فهل توافق ما اشترطه أهل السنة بل عامة المسلمين من شروط تكون من مقومات الإمامة ومن صفات الإمام؟.

علمُ علي:

سنن الترمذي.

عن سويد بن غفلة عن الصنابحي عن علي رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه (ص): أنا دارُ الحكمة وعليّ بابها[2] وعن عبدالرحمن بن عبداللّه بن عمرو بن هند الحبلي قال: قال عليّ: كنت إذا سألتُ رسول اللّه من علمه أعطاني وإذا سكتُ ابتدأني[3].

شجاعة علي:

صحيح البخاري.

عن سهل بن سعد رضي اللّه عنه أن رسول اللّه (ص) قال لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح اللّه على يديه، قال فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها فلما اصبح الناس غدوا على رسول اللّه (ص) كلهم يرجو أن يعطاها فقال أين علي بن أبي طالب فقالوا يشتكي عينيه يا رسول اللّه قال فأرسلوا إليه فأتوني به فلما جاء بصق في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال عليّ: يا

المؤدية إلى اعتماده على كتاب اللّه تعالى وأحاديث النبي ﷺ دون العمل برأيه والاستناد على القياس والاستحسان والإمام عندهم يخطأ ويصيب وعند الإمامية خلاف ذلك لعصمته كما قلنا .

(١) شرح المقاصد للتفتازاني ج ٥ ص ٢٤٣ منشورات الشريف الرضي ط ١٩٨٩ م .

(٢) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٣٧ .

(٣) المصدر نفسه .

رسـول اللّـه أقاتلـهم حتـى يكونـوا مثلنـا فقـال: انفـذ علـى رسـلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعُهُم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه فيه، فواللّه لأن يهدي اللّه بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمُر النِعم.

وعن مسلمة قال: كان عليّ قد تخلف عن النبي (ص) في خيبر وكان به رمد فقال: أنا أتخلف عن رسول اللّه (ص)؟ فخرج عليّ فلحق بالنبي (ص) فلما كان مساء الليلة التي فتحها اللّه في صباحها قال رسول اللّه (ص) لأعطين الراية أو ليأخذن الراية غداً رجلاً يحبه اللّه ورسوله أو قال يُحب اللّه ورسوله يفتح اللّه عليه فإذا نحن بعلي وما نرجوه فقالوا هذا عليّ فأعطاه رسول اللّه (ص) الراية ففتح اللّه عليه[1].

صحيح مسلم.

عن أبي هريرة أن رسول اللّه (ص) قال يوم خيبر لأعطين هذه الراية رجلاً يحب اللّه ورسوله ويفتح اللّه على يديه قال عمر بن الخطاب ما أحببت الامارة إلاّ يومئذ، قال فتساورتُ لها رجاء أن ادعى لها قال فدعا رسول اللّه (ص) علي بن أبي طالب فأعطاه إياها وقال امش ولا تلتفت حتى يفتح اللّه عليك[2].

امارةٌ باعتراف عمر:

ولما عقد النبي (ص) الراية لعلي، فَهِمَ الأصحاب من ذلك أنها الامارة والولاية بأمر اللّه تعالى، وكان الخليفة الثاني قد تمنى الامارة ساعتئذ وقد غبط علياً لما أولاه اللّه هذه النعمة وأتم عليه الولاية، فقد كان عَقْدُ الراية لعلي مشفوعاً بشهادة النبي (ص) أنه يحب اللّه ورسوله، وهو أعز ما يناله المسلم من وسام يومذاك، وتنافس المسلمون لذلك على أشده، فقد عرفوا قدر هذه المهمة الخطيرة بأنها البداية

---

(١) صحيح البخاري باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ح ٤ ص ٢٢ دار الجيل بيروت .

(٢) صحيح مسلم ح ٧ ص ١٢١ .

للترتيبات النبوية في تعيين الخليفة المسبوقة بتحضيرات أخرى، وتيقن المسلمون في الوقت نفسه أن انعقاد الولاية لا يتم إلاّ بنص النبي (ص) على شخص الخليفة، وإلاّ فلا معنى لقول الخليفة الثاني: ما أحببت الامارة إلاّ يومئذ، وهو تأكيد على أن العملية النبوية هذه، هي تنصيب للامارة الإلهية القادمة في موعدها، وقد أذعن في ذلك اليوم الخليفة الثاني ومثله المسلمون أن الخلافة الشرعية لا تنعقد إلاّ بنص السماء وعلى لسان رسوله الكريم.

زهدُ علي:

صحيح البخاري: عن سهل بن سعد.. إلى أن قال دخل عليّ على فاطمة ثم خرج فاضطجع في المسجد فقال النبي (ص) أين ابن عمك قالت في المسجد فخرج إليه فوجد رادئه سقط عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب عن ظهره فيقول اجلس يا أبا تراب مرتين[1].

---

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ٣٠٠ ورواه مسلم بنفس الطريق ج ٧ ص ٢٢٤ .

خصائص علي

١ ـ علي من رسول الله..

سنن الترمذي.

عن البراء بن عازب أن النبي (ص) قال لعلي بن أبي طالب: أنت مني وأنا منك[١].

٢ ـ لا يحب علياً منافق ولا يبغضه مؤمن..

سنن الترمذي.

عن المساور الحميري عن أمه قالت: دخلت على أم سلمة فسمعتها تقول: كان رسول اللّه (ص) يقول لا يحب علياً منافق ولا يبغضه مؤمن[٢].

عن أبي سعيد الخدري قال: إنّا كنا لنعرف المنافقين نحن معاشر الأنصار ببغضهم علي بن أبي طالب[٣].

سنن ابن ماجة.

عن زر بن حُبيش عن علي قال: عهد إليّ النبي الأمي (ص) أنه لايحبني إلاّ مؤمن ولا يبغضني إلاّ منافق[٤].

---

(١) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٣٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) سنن ابن ماجة ح ١ ص ٤٢ ، ص ٤٤ .

٣ ـ عليّ الصديق الأكبر:

سنن ابن ماجة.

عن عباد بن عبداللّه قال: قال عليٌ: أنا عبداللّه وأخو رسوله (ص) وأنا الصدِّيق الأكبر لا يقولها بعدي إلاّ كذاب، صليت قبل الناس لسبع سنين(١).

نجوى الرسول لعلي بن أبي طالب:

سنن الترمذي.

عن الأجلح عن الزبير عن جابر قال: دعا رسول اللّه (ص) علياً يوم الطائف فانتجاهُ فقال الناس لقد طال نجواه مع ابن عمه، فقال رسول اللّه (ص): ما انتجيته ولكن اللّه انتجاه(٢).

سد الأبواب إلاّ باب علي:

سنن الترمذي.

عن عمر بن ميمون عن ابن عباس أن رسول اللّه (ص)، أمر بسد الأبواب إلاّ باب علي(٣).

استطراق علي جنباً في المسجد:

سنن الترمذي.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٣٧ إلى ص ٦٤٣.

(٣) المصدر نفسه.

عن سالم بن أبي حفصة عن عطية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله (ص) لعلي: يا علي لا يحلُ لأحد يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك. قال علي بن المنذر: قلت لضرار بن صرد: ما معنى هذا الحديث؟ قال: لا يحل لأحد يستطرقه جنباً غيري وغيرك[1].

حديث المؤاخاة:

سنن الترمذي.

عن جميع بن عمير التيمي عن ابن عمر قال: آخى رسول الله (ص) بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال له رسول الله (ص): أنت أخي في الدنيا والآخرة[2].

حب الله ورسوله علياً:

صحيح البخاري.

في حديث الراية حتى قال رسول الله (ص) لأعطين الراية أو ليأخذ الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله أو قال يحب الله ورسوله.. [3]

وفي صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع مثله[4].

سنن الترمذي:

عن أنس بن مالك قال: كان عند النبي (ص) طيرٌ فقال اللهم ائتني بأحبَ خلقك إليك يأكلُ معي هذا الطير، فجاء علي فأكل معه[5].

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه.

(٣) صحيح البخاري ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٤) صحيح مسلم ج ٧ ص ١٢٢ .

(٥) سنن الترمذي ج ٥ ص ٥٣٧ - ٦٤٣ .

سنن الترمذي:

عن أبي إسحق عن البراء قال: بعث النبي (ص) جيشين وأمّر على أحدهما علي بن أبي طالب وعلى الآخر خالد بن الوليد وقال: إذا كان القتال فعليٌ قال: فافتتح علي حصناً فأخذ منه جارية، فكتب معي خالدٌ كتاباً إلى النبي (ص) يشي به. قال: فقدمت على النبي (ص) فقرأ الكتاب فتغير لونه، ثم قال: ما ترى في رجل يحبَ اللّه ورسوله ويحبهُ اللّه ورسولهُ؟ قال: قلت أعوذ باللّه من غضب اللّه وغضب رسوله، وإنما أنا رسولٌ، فسكت[1].

سنن الترمذي:

عن أبي الجراح حدثني جابر بن صبيح قال: حدثتني أم شراحيل قالت حدثتني أم عطية قالت بعث النبي (ص) جيشاً فيهم عليٌ قالت: فسمعت النبي (ص) وهو رافع يديه يقول: اللهم لا تمتني حتى تريني علياً[2].

هذه ملامح شخصية علي وبعض صفاته، أوردناها مقدمةً للنصوص التالية التي تؤكد خلافته وإمامته وستكون هذه المقدمة تمهيداً يطّلع عليه القارىء ليعرف سر اهتمام النبي (ص) به، ثم هي محاولة أخرى لتهيئة النفوس وترويضها عند تلقي النص النبوي القائل بإمامته، وسيعيننا على التصدي لكل المحاولات التثقيفية التي يُخلصُ من ورائها تحجيم النصوص وتأطيرها ضمن النظرة الخاصة الضيقة المتعاملة مع النص النبوي الشريف.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

النص على خلافة علي بن ابي طالب
برواية الصحاح الستة

احتجت الإمامية بما ورد عن النبي (ص) في علي بن أبي طالب بالنص على إمامته وصريح خلافته، وقد روت نصوصاً صريحة صحيحة اتفقت معهم أهل السنة في صحاحها وتواترت عليها كتبهم، فأوردته نصاً خالصاً لا تشوبه الآراء بعيداً عن أي توجيه، إلاّ أن بعض الدوائر الثقافية تعهدت بمعالجة النصوص النبوية هذه بالشكل الذي يبقى على فاعلية تاريخها ذي المشروعية المبرمجة في اطار نظرية أهل الحل والعقد وليس للنبي (ص) في هذه القضية شأن، بل هو شأن الأمة تختار ما يصلحها ليقيم أمورها، أما النصوص النبوية ما هي إلاّ صيغ اقتراحية اقترحها النبي فلم يلزم الأمة بالتزامها، ولم يفرض عليها اتباعها. هذه نظرية أهل الاجماع، تقابلها مدرسة النص الإمامية القائلة بالنص على خلافة علي بن أبي طالب، وقد رأت أن نصوص النبي (ص) لا تتعدى عن حالات ثلاث، إما أن تكون بصيغة الأمر أو بصيغة النهي أو بصيغة الاخبار، وليس شيئاً رابعاً يتعهد الجانب الأدبي الترفيهي، تقرأه الأمة لتسجله ضمن أدبياتها الموروثة.

فالنصوص النبوية إن كانت بصيغة الأمر فمعنى ذلك أن الأمة مأمورة ببيعة المنصوص عليه دون غيره، وإن كان بصيغة النهي فإن غير المنصوص عليه منهي عن مبايعته حرام على الأمة طاعته ولزوم متابعته، وإن كانت بصيغة الاخبار فإن النبي (ص) أخبر على المنصوص عليه، أنه خليفته وولي الأمر بعده وليس للأمة الحق في أن تتعداه إلى غيره لا باجماعها ولا بآراء أهل الحل والعقد منها، وإليك نصوصاً من الصحاح الستة تؤكد ما ذهبت إليه الإمامية في اعتقادها بخلافة علي دون اللجوء إلى التفسير الانفعالي الصاخب والنظرة المرتجلة التي تشوش عطاء المقاصد النبوية الطاهرة.

١ ـ حديث المنزلة:

صحيح البخاري:

عن سعد عن أبيه قال: قال النبي (ص) لعلي أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى[١].

صحيح مسلم:

عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قال رسول اللّه (ص) لعلي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي قال سعيد فأحببت أن أشافِهه بها سعداً فلقيت سعداً فحدثته بما حدثني عامر، فقال أنا سمعته فقلت أنت سمعته فوضع أصبعيه على أذنيه فقال نعم وإلاّ فاستكتا. ومثله عن الحكم عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن سعد بن أبي وقاص قال: خلّفَ رسول اللّه (ص) علي بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال: يا رسول اللّه تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي. وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال ما منعك أن تسبَّ أبا تراب فقال أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول اللّه (ص) فلن أسبه لأن تكون لي واحدة منهن أحبُ إليَّ من حُمر النعم، سمعت رسول اللّه (ص) يقول له وقد خلّفه في بعض مغازيه فقال له علي يا رسول اللّه خلفتني مع النساء والصبيان فقال له رسول اللّه (ص) أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبوة بعدي، وسمعته يقول يوم خيبر لأعطين الراية رجلاً يحبُ اللّه ورسوله ويحبه اللّه ورسوله قال فتطاولنا لها فقال ادعوا لي علياً فأتي به أرمد فبصق في عينه ودفع الراية إليه ففتح اللّه عليه، ولما نزلت هذه الآية (فقل

---

(١) صحيح البخاري باب فضائل أصحاب النبي ح ٤ ص ٢٤ دار الجيل بيروت .

تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم)دعا رسول اللّه (ص) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال اللهم هؤلاء أهلي.

هذا وقد روى مسلم الحديث بخمس طرق[١].

سنن ابن ماجة:

عن سعد بن إبراهيم قال سمعت إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص يحدّث عن أبيه عن النبي (ص) أنه قال لعلي: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟[٢].

سنن الترمذي:

عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص أن النبي (ص) قال لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي[٣].

٢ ـ حديث الغدير:

سنن ابن ماجة:

عن سعد بن أبي وقاص قال: قدم معاوية في بعض حجابه فدخل عليه سعد، فذكروا علياً فنال منه فغضب سعد وقال: تقول هذا لرجل سمعت رسول اللّه (ص) يقول من كنت مولاه فعلي مولاه. وعن البراء بن عازب قال: أقبلنا مع رسول اللّه (ص) في حجته التي حجَ فنزل في بعض الطريق. فأمر الصلاة جامعة. فأخذ بيد علي فقال: ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى. قال: ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى. قال: فهذا ولي من أنا مولاه اللهم والِ من والاه، اللهم عادِ من

---

(١) صحيح مسلم ج ٧ ص ١٢٠ .

(٢) سنن ابن ماجة ج ١ ص ٤٢ .

(٣) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٤١ .

عاداه[1].

سنن الترمذي:

عن سلمة بن كُهيل قال: سمعت أبا الطفيل يُحدِّث عن أبي سُريحة أو زيد بن أرقم، شك شُعبة عن النبي (ص) قال: من كنت مولاه فعلي مولاه.

قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

وقد روى شعبة هذا الحديث عن ميمون أبي عبداللّه عن زيد بن أرقم عن النبي (ص)[2].

٣ ـ لا يؤدي عن النبي إلاّ علي:

سنن ابن ماجة:

عن أبي اسحاق عن حبشي بن جناده قال: سمعت رسول اللّه (ص)يقول: علي مني وأنا منه، ولا يؤدي عني إلاّعلي[3].

سنن الترمذي:

عن أبي اسحاق عن حُبشي بن جنادة قال: قال رسول اللّه (ص): علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلاّ أنا أو علي[4].

٤ ـ عليّ ولي كل مؤمن بعد النبي:

سنن الترمذي:

عن عمران بن حصين قال بعث رسول اللّه (ص) جيشاً واستعمل عليهم

---

(١) سنن ابن ماجة ج ص ٤٣ .

(٢) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٣٣ .

(٣) سنن ابن ماجة ج ١ ص ٤٤ .

(٤) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٣٦ .

علي بن أبي طالب فمضى في السرية فأصاب جارية فأنكروا عليه، وتعاقد أربعة من أصحاب رسول اللّه (ص) فقالوا إذا لقينا رسول اللّه (ص) أخبرناه بما صنع علي، وكان المسلمون إذا رجعوا من السفر بدأوا برسول اللّه (ص) فسلموا عليه ثم انصرفوا إلى رحالهم فلما قدمت السرية سلّموا على النبي (ص) فقام أحد الأربعة فقال يا رسول اللّه ألم تر إلى علي بن أبي طالب صنع كذا وكذا فأعرض عنه رسول اللّه (ص) ثم قام الثاني فقال مثل مقالته، فأعرضه عنه ثم قام الثالث فقال مثل مقالته فأعرض عنه ثم قام الرابع فقال مثل ما قالوا، فأقبل رسول اللّه (ص) والغضب يُعرف في وجهه فقال ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي[1].

٥ ـ إن علياً قد امتحن اللّه قلبه على الإيمان:

سنن الترمذي:

عن ربعي بن حراش حدثنا علي بن أبي طالب بالرحبة قال: لما كان يوم الحديبية خرج إلينا ناسٌ من المشركين فيهم سهيل بن عمر وأناسٌ من رؤساء المشركين، فقالوا: يا رسول اللّه خرج إليك ناس من أبنائنا واخواننا وأرقائنا وليس لهم فقه في الدين، وإنما خرجوا فراراً من أموالنا وضياعنا فارددهم إلينا. قال: فإن لم يكن لهم فقه في الدين سنفقههم فقال النبي (ص) يا معشر قريش لتنتهن أو ليبعثنّ اللّه عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين، قد امتحن اللّه قلبه على الإيمان قالوا: من يا رسول اللّه؟ فقال له أبو بكر من هو يا رسول اللّه؟ وقال عمر من هو يا

---

(١) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٣٢ .

رسول اللّه؟ قال: هو خاصف النعل وكان أعطى علياً نعله يخصفها. ثم التفت إلينا عليّ فقال: إن رسول اللّه (ص) قال: من كذّب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار[١].

---

(١) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٣٤ .

مناقشة النصوص

لم تكن الحاجة إلى مناقشة النصوص الواردة في خلافة علي عليه السلام إلاّ محاولة رادعة للجهود التثقيفية التي تتبنى مسلك مناقشة النص والتي تجاوزت إلى حالات مقيتة مرفوضة ضمن الأدبيات الإسلامية المنهي عنها على لسان النبي (ص)، وهي محاولات «الاجتهاد مقابل النص» فقد اعتاد السلف من المسلمين ومثلهم مدرسة الإمامية كذلك على أن تتعامل مع النصوص النبوية بما يضمن الابقاء على القصد النبوي سليماً عن أي محاولة توجيهية يتدخل بها الذوق لانتزاع صيغ جديدة تكون بدائل عن هذه النصوص، وكانت محاولة «الاجتهاد مقابل النص» كبوة من كبوات البحث الإسلامي الذي زجته دوائر تثقيفية خاصة ضمن برامجها القائمة على إيجاد نظريات تتناسب وآراءها، وقد عانت الثقافة الإسلامية من محاولات ابتزازية تكفلت في انسلاخ الموروث النبوي عن العقلية المسلمة وقدّمت صيغاً جديدة مبرمجة تفرض نظريات بديلة عن مدرسة النص النبوي.

وفي محاولتنا هذه سنلقي الأضواء على هذه الجهود وسنحاول مناقشة بعضها لاطلاع القارىء على صيغ القرصنة الثقافية الفكرية التي تعهدتها دوائر معينة لتقدم للأمة موروثاً نبوياً مشلولاً أو ذا ظلال باهتة هامشية.

المناقشة الأولى: ـ في علم علي عليه السلام:

اشترطت المدارس الإسلامية جميعاً أن يكون الخليفة بعد رسول اللّه (ص) عالماً وتنازلت بعضها إلى أن يكون على الأقل مجتهداً، تماشياً مع نظرتها السياسية والتزمت الإمامية أن يكون الخليفة أعلم أهل زمانه، وهو ما يوافق الوجدان العلمي الذي يقر للخليفة ما يقر لرسول اللّه (ص) من الطاعة ولزوم المتابعة على جميع الأمة دون استثناء، فإذا كان من هو أعلم من الخليفة في أمور الدين ومقتضيات

السياسة فلا طاعة للخليفة عليه حينئذ ولا اتباع بعد ذلك لأنه أعلم من الخليفة وأكمل وأتم وأحسن، وبذلك ستنخرم قاعدة وجوب مبايعة الأمة جميعاً للخليفة الشرعي بعد رسول اللّه (ص) فالعقل رافض لأن تكون الطاعة إلى الجاهل من قبل العالم، وللمفضول من قبل الفاضل عدا ما ذهبت إليه آراء الاستحسان متجاوزةً بذلك الوجدان.

وإذا تجاوزنا آراء بعض المدارس الكلامية والتزمنا بما يفرضه العقل من كونه الخليفة أعلم أهل زمانه، فبه تستقيم المصالح وتكتمل الأمور وتدار سياسة البلاد والعباد ويتم التبليغ لرسالات اللّه تعالى، عندئذ ستتحرى عن من هو أعلم وأفقه وأقضى من في الصحابة وستساعدنا بذلك النصوص الواردة في كتب الصحاح وكتب الحديث الأخرى.

ففي حديث عمرو بن هند عن علي أنه قال: كنت إذا سألت رسول اللّه (ص) أعطاني وإذا سكت ابتدأني[1]، صريح على أن مدرسة النبي (ص) كانت قد التزمت علياً منذ صباه، حيث كانت ملازمته للنبي (ص) ملازمة الولد لأبيه، فتح عينيه والنبي بعد لما يُبعث فلما بلغ الصبا كان قد بُعث (ص) فأسلم علي في اليوم الذي بُعث فيه (ص)، فكان أول من أسلم وأول من تفقه، وحريٌ برسول اللّه (ص) وقد بعث ليتمم مكارم الأخلاق أن يُرضع علياً بلبان النبوة، ويطعمه نفحات الوحي وقد اختص بها (ص)، فقد روى الترمذي عن ابن عباس قال: أول من صلى عليٌ وعن زيد بن أرقم قال: أول من أسلم عليٌ، ثم قال الترمذي أن علياً أسلم وهو غلام ابن ثمان سنين[2].

وبهذا كانت حياة علي قد ابتدأت في أحضان النبي وقد حرص (ص) على أن يُعلّم الأمة بما علمه اللّه تعالى فكيف بمن ترعرع عنده وربي في أحضانه؟ ومن

---

(١) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٤٢ .

(٢) سنن الترمذي ج ص ٦٤٢ .

ذلك نفهم ما قصده علي من قوله: إذا سألت رسول اللّه أعطاني وإذا سكت ابتدأني، فكانت حياته كلها مع النبي (ص) علماً يرفعه في كل يوم رتبة من الفضل ودرجة من العلم، وليس من الصحابة من حظي، وهو في سن كهذا كما حظي علي (ص) من أدب النبي وعلومه فصار أعلم المسلمين بعد النبي (ص) وقد شهدت له بذلك الصحابة طراً.

فقد روى الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد عن سلمان قال قلت يا رسول اللّه إن لكل نبي وصياً فمن وصيك؟ فسكت عني فلما كان بعد رآني فقال يا سلمان فأسرعت إليه قلت لبيك، قال تعلم من وصي موسى قلت نعم، يوشع بن نون قال لم؟ قلت: لأنه كان أعلمهم يومئذ قال: فإن وصيي وموضع سري وخير من أترك بعدي وينجز عدتي ويقضي ديني علي بن أبي طالب[١].

ثم روى الهيثمي أن النبي (ص) قال لفاطمة أما ترضين أن زوجتك أقدم أمتي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً. وعن ابن عباس قال: قال رسول اللّه (ص) أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأته من بابه[٢].

وروى النسائي في خصائصه عن أبي البختري عن علي قال: بعثني رسول اللّه (ص) إلى اليمن وأنا شاب حديث السن قال: فقلت يا رسول اللّه إنك تبعثني إلى قوم يكون بينهم أحداث وأنا شاب حديث السن؟ قال: إن اللّه سيهدي قلبك ويهدي لسانك، قال علي فما شككت في قضاء بين اثنين[٣].

وعن سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبداللّه قال كنت عند النبي (ص) فسئل عن علي فقال: قسمت الحكمة عشرة أجزاء، فأعطي علي

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمي وبتحرير الحافظين العراقي وابن حجر ج ٩ ص ١١٣ دار الكتاب العربي - بيروت طبعة ثانية ١٩٨٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) خصائص أمير المؤمنين للحافظ النسائي ص ٩١ طبعة أولى ١٩٨٣ تحقيق محمد باقر المحمودي.

تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً.

وعن أبي عون عن أبي صالح الحنفي عن علي رضي اللّه تعالى عنه، قال قلت: يا رسول اللّه أوصني. قال قل ربي اللّه ثم استقم. قال قلت اللّه ربي وما توفيقي إلاّ باللّه عليه توكلت وإليه أنيب. فقال: ليهنك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً.

وعن عبيدة عن شقيق عن عبداللّه بن مسعود قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما فيها حرف إلاّ له ظهر وبطن وإن عليّ بن أبي طالب عنده علم الظاهر والباطن.

وقد شهد بذلك الصحابة كما قدّمنا، فعن ابن عباس قال: قال عمر: علي أقضانا، وأبيّ أقرأنا. وعن أبي محمد القاسم بن محمد بن جعفر عن أبيه عبداللّه عن أبيه محمد عن أبيه عمر عن أبيه علي. قال: قال رسول اللّه (ص): يا علي إن اللّه أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعي، وأنزلت هذه الآية ﴿وتعيها أذن واعية﴾ فأنت أذن واعية. وعن أبي بكر بن عياش عن نصير بن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي قال: واللّه ما نزلت آية إلاّ وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً سؤولاً[1].

وعلى هذا فالخلافة في مدرسة النص النبوي تكملة للنبوة بجميع حقائقها ومنها التبليغ والهداية الإلهايتان اللتان لا تتمان إلاّ بكمال الصفات ومنها العلم الذي هو مظهر وحي السماء.

فالإنسان مجبول على طاعة من هو أعلم منه لكماله وعدم حاجته إلى الغير، والجاهل تنفر منه الطباع و تأباهُ النفوس لنقصه وحاجته إلى الغير، وكلما تكاملت صفة العلم استهوتها النفوس وذعنت لها الطبائع لاطمئنانها بأن العالم هو الاليق

---

(١) من حديث سفيان الثوري إلى ما رواه أبو بكر بن عياش مصدرها حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ج ١ ص ٦٥ إلى ص ٦٨ دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الرابعة ١٩٨٥م .

بوصول الأمة إلى درجات الكمال والأفضل في تبليغ رسالات اللّه ومن كان هذا حاله وجب على الأمة إطاعته والاذعان له ومتابعته، ومن ذلك انطلق النبي (ص) في ترتيب بنية الخلافة الإسلامية ومقتضياتها.

المناقشة الثانية: ـ في شجاعة علي ﷺ.

تتطلب خلافة النبي (ص) أن يكون الخليفة مظهراً من مظاهر القيادة النبوية التي تأخذ بالأمة إلى ما فيه عزتها وكرامتها كما كان رسول اللّه (ص) أثناء حياته حيث تعهد بنشر الإسلام وتبليغ الرسالة إلى أنحاء العالم بالفتوحات العسكرية المتواصلة وكان على خليفته أن يحذو حذوه، فيكون قائداً ميدانياً ينزل مع المسلمين إلى ساحات الوغى، وأن لا تكون قيادته تشريفية يدير المعارك من داخل بلاطه المكتظ بمطيبات الحياة ولذائذها.

والشجاعة في أعراف القيادة هي ملكة نفسانية تعني في بعض الأحيان كمال الادارة في تنفيذ الخطط واعدادها، وفي أحيان أخرى تعني مواجهة الصعاب بقلب راسخ ونفس ثابتة الجنان، وكلا المعنيين يجتمعان ليقدّما معنى الشجاعة والحزم والثبات، وليس الشجاعة هي مجرد القدرة الجسمانية على ابداء حركات يتم من خلالها قتل نفر من العدو فقط، بل هو انتزاع النصر بالخطط والمحافظة عليه للانتقال إلى مراحل أخرى من الفتح العسكري المبرمج ضمن خطة الخليفة الذي يتحرك على اساس منهجية الفتح الإسلامي والتوسعة التبليغية، وقد تظافرت جهود المشركين على محاولات الرد المعاكس والهجمات الفكرية المضادة، فكلما تقدّم الزمن احتاجت القيادة الإسلامية إلى الخلافة الإلهية لصد محاولات التيار المضاد واحباط عمليات الانقلاب الفكري الذي يكيد بالإسلام والمسلمين. ومن خلال النصوص النبوية نجد أن في علي بن أبي طالب تكاملت شخصية القيادة الإلهية، فالشجاعةُ وحدها غير كافية للوصول إلى الاستعدادِ والكمالِ الشخصي، بل امتازت شجاعته

بحسن التدبير والحنكة في التخطيط، وهي المواصفات التي دفعت النبي (ص) إلى أن يعقد الراية يوم خيبر، فقد كان الإسلام مهدداً في ذلك اليوم العصيب الذي تراجع فيه المسلمون عن اقتحام حصون العدو وكان النبي (ص) بين خيارين، إما ترك الأمور للمسلمين ليجرّب كلّ حظه في المنازلة، وهي عملية تستغرق الوقت الكافي لالتفاف المشركين على المسلمين وسحقهم، وإما أن يدعو علياً ليعقد الراية له وقد خَبِرهُ من مقاتل جلد لا تأخذه في الله لومة لائم؛ وسينازل العدو بما أوتي من شجاعة وحكمة حرب، ليفتح الله على يديه، وكانت تلك الحادثة اشارة واضحة إلى استحقاق علي لاهتمام النبي (ص) ولم يكن قد تعامل معه على أساس العاطفة أو القربى وفي المسلمين من بني هاشم وبني عبدالمطلب ما ينوف عددهم على سرية حرب، بل كانت حراجة الموقف يومذاك أن يختار النبي أمرس المسلمين في القتال وأجلاهم في ساحات الوغى؛ والمسلمون قد التفوا حول النبي (ص) وفيهم من شيوخ الصحابة وكبار المسلمين، فكان اختيار النبي لعلي وقد عقد له الراية ضمن برنامج قتالي محكم يديره النبي بإرادة السماء.

كان النبي (ص) قد عمل في خيبر بالأسلوب الاستشاري أولاً لئلا تكون للمسلمين الحجة عليه فيعتذر أحدهم مثلاًأن النبي قد تعدانا إلى علي ولو عرض علينا الراية لكنا أحق من علي بالفتح، فعن أبي سعيد الخدري قال: أخذ رسول الله (ص) الراية فهزها ثم قال من يأخذها بحقها فجاء الزبير فقال أنا فقال امض، ثم قال رجل آخر فقال أنا فقال امض ثم قال آخر فقال أنا فقال امض فقال رسول الله (ص) والذي أكرم وجه محمد لأعطينها رجلاً لا يفر، هاك يا علي فقبضها ثم انطلق حتى فتح الله عليه فدك وخيبر وجاء بعجوتها وقديدها[1].

وفي هذا الحديث نجد أن النبي (ص) قد عرض على أصحابه الراية واشترط أن يكون «الآخذ بحقها»، وهي اشارة إلى أن حق الراية هي اللياقة التي تؤهل

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ج ٩ ص ١٢٤ .

حاملها إلى الفتح والنصر العزيز، والظاهر من الحديث أن قدوم الزبير ورجلين آخرين على النبي (ص) استجابة لندائه ورد النبي (ص) بقوله: ((إمضِ)) يحتمل وجهين: الأول أن قوله ((إمض))، أي امضِ إلى النزال وقد رجع بعد ذلك ولم يفتح على يديه، ويحتمل أن يكون قوله امضِ بمعنى الرجوع أي ارجع فليس الراية لك وليس الفتح من شأنك، وهو بعيد لمنافاة ذلك مع أدب النبي (ص) وقد كان كريماً مع أصحابه يعاملهم بالحسنى والخلق الجميل، وليس ما يوجب ارجاع من لبى نداءه بعد دعوته وهي حجة ستكون لهؤلاء على النبي بأنهم استجابوا إليه ولم يعطهم الراية وقد حابى ابن عمه في ذلك، فبقي الاحتمال الأول أقرب إلى الوقوع وهو عدم قدرة الأصحاب على الفتح يومذاك وهو ما تؤيده رواية بريدة التالية:

روى النسائي عن عبدالله بن بريدة قال: سمعت أبا بريدة يقول: حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر فلم يفتح له، فأخذه من الغد عمر فانصرف ولم يفتح له وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد فقال رسول الله (ص) إني دافع لوائي غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله لا يرجع حتى يفتح له، قال بريدة وبتنا طيِّبة أنفسنا أن الفتح يكون غداً، فلما أصبح رسول الله (ص) الغداة ثم قام قائماً ودعا باللواء والناس على مصافهم فما منا إنسان له منزلة عند رسول الله (ص) إلاَ وهو يرجو أن يكون صاحب اللواء فدعا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أرمد فتفل في عينيه ومسح عينيه فدفع إليه اللواء وفتح الله عليه. قال بريدة وأنا ممن تطاول لها[1].

لقد استعمل النبي (ص) الأسلوب التجريبي في محاولة الفتح هذه ليترك للمسلمين خيار المنازلة أو التأخير، فلما استتم الأمر وقد أصاب الناس الجهد والشدة كما في تعبير الحديث؛ خشي رسول الله من التأخير أكثر من ذلك حيث تواكل المسلمون كلّ على الآخر وقد تزعزع المسلمون عند ذاك فبادر النبي (ص) إلى

---

(١) خصائص أمير المؤمنين للنسائي الشافعي ص ٥٦ .

محاولته الأخيرة فعقد الراية لعلي بن أبي طالب وكان ذلك اليوم تتويجاً لعلي بالامارة حيث اعترف الخليفة الثاني بأني ما أحببت الامارة إلاّ يومئذ، فلو لم تكن امارة في مفهوم المسلمين لما كان عمر أن ينوّه إلى حبه لهذه الامارة إلاّ في هذا اليوم العصيب؛ وكان ذلك من أوضح مصاديق اللياقة لخلافة النبي (ص) وقد تطاول الناس لعلي وهو يفتح حصون خيبر فارتكز في أذهانهم منذ ذلك اليوم أنه أفضل القوم وأكملهم.

المناقشة الثالثة: في زهد علي ﷺ:

حرص النبي (ص) أن يكون خليفته أزهد أهل زمانه، فالخلافة في نظره الشريف هي مهمة تربوية يتولى بها الخليفة تربية الأمة وتأديبها بالخلق الإسلامي الذي حث عليه وارتضاه لأمته، ولما كان خلقه (ص) الزهد والترفع عن مترفات الحياة ولذائذها كان على خليفته أن يكون مثله وأن يسلك مسلكه، ولما كان علي بن ابي طالب قد تأدب بأدب النبي وترعرع في ساحته المقدسة حذى حذو الرسول (ص) في جشوبة العيش وشظف الحياة فكان (ص) يعيش حياة أضعف المسلمين ويسلك سلوك أحوجهم كذا كان علي بن أبي طالب منتهجاً نهج الرسول في مشاركة المستضعفين حياتهم منذ ملازمته النبي (ص) حيث روّض نفسه أن تقنع بما قسم اللّه تعالى لها من الرزق ولا تزيغ نفسه إلى غير حقه وقد تَرجَم ذلك عند خلافته فنقلت الأخبار زهده وترفعه عن غير حقه.

ففي رواية البخاري أن علياً اضطجع في المسجد وقد سقط ردائه وخلص التراب إلى ظهره، هو مصداق من مصاديق سلوكيته في حياته البسيطة حيث رضي أن يفترش التراب وهو ابن عم رسول اللّه وصهره على ابنته دليل على ترفعه عن الدنيا، وقد تعلّم من رسول اللّه (ص) حياة الزهد والتواضع. إن انتهاج علي لهذا المنحى من الحياة كان الأوفق بقدسية الخلافة والأليق بمهمة القيادة فخليفة رسول اللّه (ص) تجبى إليه الأموال من شرق الأرض وغربها ثم يعد نفسه واحداً من المسلمين

يأخذ حصته كأحدهم ويحتاج كما يحتاج الضعفة من المسلمين وينتظر عطاءه من بيت المال كما ينتظر المسلمون عطاءهم، والأمة إذا نظرت إلى خليفتها وقد سلك حياة الضعفة من الناس فإنها ستقنع بما أتاها اللّه من الرزق ولا تحيد عندئذ إلى الاعتداء على حقوق الغير لرضاها بحياتها البسيطة المتواضعة، وهذه دروس أخلاقية استفادتها الأمة من خليفتها خصوصاً ذوي الحاجة منهم وهم يرون خليفة رسول اللّه يقنع بحياة أضعفهم، فلم يستأثر بأموالهم ولن يستولي على عطائهم، وقد نظمت الأمة مواردها الاقتصادية على ضوء ما سلكه الخليفة من توزيع العطاء على الرعية بالتساوي فلا اعتداء ولا ابتزاز ولا حالات اختلاس تتوق النفوس المريضة إلى ارتكابها، فما الداعي إلى ذلك وقد رأت خليفتها وهو يعيش حياتها ويسلك سلوكها؟.

فعن علي بن ربيعة عن علي بن أبي طالب قال: جاءه ابن النباح فقال يا أمير المؤمنين امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء فقال: اللّه أكبر فقام متوكئاً على ابن النباح حتى قام على بيت مال المسلمين فقال:

هـــذا جناي وخياره فيه   وكـــل جان يده إلى فيه

يا ابن النباح عليَّ بأشياع الكوفة، فنودي في الناس فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غري غيري ها وها. حتى ما بقي منه دينار ولا درهم ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين(١).

وعن أبي عمرو بن العلاء عن أبيه أن علي بن أبي طالب خطب الناس فقال: واللّه الذي لا إله إلاّ هو ما رزأت من فيئكم إلاّ هذه، وأخرج قارورة من كم قميصه فقال أهداها إليّ مولاي دهقان(٢).

وعن سفيان الثوري عن عمرو بن قيس قال: قيل لعلي يا أمير المؤمنين لم

---

(١) حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم الأصفهاني ج ١ ص ٨١ و ما بعدها .

(٢) المصدر نفسه .

ترقع قميصك؟ قال يخشع القلب ويقتدي به المؤمن[١].

وعن علي بن الأرقم عن أبيه، قال: رأيت علياً وهو يبيع سيفاً لـه في السوق ويقول من يشتري مني هذا السيف، فوالذي خلق الحبة لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول اللّه (ص) ولو كان عندي ثمن ازار ما بعته[٢].

هذه سلوكية الخليفة الإلهي يشارك الأمة في معاناتها وليكون كأحدها يلقنها دروس الحياة والترفع عما يشين، ويأخذ بها إلى معارج السعادة ومراقي الكمال.

إن حالات الانحراف الأخلاقي وعمليات السلب والسطو المسلح لن تنطلق من ذات الإنسان المنحرف وحده بل تشارك في ذلك عدة عوامل قبلية تُهيأه لسلوك هذا المسلك، فسلوك الافراد ناشىء من البيئة التي فرض عليه هذا السلوك وطبيعي أن مؤثرات البيئة ومقومات وجودها ينشأ من سلوكية القيادة نفسها، فلما كان الحاكم نفسه قد استأثر بحقوِ الأمة وقد حرمت طبقة عريضة واسعة من الناس عن حقوقها دفعتها الحاجة إلى سلوكية الانحراف والشذوذ وذلك للحصول على حياة إن لم تكن كبذخ الحاكم فعلى الأقل تستجيب لمتطلبات الشهوة وحياة الترف والعبث التي تميل إليه النفس وقد رأت من حاكمها يسلك لذائذ الحياة ومطيّبات العيش، ويرى المنحرف نفسه ومن حوله عياله مقبوضي اليد عن حقوقهم، فتدفعه نفسه الأمّارة إلى ارتكاب كل محظور وسلوك كل مسلك لغرض الحصول على حياته الخاصة تماشياً مع النظام الحاكم.

الا ترى أن المجتمع الأموي والعباسي من بعده قد سلك سلوك خلفائه من حياة خاصة والى ذلك أشار صاحب الفخري في الآداب السلطانية، أن الوليد كان شديد الكلف بالعمارات والابنية واتخاذ المصانع والضياع وكان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الابنية والعمارات، وكان أخوه سليمان يحب الطعام

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

والنكاح فكان الناس إذا تلاقوا في أيامه سأل بعضهم بعضاً عن الطعام والنكاح. وكان عمر بن عبدالعزيز صاحب عبادة وتلاوة فكان الناس إذا تلاقوا في أيامه سأل بعضهم بعضاً: ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ وكم تقوم من الشهر(١). أي أن الناس يعكسون الحالة العامة والخاصة للخليفة فيتدينون بها، والناس على دين ملوكهم كما يقال.

لذا فقد سجلت عمليات السطو المسلح وتشكيلات قطاع الطرق أرقاماً قياسية في فترتي الحكمين الأموي والعباسي، وذلك إما لحاجة الناس إلى سد رمقهم حتى لم يحصلوا عليه إلاّ بهذه الوسائل وقد تكدست مجاميع الشحاذين في شوارع المدن وعلى جوانب الطرقات، وإما اختيار البعض للحاية الخاصة اقتداءً بحاكمها فترتكب السلوك المنحرف للوصول إلى ما تتوق إليه النفس.

لذا فقد كان المجتمع الكوفي ابّان فترة حكم الإمام، مجتمعاً هادئاً كيّساً، لم تسجل فيه حالات الاعتداء والعبث إلاّ ما ندر، وذلك لاقتداء الأمة بخليفتها وقد ترفَع عن كل عيب وسما عن كل نقص.

المناقشة الرابعة: ـ في خصائص علي عليه السلام:

نوّه النبي (ص) على فضل علي وموضعه منه، وصرّحَ بأن علياً منه وهو من علي، وهي المعادلة الخطيرة التي قدّمها النبي لأمته ورجا أن تأخذ بها وتعمل على أساسها، وقد أولى النبي عناية فائقة في اختيار اللفظ الذي يعبّر عن حجم العلاقة بينهما ثم هو يوضح عن مكنون ما انطوت عليه نفسه الشريفة وما أثمرته سني الملازمة وقد ترعرع علي بين رعايته لـه وبين حب خديجة إياه وقد أولاه اهتماماً وكانت حصيلته ذوبان علي في نفس النبي.

كانت لشخصية علي أبعاداً لم يدركها سوى النبي، وكانت لشخصية النبي

---

(١) الفخري في الاداب السلطانية ١٢٧ مكتبة الثقافة العربية القاهرة.

معان لم يدركها غير علي، وقد أعطت هذه العلاقة المتبادلة في المعرفة بعداً أعمق من انصهار شخصية علي؛ حتى فني عليٌ في النبي ليحوز على أحادية الذات المقدسة النبوية.

لقد عبّر النبي (ص) عن علاقته بعلي بأنها وحدة الفيض الصادر عن الحق تعالى اتماماً لكلمة الرسالة التي جعلها فيه (ص) حتى قال: أنا وعلي من شجرة واحدة وسائر الناس من أشجار شتى[١].

ولعل الشجرة التي أشار إليها رسول اللّه (ص) هي الفيض الإلهي الذي خلق اللّه منه النبوة وأوجد به الإمامة، فكانت النبوة والإمامة من شجرة واحدة.

إن التبعيضية التي أشار إليها النبي، بأن عليّا منه وهو من علي قد ترتبت عليها أمور شاركت في ترتيب بنية الخلافة الإلهية، حيث أشار (ص) إلى أن الذي يبلّغ عنه علي، وقد أكدها بقوله الذي رواه حبشي بن جنادة أنه قال: علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلاّ أنا وعلي[٢]. كان حديث النبي هذا وأمثاله معززاً بقوله تعالى: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾. الآية[٣].

فقد ساهم القرآن الكريم في وصف العلاقة الروحية التي تميزت بها شخصية النبي الأكرم وشخصية علي، حتى جعلها نفساً واحدة، فقوله وأنفسنا إشارة إلي علي بن أبي طالب كما روى ذلك ابن كثير في تفسيره عن جابر قال: وفيهم نزلت - أي أهل الكساء النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين - (فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم)قال جابر: أنفسنا وأنفسكم: رسول

---

(١) كنز العمال ج ١١ ص ٦٠٣ مؤسسة الرسالة ١٩٧٩ م .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) آل عمران ٦١ .

اللّه (ص)[١] وعلي بن أبي طالب ﷺ. ووافقه جمهور المفسرين من أن نفس علي هي نفس النبي وقد ذهب إليه البغوي في تفسيره فراجع[٢].

المناقشة الخامسة: ـ حب علي إيمان وبغضه نفاق ـ

وضع الإسلام مقاييس للمسلم يستطيع أن يعرف مدى ما وصل إليه إيمانه وتقواه، وعلى ضوء ذلك يستطيع تصحيح مسيرته الإيمانية على أساس الانضباطية التي حددها القرآن وأشار إليها النبي (ص). كان حب علي ـ كما ورد في الحديث الشريف ـ علامة دالةً على إيمان المرء، وبغضه علامة على نفاقة وقد مثلّت شخصية علي أرقى نموذجية في الانقطاع إلى اللّه تعالى، والذوبان في طاعته، ويمكن القول إن شخصية علي كانت مكسباً إسلامياً مهما حصل عليه المسلم لتصحيح مسيرته الحياتية، فعلى ضوء سلوك علي يمكن للمسلم تهذيب نوازعه الإنسانية إضافة إلى بناء شخصيته الإسلامية، وذلك بمحاسبة نفسه ومقارنة سلوكه وتهذيبه بالقياس إلى سلوكية علي ومنهجه الحياتي، لذا كان النبي (ص) يشير في حديثه إلى أن المؤمن لا يؤمن حتى يتخذ موقفاً خاصاً من علي بن أبي طالب، فالحب والولاء والمودة لعلي هي الخطوط البيانية التصاعدية التي تشير إلى الحالة السليمة لإيمان المؤمن، وعلى عكس ذلك فإن البغض والعداء هي الخطوط التنازلية للدالة التي تشير إلى نفاق المرء، وهكذا يستطيع المرء فضلاً عن المجتمع الإسلامي معرفة الحالات التصاعدية لصفتي الإيمان والنفاق لدى الأشخاص وذلك عن طريق اتخاذ المواقف الخاصة التي تشير إلى حب أو بغض علي.

إن الذي أوصل علياً إلى هذه المرتبة هو تمام الانقطاع إلى اللّه تعالى وكمال طاعته، لذا فإن حب علي يمثل تقدماً جيداً قد وصل إليه المرء في إيمانه باللّه، لأن من

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧١ دار المعرفة بيروت .

(٢) تفسير البغوي ج ١ ص ٣١٠ للفراء البغوي الشافعي . دار المعرفة بيروت .

أحب اللّه وذاب في طاعته وأخلص في عبوديته حريٌ به أن يكون مقياساً لسلامة العلاقة بين الفرد وبين ربه وفي الوقت نفسه فقد مثّل بغضُ علي خطأ تراجعياً لدى المرء وحالة انهزامية في طاعته للّه، لأن علياً مظهرٌ من مظاهر العبودية للّه ومن أحب اللّه فقد أحب مظهر عبوديته وكمال طاعته، وإلى ذلك أشار النبي (ص) إلى أن حب علي هي الحالة الصحيّة التي يقاس على أساسها سلامة إيمان المرء ومعرفة نفاقة.

إننا نستخلص من هذا الحديث، أنا علياً حاز مرتبةً كما حازها النبي (ص) فإن حب النبي دليل على سلامة إيمان المرء، وبغضه علامة على نفاقه، وهكذا تتبادل العلاقة بين الأمة وبين نبيها على ضوء حبها له أو بغضها إياه، كما في حب علي تماماً يعرف إيمان المرء من نفاقه، ومن ذلك أيضاً تعرف الأمة خليفة نبيها الذي صار حبه إيمان وبغضه نفاق.

المناقشة السادسة: ـ في أن علياً الصدّيق الأكبر

تتوجت سني الصبا التي قضاها علي بن أبي طالب مع النبي (ص)، أن تلتحم روحية علي عليه السلام بروحية النبي (ص)، وذلك بعد أن تربى في بيت النبي (ص) وترعرع في ساحته المقدسة وطبيعي أن المقصود من التربية هذه ليست هي المصطلح المتعارف الذي يعني أن علياً قضى صباه مع النبي وقد تولى رعايته كما يتولى الأب رعاية ولده فحسب، بل التربية النبوية لعلي كانت من نوع آخر، وهو الانصهار في ذاته ووحدة كيانه، فكان علي قد ذاب في النبي ذوبان روح، وانصهار نفس، لذا جاءت نتائج هذا الاتحاد الروحي مبكرة جداً، فقد تلقي النبي (ص) رسالة ربه وعليّ إلى جانبه صدّقه وهو في سبع من السنين يدرج على وحي السماء، وقد كان ابن عمه، كفيله وحبيبه يناجي ربه، ويتضرع إليه فصدّقة عليّ فيما أوحى إليه، وكيف لا وقد وُلِدَ عليّ على فطرة التوحيد وروح العبودية للّه تعالى والناس بعد لم يؤمنوا

ما خلا خديجة أسلمت وهي أول النساء وعلي يومذاك غلام قد ناهز الحلم يصلُ جناح ابن عمه عند صلاته وخديجة من خلفهم يعبدون اللّه على سر، كان علي الصديق الأكبر، صدّقة حين كذّبه الناس وآزره حين خذله الناس وصلّى معه والناس يعكفون على أصنامهم فكرّم اللّه وجهه عن عبادة صنم؛ وطهّر نفسه عن مقارفة الجاهلية بأرجاسها.

لقد امتاز علي بطهارة النفس منذ صغره؛ وقد ارتضع من خلق النبي ما جعلهُ قمينا برعايته حيث ترعرع والناس تغمرهم أدران الجاهلية، وهو تقدسهُ نفحاتُ أنفاس النبي الكريم فلم ينثن لصنم ولم يرتكب ما يدّنسه من قبيح فصار حقاً، غرسٌ نبويٌ كريم اختاره اللّه لخلافة الرسالة ومهمة الهداية في دور الإمامة.

عن أبي ذر وسلمان قالا أخذ النبي (ص) بيد علي فقال إن هذا أول من آمن بي وهذا أول من يصافحني يوم القيامة وهذا الصديق الأكبر وهذا فاروق هذه الأمة يفرّق بين الحق والباطل وهذا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الظالمين[1].

وعن عفيف الكندي قال كنت أمرأ تاجراً فقدمت مكة فأتيت العباس بن عبدالمطلب لأبايع منه بعض التجارة وكان امرأ تاجراً قال فواللّه إني لعنده بمنى إذ خرج رجل من خباء قريب منه إذ نظر إلى السماء فلما رآها مالت قام يصلي، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج ذلك الرجل منه فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام حين ناهز الحلم من ذلك الخباء فقام معه يصلي، قال فقلت للعباس يا عباس ما هذا؟ قال هذا محمد بن أخي عبداللّه بن عبدالمطلب، قال قلت من هذه المرأة قال هذه امرأته خديجة ابنة خويلد قال فقلت من هذا الفتى قال هذا علي بن أبي طالب ابن عمه، قال قلت فما هذا يصنع قال يصلي وهو يزعم أنه نبي ولم يتبعه على أمره إلاّ امرأته وابن عمه هذا الفتى وهو يزعم أنه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر، قال فكان عفيف وهو ابن عم الأشعث بن قيس، يقول وأسلم بعد فحسن

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج ٩ ص ١٠٣ .

إسلامه لو كان اللّه رزقني الإسلام يومئذ فأكون ثانياً مع علي بن أبي طالب[١].

وفي كنز العمال عن النبي (ص): إن الملائكة صلت عليَّ وعلى عليٍّ سبع سنين قبل أن يسلم بشر[٢] وعن النبي (ص): أول من صلّى معي علي[٣].

وعن ابن عمر عن النبي (ص): لو أن السماوات والأرض موضوعتان في كفة، وإيمان علي في كفة، لرجح إيمان علي[٤]. وعن معاذ عن النبي (ص): يا علي أخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي وتختصم بسبع ولا يحاجك فيه أحدٌ من قريش: أنت أولهم إيماناً باللّه، وأوفاهم بعهده اللّه، وأقومهم بأمر اللّه، وأقسمهم بالسوية، وأعدلهم في الرعية، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند اللّه مزية[٥]وهكذا كان عليٌّ غرساً نبوياً، أينع مبكراً بتصديقه إياه، وأثمر بنصرته له، وهو يخلفه في رسالته إماماً مرشداً وهادياً ووزيراً.

المناقشة السابعة: ـ في مناجاة النبي لعلي...

قال الراغب في مفرداته: وناجيته أي ساررته وأصله أن تخلو به في نجوة من الأرض، وقيل أن أصله من النجاة وهو أن تعاونه على ما فيه خلاصه. أو أن تنجو بسرك من أن يطلع عليك[٦].

وقد ظهر منه القاء السر، وقد خص رسول اللّه (ص) بسرِّه علياً، حيث استخلصه لنفسه يلقي إليه من أسراره ما ضنهُ على أحد من أصحابه، فهو يناجيه سراً وتارة على مرأى من الصحابة.

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) كنز العمال ج ١١ ص ٦١٦ - ٦١٧ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) كنز العمال ج ١١ ص ٦١٦ - ٦١٧ .

(٦) مفردات الراغب الأصفهاني ص ٤٨٤ .

لقد كانت التحضيرات النبوية التي اكتنفت علياً منذ صباه تهدف إلى تهيئة المناخ الرسالي المبكر لتلك الشخصية التي ستتحمل أعباء الرسالة عندما يعز اللقاء بين النبي ووصيه، تقتضي اجراء ما يلزم من تهيئة الأجواء الحافلة لايجاد الشخصية الإليهة لاستحقاق منصب الخلافة، كما أنه في الوقت نفسه كانت التحضيرات النبوية تختار من الوقائع ما تحتفظ بها ذاكرة الأمة، وتنتقي من الأساليب ما تتكفل للتعبير عن هذا الغرض أو ذاك، بل لا تسمح أن تحتمل هذه الاشارات النبوية بدائل أخرى يمكن أن تحل بدل المعنى الذي أراده (ص) حيث كان النبي (ص) قد أحكم خططه بما يتناسب وخطورة المهمة فقد هداه اللّه بما يعزز به حجته ويقتضي سطوع برهانه. إن المناجاة التي استخدمها رسول اللّه (ص) هي الخلوات التي يحتاجها أي إنسان أن يخلو مع من يحب وتهدأ إليه نفسه، وكان (ص) يلقي بهموم ذلك إليوم المضني الذي شهد فيه صراع الرسالة مع مشركي قريش أو منافقي الصحابة، فإذا أنهكته ملاحات أعدائه ودسائس المنافقين، ألقى بآلامه حيث تطمئن إليه نفسه الشريفة ويسكن إليه قلبه المهموم، فيفترش الأرض، والليل قد ألقى سدوله، ليناجي ابن عمه وحبيبه علي بن أبي طالب، فهو الذي عرف كيف يزيح عن قلبه ما أضناه، كما كان يكشف عن وجهه الكرب وهو في ساحات الوغى.

كانت المناجاة ملحمة خالدة صامتة تعني الشيء الكثير الذي عرفه الأصحاب، والأشياء الأكثر التي خفيت حيث لا يعلمها إلاّ اللّه.

والمناجاة، أن يختلي الإنسان مع من يريد بعيداً عن أنظار الآخرين، لكن النبي (ص) حرص أن تكون بعض مناجاته أمام أعين الصحابة وفي غير مسمع منهم، فإذا اطلعوا عليه قال المرجفون ما يتحسبه منهم في علي، ويسمعوا ما اعتادوا منه في علي، فيقابل ما أرجفوه بقوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى﴾.

إنه المهمة الصعبة التي كان يلقيها رسول اللّه (ص) إلى ابن عمه فيستقبلها،

إنما هي انعكاس لما أراده اللّه تعالى أن يُلقى، فهي معادلة فريدة اذن، فالاستعداد طرفها الكبير، والالقاء طرفها الأكبر، معادلة لا يعرف أسرارها ولا يدرك أطرافها إلاّ من امتحن اللّه قلبه بالإيمان.

قالت أم سلمة والذي أحلف به أن كان علي لأقرب الناس عهداً برسول اللّه (ص)، قالت عدنا رسول اللّه (ص) غداة بعد غداة يقول جاء علي مراراً، قالت وأظنه كان بعثه في حاجة، قالت فجاء بعد فظننت أن له حاجة فخرجنا من البيت فقعدنا عند البيت وكنت من أدناهم إلى الباب فأكب عليه علي فجعل يسارّه ويناجيه ثم قبض (ص) من يومه ذلك، وكان أقرب الناس به عهداً[1].

المناقشة الثامنة: ـ سد النبي جميع الأبواب إلاّ باب علي ـ

عمد النبي (ص) إلى التنويه عن فضل علي في كل مناسبة، وكان تحركه (ص) ضمن الخطة الإلهية لإيجاد الخلافة الشرعية بعده، ولم يئلُ رسول اللّه جهداً في اظهار فضل خليفته وقد أمره اللّه، إلقاءً لحجته على العباد لتكون الحجة للّه على الناس.

تدخلت إرادة السماء في بناء شخصية الخليفة الشرعي الذي سيخلف رسول اللّه، فقد حثّت المسلمين على متابعة ما يلقيه رسول اللّه وما يأمره به وهو في محافل المسلمين ونواديهم ليسجلوا ذلك في أذهانهم ويثبتوه في ذاكرتهم، وقد ارتسمت في نفوسهم شخصية ذلك الخليفة القادم بعد غياب شخص النبي، لذا كانت حياة علي حافلة بمكارم اللّه ورعاية رسوله، والنبي ينتظر أوامر السماء في تسديد خليفته وتأييده، وإلاّ ما الذي يعني أمر النبي (ص) أن يُسد جميع الأبواب إلاّ باب علي، وقد اعتاد المسلمون من وجوه الصحابة أن يستدلوا على قربهم للنبي بفتح أبوابهم

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ج ٩ ص ١١٢ .

على مسجده، وهي خصوصية لن ينالها إلاَ ذوي المنزلة من الصحابة وأهل القرب كما تصوره بعض المسلمين، وإذا بهم يفاجؤون والنبي يعلن: أن سدّوا أبوابكم إلاَ بابي وباب علي، وهي عملية ارتجت لها المدينة يومذاك وأخذت مأخذها من نفوس الصحابة ووَجَدَ على النبي غير قليل من أهله وأصحابه وهم يرون النبي قد خص علياً بابقاء بابه، والنبي أضناه ما رماه المرجفون المنافقون، وأحزنه ما وجد عليه أهله وأصحابه، وصارت المدينة تضطرب بأهلها والمسجد يموج بمن فيه وقد فقد جيرانه خصوصية أكرمها النبي لهم، وهم يومئذ يفاخرون المسلمين لذلك، والنزعة القبيلة لا زالت بَعدُ تأخذ مأخذها من نفوسهم، والحسب والشرف لا يزالان يرهقان الأمة بالتكالب على أن تجد ما يميز أبناءها ليتفاضلون فيما بينهم، أيهم قد تشرف في الأمر الفلاني، فكيف بمن يخصه النبي على عامة المسلمين ليفتح بابه على مسجده الكريم؟ لذا فإنك تجد أبواب هؤلاء الصحابة مشرعة على المسجد وهم يمتلئون عزاً وينتفخون فخراً، وقد حظوا بشرف الإشراف على مسجد رسول اللّه، والنبي في ذلك اليوم المشهود يرتقي المنبر ليأمر أصحابه بسد أبوابهم إلاَ باب علي، والمسجد يومئذ يغص بالصحابة، فتشرأب الأعناق إلى علي، ويرمون الآخرين بنظراتهم المتسائلة، وفي ذلك اليوم المشهود أحسّ النبي ما أصاب أصحابه من جهد وشدّة، وهم ينفذون أمره بغلق أبوابهم، ثم ينظرون إلى علي قد احتفظ بما خصه النبي به، وحمزة عمه تذرفان عيناه وهي يقول، أخرجت عمك وأسكنت ابن عمك، وقد كان يوم عظيم قد شق على المسلمين فيه أمر النبي، حتى اضطر أن يخاطبهم: إني لم أسد أبوابكم وما أنا أخرجتكم ثم أسكنت علياً، إنما اللّه أمرني بذلك، نعم، فلولا أمر اللّه وإرادته ذلك، لما أثار صاحب الخلق العظيم حفيظة أهله ومعرّةُ أصحابه.

أخرج ابن مردويه عن أبي الحمراء وحبه العرني قالا: أمر رسول اللّه (ص) أن تسد الأبواب التي في المسجد، فشق عليهم، قال حبة إني لأنظر إلى حمزة بن عبدالمطب وهو تحت قطيفة حمراء وعيناه تذرفان وهو يقول أخرجت عمك وأبا

بكر وعمر والعباس وأسكنت ابن عمك فقال رجل يومئذ ما يألو يرفع ابن عمه، قال فعلم رسول اللّه (ص) أنه قد شق عليهم فدعا الصلاة جامعة فلما اجتمعوا، صعد المنبر فلم يسمع لرسول اللّه (ص) خطبة قط كان أبلغ منها تمجيداً وتوحيداً، فلما فرغ قال يا أيها الناس ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسكنته ثم قرأ ﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى﴾[1].

ولا يخفى أن الذين فتحوا أبوابهم على المسجد هم ثلةٌ منتخبة من وجوه الصحابة وشيوخها وكانت الحكمة قد اقتضت فتح أبوابهم على مسجد رسول اللّه ثم سدها بعد حين ليعرف كل امرىء قدر نفسه. فرحم اللّه من عرف قدر نفسه، هذا وسأزيدك عن هذه الملحمة النبوية، ما يظهر لك حراجة الموقف وكرامة علي وتقديمه على غيره، وكيف كان رسول اللّه (ص) يتدارك ما تركته هذا الواقعة من أثر في نفوس المسلمين.

عن زيد بن أرقم قال كان لنفر من أصحاب رسول اللّه (ص) أبواب شارعة في المسجد قال، فقال يوماً سدّوا هذه الأبواب إلاّ باب علي، قال فتكلم أناس في ذلك، قال فقام رسول اللّه (ص) فحمد اللّه وأثني عليه وقال: أما بعد فإني أمرت بسد هذه الأبواب إلاّ باب علي، فقال فيه قائلكم وإني واللّه ما سددت شيئاً ولا فتحته ولكني أمرت بشيء تبعته[2].

وعن عبداللّه بن الرقيم الكتاني قال خرجنا إلى المدينة زمن الجمل فلقينا سعد بن مالك بها فقال أمر رسول اللّه (ص) بسد الأبواب الشارعة في المسجد وترك باب علي، رواه أحمد وأبو يعلى والبزاز الطبراني في الأوسط وزاد؛ قالوا يا رسول اللّه

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ج ٦ ص ١٢٢ المكتبة الإسلامية ـ طهران .

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ح ٩ ص ١١٤ ـ ١١٥ .

سددت أبوابنا كلها إلاّ باب علي قال ما أنا سددت أبوابكم ولكن اللّه سدها[1].

وعن علي بن أبي طالب قال أخذ رسول اللّه (ص) بيدي فقال أن موسى سأل ربه أن يظهر مسجده بهارون وإني سألت ربي يظهر مسجدي بك وبذريتك، ثم أرسل إلى أبي بكر أن سد بابك فاسترجع ثم قال سمعاً وطاعة فسد بابه ثم أرسل إلى عمر ثم أرسل الى العباس بمثل ذلك ثم قال رسول اللّه (ص)، ما أنا سددت أبوابكم وفتحت باب علي ولكن اللّه فتح باب علي وسد أبوابكم.

وعن علي قال: قال رسول اللّه (ص) انطلق فمرهم فليسدوا أبوابهم فانطلقت فقلت لهم ففعلوا إلاّ حمزة فقلت يا رسول اللّه قد فعلوا إلاّ حمزة فقال رسول اللّه (ص) قل لحمزة فليحول بابهُ؛ فقلت إن رسول اللّه (ص) يأمرك أن تحول بابك؛ فحوله فرجعت إليه وهو قائم يصلي فقال ارجع إلى بيتك[2].

وعن العلاء بن العرار قال سئل ابن عمر عن علي وعثمان فقال أما علي فلا تسألوا عنه انظروا إلى منزله من رسول اللّه (ص) فإنه سد أبوابنا في المسجد وأقرَّ بابه، وأما عثمان فإنه أذنب يوم التقى الجمعان ذنباً عظيماً فعفا اللّه عنه، وأذنب فيكم ذنباً دون ذلك فقتلتموه.

وعن ابن عباس قال لما أخرج أهل المسجد وترك علياً قال الناس في ذلك؛ فبلغ النبي (ص) فقال: ما أنا أخرجتكم من قبل نفسي ولا أنا تركته ولكن اللّه أخرجكم وتركه، إنما أنا عبدٌ مأمور ما أؤمر به فعلت إن اتبع إلاّ ما يوحى إلي[3].

المناقشة التاسعة: ـ كان علي يستطرق جنباً في المسجد ـ

منعت الشريعة المقدسة المسلمين من المكوث في المساجد أو الاستطراق فيها على غير طهارة، وهي من مقتضيات تقديسها وتشريفها على سائر الأمكنة، وكانت

---

(١) المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

لطهارة المسجد أثر قد ارتكز في نفوس المسلمين، لذا فلا يحل لأحد أن يمكث أو يستطرق في المسجد وهو جنب؛ حيث أمرتهم تعاليمهم بذلك وفرضت عليهم أدبياتهم، هذا دأبهم وهذه قواعدهم، وكل استثناء عن هذه القاعدة أو تخلف عن هذا الشرط لابد أن يكون ناشئاً عن حيثيات قد اختص بها اللّه تعالى مورد الاستثناء وشخص ذلك المستثنى، فمثلاً ورد في الشريعة المقدسة استحباب الإتيان بأمور إن تركها المكلف لا يعاقب وإن عمل بها يثاب، وكان مورد هذه الأعمال وجوباً في حق النبي (ص) دون استحبابها، كما في صلاة الليل، والأضحية والسواك؛ كل هذه مستحبات احبت الشريعة اتيانها ومن تخلف عنها لا يعاقب، وأوجبت على النبي (ص) اتيانها والقيام بها، وكذا انقلاب الحرام إلى اباحة، فما حرم من زواج أكثر من أربع جاز في حقه (ص) أن يتزوج بأكثر من ذلك؛ إلى غير ذلك من الأحكام الإلهية حيث تنقلب من حالة إلى أخرى تبعاً للحكمة التي لا يعلمها إلاّ خالقها؛ ولا شك أن استثناء النبي الأكرم (ص) بهذا دون سائر المسلمين إنما هو لخصوصية خصها اللّه تعالى نبيه تشريفاً له وتكريما لمقامه الكريم، اذن فكل ما استثنى من عنوان أو معنون ورد في حكم اللّه تعالى كان لذلك العنوان أو المعنون خصوصية تشريفية، وميزة تكريمية على سائر الأحكام أو باقي المكلفين، ألاترى خصوصيات النبي (ص) على باقي المكلفين، حتى عم أزواجه بأنهن أمهات المؤمنين، وآل بيته الأكرمين قد أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً؟ وللعموم فان التطهير من الرجس يعم كلا المعنيين، المعنوي كالشرك ومادونه وهو دليل عصمتهم ﷺ، والظاهري الذي يعني تنزيههم من كل قذارة ظاهرية. فلا غرابة والحال هذه أن يختص علي بخصوصيات ترفع من شأنه وتزيد من مقامه إمّا لنبيه لأنه خليفته، أو تشريفا له وهو الخليفة القادم والإمام المطاع بأمر ربه.

فعن أبي هريرة قال: قال عمر بن الخطاب لقد أعطي علي بن أبي طالب ثلاث خصال لأن تكون لي خصلة منها أحب إلي من أن أعطي حمرالنعم، قيل وما

هي قال تزوجه فاطمة بنت رسول اللّه (ص)، وسكناه المسجد مع رسول اللّه يحل له فيه ما يحل له، والراية يوم خيبر(١).

لقد كان هذا الاحساس لدى عمر كباقي المسلمين يحرّك في ذاكرتهم فضائل علي وقربه يوم كان النبي (ص) ينوّه عن عظيم منزلته ويشير إلى خلافته سراً وعلانية.

المناقشة العاشرة: ـ في حديث المؤاخاة

حرص النبي (ص) على ترتيب البنية الاجتماعية والإسلامية إبّان عهده المبكر للبعثة فعمِدَ إلى اتباع أسلوب التآخي بين المسلمين ليجعل في نفوسهم ما يضمن الاخاء والتفاني فيما بينهم، وليمتّن أواصر الاخوة الإسلامية فيما بين المسلمين وذلك بالعمل على تركيز النزعة الإنسانية لدى الجماعة الإسلامية وتمتين صفة نكران الذات التي حظي بها مجتمع يافع تحيطه المجتمعات المشتركة القوية، التي عمدت إلى إلى تضعيف مهمة البعثة باتباع أساليب البطش والتنكيل بالكتلة الإسلامية الفتية، فقد عمل المجتمع المكي جاهداً على شل الحياة المعيشية وذلك بالمقاطعة الاقتصادية، واستخدام الأساليب العابثة للتنكيل بمن اسلم فيفرض عليه أسلوب المقاطعة الحياتية؛ فلا يُباع ولا يشترى منه ولا يزوج ولا يزار من قبل أهله وأصحابه، وهكذا عمل المشركون على تضييق الخناق للاجهاز على الجماعة الإسلامية الفتية.

لقد رأى النبي (ص) الرد على أسلوب المقاطعة هذه؛ باتباع أسلوب التآخي بين المسلمين، فيبذل أحدهم لصاحبه ما يسد رمقه ويلبي حاجته اليومية، فكان فتحاً في كسر الطوق المضروب على المسلمين وبذلك عاجل النبي أساليب المشركين وأبطلها بنظام التآخي بين المسلمين.

لقد تكررت حالات المؤاخاة كلما اقتضت الحاجة إلى ذلك؛ فراح النبي (ص) يعمل على اتباع أسلوب المؤاخاة بين المدنيين من الأنصار وبين المكيين من

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ج ٣ ص ١٢٥ دار المعرفة بيروت .

المهاجرين، ونجح في تطويق حالة الاحساس الذي دب في روع المهاجرين بأنهم غرباء مستضعفون بعد أن ضحّوا بأموالهم وممتلكاتهم وتركوها في مكة ليتبعوا النبي (ص) في هجرته، وقضى على هواجس الأنصار الذين راحوا يفكرون بمنافسة المهاجرين لهم في بلدهم ومضايقتهم إياهم في معيشتهم، وكان للعامل الاقتصادي أثره في خلق هذا الجو الخانق والاحساس المتشنج، فكانت خطوة المؤاخاة قد أخذت أثرها المبكر في معالجة ما ذهب إليه الفريقان وقضى على محاولات المرجفين الذين يتصيدون بالماء العكر ويحاولون ترهيب الطرفين بترسيخ الروح الانهزامية لديهم.

قال الخثعمي السهيلي في الروض الآنف: آخى رسول اللّه (ص) بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم ببعض[1].

إن أسلوب التآخي الذي اتبعه النبي (ص) كان حكيماً، أثمر عن نتائج جديدة وهي محاولة المقابلة بين طرفين واجراء عملية التعادل بين المتآخين،فقد عمد رسول اللّه (ص) أن يعدل كلّ بصاحبه في مؤاخاته، وهودليل على ايجاد صيغة جديدة لمعرفة مستوى الصحابي نفسه بمن آخاه، وحالة أخرى من العملية الترتيبية للبنية الاجتماعية التكافلية وقد استحق كلّ قدره بما يقابله من صاحبه المؤاخى معه، لا سيما والمرء يعرف بقرينه.

قال ابن إسحاق: وآخى رسول اللّه (ص) بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال فيما بلغنا ونعوذ باللّه أن نقول عليه ما لم يقل: تآخوا في اللّه أخوين أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال هذا أخي، فكان رسول اللّه (ص) سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه أخوين وكان حمزة بن عبدالمطلب أسد

---

(١) الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ح ٢ ص ٢٥٢ لابن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي مكتبة الكليات الأزهرية طبع مؤسسة الفكر العربي للطباعة .

اللّه وأسد رسوله (ص) وعم رسول اللّه (ص) وزيد بن حارثة مولى رسول اللّه (ص) أخوين وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيار في الجنة ومعاذ بن جبل أخو بني سلمة أخوين. قال ابن اسحاق وكان أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه بن أبي قحافة وخارجة بن زهير أخو بلحارث الخزرج أخوين، وعمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وعتبان بن مالك أخو بني سالم بن عوف بن عمر بن عوف بن الخزرج أخوين، وأبو عبيدة بن عبداللّه الجراح واسمه عامر بن عبداللّه وسعد بن معاذ بن النعمان أخو بني عبدالأشهل أخوين وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخو بلحارث بن الخزرج أخوين، والزبير بن العوام وسلامة بن سلامة بن وقش أخو بني عبدالأشهل أخوين، ويقال بل الزبير وعبداللّه بن مسعود حليف بني زهرة أخوين وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخو بني النجار أخوين وطلحة بن عبداللّه وكعب بن مالك أخو بني سلمة أخوين[١].

هذه هي عملية المؤاخاة، كانت محاولة جديدة لاستحداث التربية الاجتماعية على أساس التعادل بين طرف وآخر، وصيغة التكافؤ هذه قدّمت أطروحة جديدة في ترتيب الصحابة على أساس ما آخى النبي بينهم وبين الأنصار، عندها عرف كل واحد حقيقة مستواه في نظر النبي. لقد كانت مؤاخاة النبي (ص) لعلي قفزة جديدة أخرى أربكت ما تخيله البعض من اختصاصهم بالنبي وغيّرت نظرة المسلمين لبعض التكتلات التي كانت تعمل على ادخال بعض القضايا في روع المسلمين من أنهم الأحق بالنبي من غيرهم ولازم ذلك أنهم الأحق بخلافته من بعده.

لقد سجّلت عملية المؤاخاة حالة تراجعية في المقامات التي احتلها بعض الصحابة، وأوقف حالات الابتزاز الذي ارتكبه بعضهم في حق المسلمين بأنهم أولى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٠٨ دار الجيل بيروت طبع ١٩٧٥ م .

بالنبي من غيرهم، وبذلك انكشف زيف علاقة البعض بالنبي بعد اقصائهم إلى مواضعهم الطبعية في عملية المؤاخاة.

لقد حفلت المؤخاة بالاعلان عن حالة جدية أوجبت على المسلمين أن تلفت أنظارهم وعليهم أن يتعاملوا معها كحالة ضرورية من مقتضيات الرسالة وضروريات التبليغ، وهي العهد بالخلافة إلى من آخى النبي نفسه معه، حيث أكد في مؤاخاته هذه على أن علياً أخو النبي ولازم ذلك التمتع بحقوق الطاعة والمتابعة كما للنبي بعد حياته.

المناقشة الحادية عشر: ـ في حب اللّه ورسوله، علياً

قدّم النبي (ص) لائحة من شروط التكامل في شخصية المسلم، وجعل هذه الشروط في حيازة الموروث النبوي تقرأه أجيال المسلمين للأخذ بها والعمل على أساسها، وأولها وأعظمها حب اللّه وحب رسوله بوجدان صادق واحساس متفاعل مع مبادئ الرسالة ومعطياتها، وكلما تنامت هذه الحالة لدى المؤمن انقلبت إلى حالة أخرى هي أرقى من الحالة الأولى وأكمل في عطائها، تلك هي حالة حب اللّه ورسوله لهذا المؤمن الذي فني في حبهما من قبل، إن الحب هو غاية المعرفة ومنتهى التسليم والوصول إلى أرقى درجات الحقيقة، فحب اللّه تعالى هو غاية معرفته ومنتهى التسليم له وأرقى ما تصل إليه النفس من الدرجات في معارج الحقيقة والمعرفة: بل هو النظر القلبي للحق تعالى بنوره وفيضه.

وعلي بن أبي طالب حاز من مراتب الحب للّه تعالى ما لا يعرفه إلاّ اللّه، فحظي بحب اللّه له ورسوله وهي غاية المراد في العبودية ومنتهى الرضا في الطاعة، لذا جاء حب اللّه لعلي متوافقاً لحبه للّه تعالى ومنسجماً مع معرفته إياه، فكان حب رسول اللّه له شهادة على ما وصل إليه ابن أبي طالب من جمال المعرفة وكمال العبودية للّه عز وجل.

قال ابن حجر العسقلاني في شرحه لصحيح البخاري: وقوله في الحديثين: إن

علياً يحب اللّه ورسوله ويحبهُ اللّه ورسوله، أراد بذلك وجود حقيقية المحبة، وإلاَّ فكل مسلم مشترك مع علي في مطلق هذه الصفة، وفي الحديث تلميح بقوله تعالى: (قل إن كنتم تحبون اللّه فاتبعوني يحببكم اللّه)، فكأنه أشار إلى أن علياً تام الاتباع لرسول اللّه (ص) حتى اتصف بصفة محبة اللّه له، ولهذا كانت محبته علامة الإيمان وبغضه علامة النفاق كما أخرجه مسلم من حديث علي نفسه قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي (ص) أن لا يحبك إلاَّ مؤمن ولا يبغضك إلاَّمنافق وله شاهد من حديث أم سلمة عند أحمد[1].

ولقد روى حديث الراية الذي أكد حب اللّه ورسوله لعلي غير واحد من الصحابة كما نقل ذلك العلامة بدر الدين ابي محمد بن احمد العيني في عمدة القاري في شرحه لصحيح البخاري فقال[2]: رواه جماعة من الصحابة غير سهل: أبو هريرة ـ علي ـ سعد بن أبي وقاص ـ الزبير بن العوام ـ الحسن بن علي ـ ابن عباس ـ جابر بن عبداللّه ـ عبداللّه بن عمر ـ أبو سعيد الخدري ـ سلمة بن الأكوع ـ عمران بن حصين أبو ليلى الأنصاري ـ بريدة بن عامر بن أبي وقاص وآخرون.

المناقشة الثانية عشر: ـ حديث المنزلة

أسهم حديث المنزلة في رفد المشروع الإلهي للخلافة وشارك في جملة الترتيبات التي بينت للمسلمين وفي منتهى الوضوح ـ المعالم التي ينبغي توفرها في شخص من يقوم مقام النبي من بعد رحيله. وقد تعرض هذا الحديث ـ كغيره من الأحاديث ـ إلى الحذف والتشويه تارة، والاساءة، إلى مفهومه تارة أخرى، وذلك من خلال بعض الكتابات التي حاولت اخفاء سيرة طويلة متكاملة من الاعداد النبوي

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ج ٧ ص ٧٢ .

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري المسمى بالعيني على البخاري ج ٨ ص ٢١٦ دار الفكر بيروت .

لعلي مقروناً بتثقيف الأمة على تعيين الخليفة الشرعي وتقديمه على أنه اللطف الإلهي الذي حظيت به الأمة بعد لطف النبوة، وسوف يكون إهمالها فيما بعد والتفريط به هو أحد النكبات التي أطاحت بشخصية الأمة والتي صاغتها الرسالة النبوية وجاهدت من أجل إعادة تركيبتها الاجتماعية لصالح النزعة الإنسانية والفطرة الإلهية السليمة.

لقد أظهرت مدارس التثقيف المرتجل كبواتها الثقافية عند قراءتها لهذا الحديث ومحاولة تفسيره بما ينسجم والنظرة الأحادية للحديث النبوي الشريف وحاولت انهاك الأمة عند قراءة ما ترتئيه من نظريات شاذة وفهم ساذج تفسر به هذا الحديث أو الأحاديث النبوية الأخرى.

ففي تفسيره للحديث عمد العلامة العيني صاحب عمدة القاري في شرح صحيح البخاري إلى جر القارئ لقراءة تجربته في محاولة لتفسير حديث المنزلة وتوجيهه المؤسف كما يلي:

أنت مني بمنزلة هارون من موسى: ومعناه أنت متصل بي ونازل مني منزلة هارون من موسى وفيه تشبيه، ووجه التشبيه مبهم، وبيّنه بقوله إلاّ أنه لا نبي بعدي بيَن ان اتصاله ليس من جهة النبوة فبقي الاتصال من جهة الخلافة لأنها تلي النبوة في المرتبة ثم إنها إما أن تكون في حياته أو بعد مماته فخرج بعد مماته لأن هارون مات قبل موسى عليه السلام، فتبين أن يكون في حياته عند مسيره إلى غزوة تبوك لأن هذا القول من النبي (ص) كان مخرجه إلى غزوة تبوك وقد خلف علياً على أهله وأمره بالإقامة فيهم ثم قال تعليقاً على هذا الحديث.. والحديث أخرجه مسلم في الفضائل.. وأخرجه النسائي في المناقب وابن ماجة في السنة.. قال الخطابي هذا إنما قاله لعلي حين خرج إلى تبوك ولم يستصحبه فقال اتخلفني مع الذرية فقال أما ترضى إلى آخره فضرب له المثل باستخلاف موسى هارون على بني اسرائيل حين خرج إلى الطور ولم يرد به الخلافة بعد الموت فإن المشبه به وهو هارون كانت وفاته قبل وفاة موسى عليه الصلاة

والسلام وإنما كان خليفته في حياته في وقت خاص فليكن كذلك الأمر فيمن ضرب المثل به قوله أن تكون مني أي نازلاً مني منزلته والتاء زائدة وهذا تعلق به الرافضة في خلافة علي وقد مر تحقيق الكلام[1].

هذا ما استحسنه العيني في شرحه ورمى الحديث برأيه على عواهنه فكان به من الزاهدين، وقلّده على ذلك القسطلاني في ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري إلاّ إنه زاد عليه بقوله: وإنما خصه بهذه الخلافة الجزئية دون غيره لمكان القرابة فكان استخلافه في الأهل أولى من غيره[2].

وسأبدأ الحديث مع القسطلاني لمناقشة جديدة من قوله أن علياً استخلفه رسول اللّه (ص) في أهله أولى من غيره، فما باله باستخلاف النبي لابن أم مكتوم على المدينة عند خروجه لغزوة أحد، ومن بعده استخلف عتاب بن أسيد على مكة في غزوته لهوازن في حنين ألقرابة مع رسول اللّه (ص) حتى يستخلف ابن أم مكتوم على المدينة؟ ومثله عتاب بن أسيد؟ وهل كان الاستخلاف في أهل النبي أم في أهل المدينة؟ وهل كانت لخصوصيات القربى أثر في ترشيح خليفة النبي على المدينة؟ وما الذي يربط ابن أم مكتوم أو عتاب بن اسيد برسول اللّه حتى حازا على خصوصية الاستخلاف في الأهل؟ وهل كان الاستخلاف مشروطاً بشرط الآل والقربى؟

ثم نعطف قولنا على استحسانات العيني وقد اجتهد مقابل نص رسول اللّه (ص) فنقول: أن الاستثناء الذي ورد في الحديث دليل على عموم المنزلة التي تمتع بها هارون، فإن الاستثناء دليل العموم كما هو معروف عنده وعند غيره، فكانت من أهم منازل هارون في قوم موسى هي نبوته وخلافته في تبليغ أحكام اللّه تعالى وقد سأل موسى ربه أن يشرك أخيه في أمره فقال ﴿وأشركه في

---

(١) عمدة القاري على شرح صحيح البخاري المعروف بالعيني ج ٨ ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٢) ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري ج ٦ ص ١١٧ دار الفكر بيروت الطبعة السادسة ١٤٠٣ هـ.

أمري﴾ والأمر هو التبليغ كما يقتضيه المقام،والتبليغ أعم من النبوة ومن الإمامة لذا فإن هارن قد بعثه اللّه نبياً مبلغاً وهو يومئذ ملازم لأخيه موسى فكانت نبوته في حضور موسى لا عند غيبته، فقد دعا موسى ربه أن يبعث أخاه هارون وقد أطلق في دعائه ولم يقيد في وقت دون وقت، ولن يسأل ربه أن يبعث هارون نبياً في غيبته ويخلفه في قومه فقط بل دعاه أن يكون وزيراً له، حليفاً في مهمته، شريكاً في رسالته.

وقد شبّه النبي (ص) علياً بهارون، فكان تشبيه مقام، ووصفُ منزلة، وإشراكُ مرتبة، ولن يقصد النبي (ص) أن يشبّه علياً بهارون في شكله وطوله وعرضه، أو شبهه بهارون حين أخلفهُ على أهله، فإن موسى لن يخلف هارون في أهله بل أخلفه في قومه لتبليغ رسالته، وعلى هذا فإمّا أن يكون علياً نبياً أو إماماً فإنه لا يخلو من إحدى اثنتين حتى يتم كلامه (ص) من كمال تشبيهه، والأول باطل لخاتمة نبوته (ص) فتعيّن الثاني بلا ريب حتى يتم مطلوبه، ويفي بمقصوده.

ويشهد على ما اثبتناه دعائه (ص) فإنه دعا بأن يجعل اللّه تعالى له ما جعل لموسى من قبل، فقد شد اللّه أزر موسى بأخيه وهو في بني اسرائيل بين طغامهم وأمام فراعنتهم، ورسول اللّه قد أوذي في اللّه وهو في حوزة مشركي العرب وأجلافهم.

فقد أخرج السيوطي في الدر المنثور عن ابن مردوية والخطيب وابن عساكر عن أسماء بنت عميس قالت رأيت رسول اللّه (ص) بإزاء ثبير وهو يقول، أشرف ثبير أشرف ثبير، اللهم إني أسألك بما سألك أخي موسى أن تشرح لي صدري وأن تيسر لي أمري وأن تحل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراًمن أهلي هارون أخي أشدد به أزري واشركه فيأمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيرا، وأخرج كذلك عن أبي جعفر محمد بن علي قال لما نزلت ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري﴾ كان رسول اللّه (ص) على جبل

ثم دعا ربه وقال اللهم أشدد أزري بأخي علي فأجابه إلى ذلك[١] ولا يخفى أنّ هذا الحديث مفسر لحديث المنزلة ومتمّم له.

على ان العيني أشكل على خلافة علي من حديث المنزلة، بأن الحديث ورد حين استخلاف النبي علياً على أهله، وقد فاته أن المورد لا يخصص الوارد، ثم ما ورد لم يكن خاصاً في واقعة واحدة فقد تعددت موارد الحديث في وقائع عدة وإليك بعضها:

١ ـ أخرج الحافظ الهيثمي عن ابن عباس قال لما آخى النبي (ص) بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فلم يؤاخ بين علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه وبين أحد منهم خرج علي مغضباً حتى اتى جدولاً فتوسد ذراعه فسفت عليه الريح فطلبه النبي (ص) حتى وجده، إلى أن قال أغضبتَ عليّ حين آخيت بين المهاجرين والأنصار ولم أؤاخ بينك وبين أحد منهم، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاَ أنه ليس بعدي نبي. ألا من أحبك حف بالأمن والإيمان ومن أبغضك أماته اللّه ميتة جاهلية وحوسب بعمله في الإسلام[٢].

وأخرج الهيثمي كذلك عن علي بن أبي طالب قال أخذ رسول اللّه (ص) بيدي فقال إن موسى سأل ربه أن يظهر مسجده بهارون وإني سألت ربي أن يظهر مسجدي بك وبذريتك[٣] ولا يخفى أن خصوصية هارون من موسى ليست الاخوة بل هي أعظم من ذلك، فقد كانت خصوصيته وزارته لموسى وخلافته في تبليغ رسالة ربه، فقد كان لعلي مثل ما كان لهارون، وليس خصوصية القربى قد عمل بها النبي وبنى عليها أمره، وإلاّ فقد كان العباس والحمزة أعمامه وهم أولى من ابن عمه في الدرجة من القرابة ومع هذا فقد أمرهما بسد أبوابهما، فهل كانت القربى نافعة

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ج ٤ ص ٢٩٥ المكتبة الإسلامية طهران.

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ج ٩ ص ١١١.

(٣) المصدر نفسه.

حين ذاك؟ فلاحظ وتأمل جيداً. وعن علي قال وجعت وجعاً فأتيت النبي (ص) فأقامني في مكانه وقام يصلي وألقى علي طرف ثوبه ثم قال قد برأت يا ابن أبي طالب لا بأس عليك، ما سألت الله شيئاً إلاّسألت لك مثله ولا سألت الله عز وجل شيئاً إلاّ أعطانيه غير أنه قيل لا نبي بعدك.. [1].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص) لأم سلمة هذا علي بن أبى يطالب لحمه لحمي ودمه دمي فهو مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي[2].

٢ـ ما أخرجه ابن عساكر عن المأمون قال حدثني الرشيد حدثني المهدي حدثني المنصور عن أبيه عن جده عن عبدالله بن عباس، قال سمعت عمر بن الخطاب وعنده جماعة فتذاكروا السابقين إلى الإسلام فقال عمر أما علي فسمعت رسول الله (ص) يقول فيه ثلاث خصال لوددت أن لي واحدة منهن فكان أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة من الصحابة إذ ضرب النبي (ص) بيده على منكب علي فقال له: يا علي أنت أول المؤمنين إيماناً وأول المسلمين إسلاماً وأنت مني بمنزلة هارون من موسى[3].

وعن إسماعيل بن عبدالله بن جعفر عن ابيه قال: لما قدمت ابنة حمزة المدينة اختصم فيها علي وجعفر وزيد، فقال رسول الله (ص) قولوا ـ زاد بن الانماطي ـ: حتى اسمع وقالا: ـ فقال زيد هي ابنة أخي وأنا أحق بها وقال علي هي ابنة عمي وأنا جئت بها وقال جعفر هي ابنة عمي وخالتها عندي قال: خذها يا جعفر أنت أحقهم بها فقال رسول الله (ص) زاد الأنماطي: لأقضين بينكم: أما أنت يا زيد فمولاي وأنا مولاك، وأما أنت يا جعفر فاشبهت خلقي وخلقي، وأما أنت يا علي

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ح ٩ ص ١١١ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر تحقيق محمد باقر المحمودى ح ١ ص ٣٦١ .

فأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ النبوة.

وقال الأنماطي: إلاّ أنه لا نبوة[١].

وعن قيس بن أبي حازم قال: سأل رجل معاوية عن مسألة فقال: سل عنها علي بن ابي طالب فهو أعلم مني قال: قولك يا أمير المؤمنين أحب إلي من قول علي، قال: بئس ما قلت ولؤم ما جئت به، لقد كرهت رجلاً كان رسول اللّه (ص) يغره بالعلم غراء، ولقد قال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي وكان عمر بن الخطاب يسأله ويأخذه عنه، ولقد شهدت إذا أشكل عليه أمر قال: أههنا علي بن أبي طالب؟ ثم قال معاوية للرجل: قم لا أقام اللّه رجليك ومحا اسمه من الديوان[٢].

هذه جملة الموارد التي ورد فيها الحديث، وقد تبين أنه لن يقتصر على مورد واحد وهو استخلاف النبي (ص) لعلي في غزوة تبوك بحجة تركه في المدينة لحاجته إليه لأنه أولى من غيره في استخلافه على أهله، ثم إن مغازي النبي (ص) أنافت على الثمانين كل ذلك لم يحتج فيها إلى استخلاف علي فكيف إحتاجه في منصرفه إلى غزوة تبوك وحدها حتى يستخلفه على أهل بيته؟ فإذا كانت حاجة النبي لأن يستخلف علياً في غزواته فهلا استخلفه في غزواته الأخرى؟

وبعد أن أثبتنا إمامته في حياة النبي، فإن بعد موته أولى، لأن الناس إلى الحجة أحوج يبلغهم معالم دينهم وليس بعد النبي إلاّ الإمام، فكانت الإمامة بعد النبوة أحوج إليها في التبليغ والانذار وقد فارق النبي أمته فهل تخلو الأرض من حجة على العباد؟

ثم اثبات الإمامة والخلافة لعلي في زمن النبي مستمرة حتى بعد وفاته (ص) غير منقطعة بحال، حيث يستفاد من اطلاق الحديث أن خلافته غير منقطعة ولم

---

(١) نفس المصدر ص ٣٦٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٦٩ .

يقيدها (ص) إلى ما بعد وفاته بل أطلقها فكانت ثابتة حتى بعد وفاته، فلا عبرة في اثبات موت هارون في حياة موسى لتنقطع خلافته، بل موت النبي قبل علي هو أثبت لخلافته وأكمل في إمامته، فإن الخليفة أكثر ما يحتاج إليه بعد موت من سيخلفه، والنبي فارق الدنيا وقد خلفه من كان خليفته في حياته وناصره ووزيره، كما كان هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعده.

المناقشة الثالثة عشر: ـ في حديث الغدير

احتل حديث الغدير مساحة واسعة من التراث النبوي الذي تكفّل في اثبات أحقية علي بن أبي طالب بالخلافة وقدّم حديث «من كنت مولاه» صيغة جديدة في اثبات الولاية لابن أبي طالب، حيث هيّأ رسول اللّه (ص) جواً خاصاً من أجواء التبليغ، وإستخدم لغة أخرى ليسمعها جموع المسلمين، وقد احتشد ما ينوف على مئة ألف منهم في غدير خم بعد منصرفه (ص) من حجة الوداع، وفي ذلك اليوم المشهود، فإذا برسول اللّه (ص) يرقى رحال الحجيج ليجلعه منبراً وقد اشرف على مئة ألف أو يزيدون، وقد غارت عيونهم من صائفة ذلك اليوم الهجير، وهو يتصبب عرقاً حيث أجهدته مهمة ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته واللّه يعصمك من الناس﴾ فهل لرسول اللّه (ص) مندوحة من الاعتذار ليُجلس الألوف المؤلفة من الحجيج المنهكين على هذه الأرض الملتهبة بحرارة شمس الحجاز وعواصف المدينة تسفع وجوههم لهيبها، وتوجر أفواههم غبارها، وهو الرحيم بهم والشفيق عليهم ليقول لهم من كنت صديقه فعلي صديقه، من كنت محبوبه فعلي محبوبه، من كنت وارثه فعلي وارثه(١)؟ وكيف يليق بحكمة رب

---

(١) فسر البعض أن كلمة ولي تعني الصديق أو المحبوب أو الوارث، وليس من خلافة النبي ﷺ شيئاً يستفاد من كلمة «ولي» هكذا ذهب البعض وحاول افراغ هذا الحديث من محتواه وقد رمى النبي ﷺ باللغو والعبث لأن معنى هذه الكلمة وحسب تفسيرهم لا تستحق الاهتمام منه ﷺ والتنويه عليها لكن الإمامة والخلافة التي قصدها النبي ﷺ في حديثه أبعدتهم عن الحقيقة فراحوا

العالمين على لسان سيد المرسلين هذا البطر من القول والسفه من الفعل؟ تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً، إذن ما الذي حدث حتى جعل رسول اللّه (ص) يوقف مسير الناس فجأة ولم يمهلهم حتى يصلوا مدينتهم وقد أشرفوا عليها بعد حين، وتطاولت أعناق المسلمين إلى ما سيلقيه رسول اللّه وهم يتشوقون إلى ذلك الأمر الجليل ويتحفزون إلى سماع ما ألقاه وحي السماء على النبي الكريم وإذا برسول اللّه (ص) يعتلي رحال الحجيج ليأخذ بيد علي بن أبي طالب فيقول من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه فهو الأمر العظيم الذي يسمعه المسلمون فيسجلوه في ذاكرتهم لتضاف إلى الموروث النبوي الكريم.

المناقشة الرابعة عشر: ـ في أن النبي لا يؤدي عنه إلاّ علي

قال الراغب في مفرداته: والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته، وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف اللّه أولياءه في الأرض[1].

ولما كانت مهمة النبي (ص) هي التبليغ لأحكام اللّه وسياسة العباد وفقاً لما اقتضته شريعة الإسلام، ولما كان النبي مؤديا رسالة ربه هادياً ومبشراً ونذيراً، فقد كان خليفته مثله فهو المبلغ لأحكام اللّه تعالى، والسائس في عباد اللّه، مؤدياً ما ألقاه اللّه تعالى على نبيه حافظاً لأحكام اللّه صائناً لحدوده، لذا فإن لفظ خليفة يلازمه لفظ مؤدي بل يرادفه ولا يفارقه بحال.

وعلى هذا جاء حديث رسول اللّه (ص) كما أخرجه الترمذي عن حبشي بن جنادة أنه قال رسول اللّه (ص): علي مني وأنا من علي، ولا يؤدي عني إلاّ أنا أو

يتشبثون بما هم عليه .

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٥٦ .

علي[١].

وعلى أي حال فقد وضّح النبي (ص) أن مهمة الخلافة هي أداء أحكام اللّه كما هي النبوة، فإن النبي (ص) يؤدي ما أنزل إليه من الكتاب والخليفة يؤدي ما أبلغه النبي من أحكام الكتاب، وعلى هذا صار معنى الخلافة هي تأدية الأحكام وتبليغها، وإلاّ ما الذي يقصده النبي من التأدية غير رسالة ربه، وما الذي عند النبي غير أحكام ربه، فصار من يخلف النبي مؤدياً عنه، وقد انحصرت مهمة التأدية في شخص علي للاستثناء الذي يفيد العموم، فإن عموم مهمة النبوة وهي التبليغ منحصرة في علي وهو الخليفة. ويدل عليه ما رواه المحدثون من تبليغ سورة براءة، حيث رجع أبو بكر عن تبليغها بأمر النبي وقد أمر علياً بتبليغها فلما سأله أبو بكر عن ذلك قال لا يبلّغ إلاّ هو أو رجل منه، وهي إشارة واضحة إلى أن التبليغ في حياته لا يكون إلاّ بواسطته أو بواسطة رجل منه فكيف بعد موته (ص) فإن الأولى أن يكون المبلغ لأحكام اللّه بعد نبيه هو ذلك الرجل الذي بلّغ في حياته وخصّه بمهمته، لذا روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ما أورده عن زيد بن يتبع عن أبي بكر أن النبي (ص) بعثه ببراءة إلى أهل مكة وأنه لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلاّ نفس مسلمة وأن من كان بينه وبين رسول اللّه (ص) مدة فأجله إلى مدته، وأن اللّه عز وجل بريء من المشركين ورسوله. قال: فسار بها ثلاثاً ثم قال لعلي: الحقه فَرُدَّ عَلَيَّ أبا بكر وبلّغها أنت قال: ففعل فلما قدم أبو بكر على النبي (ص) بكى وقال يا رسول اللّه حدث فيَّ شيء؟ قال ما حدث فيك إلاّ خير ولكن أمرتُ أن لا يبلغه إلاّ أنا أو رجل مني[٢].

وعن سماك عن حنش عن علي قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي (ص) دعا النبي (ص) أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني النبي

---

(١) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٣٦ .

(٢) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر تحقيق محمد باقر المحمودي ج ٢ من ص ٣٧٦ إلى ص ٣٨٨ .

(ص) فقال لي: أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم قال: فلحقته بالجحفة وأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبي (ص) فقال يا رسول الله الله أنزل فيّ شيء؟ قال: لا ولكن جبرائيل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلاّ أنت أو رجل منك. وقد أخرج الحديث ابن عساكر من خمسة عشر طريقاً(١).

ولا يخفى على البصير أن كلمة «مني» لا تعني غير التبعيض الروحي الذي قصده النبي (ص) في جملة من أحاديثه، فإن علياً صار في إيمانه ومعرفته لله تعالى جزءاً من النبي (ص)، تنزل عليه فيوضات ربه لتختصه بإمامة التبليغ وخلافة الرسالة، وليس المقصود من هذا التبعيض هو التبعيض الأُسَري الذي يقصد منه أنه لا يَبلغ إلاّ أنا أو من أهل بيتي، فإن العباس وغيره من بني هاشم قد حضروا فتح مكة وأحاطوا بالنبي (ص) فلم يخصهم بتبليغ رسالته، فأحكام الله تعالى أجل من أن تحيط بها دائرة القربى الضيقة ليستأثر بها قوم دون قوم، وقربى دون قربى ، بل أحكامه مقصورةً على من امتحن الله قلبه على الإيمان. وأنت تتابع حديث سورة براءة، فإنك ستجد ما يثير الحديث من نكتة مهمة وإشارة جليلة خطيرة وهي أن النبي (ص) بعث أولاً أبا بكر لتبليغ براءة ثم أردفه بعلي أن يأخذها منه ليبلغها هو فإنه لا ينبغي أن يؤدي إلاّ هو أو رجل منه، فما الحكمة من ذلك؟ ولماذا لم يكن قد أمر علياً من أول الأمر لتبليغ سورة براءة حتى يرسله ليأخذها من أبي بكر أمام أمة من المسلمين، وجموعهم قد احتشدت حول أبي بكر وأحاطت بناقته يحدّقون برسول النبي الفاتح الذي يلقي عليهم بيانه الأول ليعلن فيه اجراءته التالية عند قدومه مكة وما كان على أهلها من فعله حيث تعلق الأمر بدمائهم وأموالهم وأعراضهم وهم وجلون من الطارىء الجليل الذي حل بين ظهرانيهم متشوقون لسماع ما يلقيه مبعوثه الشخصي لقراءة بيان الفتح، وكان أبو بكر قد احتل في تلك

---

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر تحقيق محمد باقر المحمودي ج ٢ ص ٣٧٦ إلى ص ٣٨٨ .

الساعة موقعاً مهماً في أعين المكيين وأخذ من نفوسهم أثراً وهو على وشك أن يتلو عليهم بيان الفاتح القادم، وإذا بالأمر يتغير عند قدوم علي بن أبي طالب ليأخذ سورة براءة ويبلغها إلى الناس بأمر الله فإنه لا ينبغي أن يبلّغ ذلك إلاّ النبي أو رجل منه، وقد جرى الحديث أو طرف منه أمام الناس والملأ من المكيين الذين تهيأوا لاستقبال النبي، متوجسين من المرحلة القادمة، فمنهم من أسرّ إسلامه يراقب الأحداث عن كثب ليسجّل في ذاكرته كل حدث، ومنهم من بقي على شركه وكفره يتربص للساعات الآتية، وإذا بأول حادثة تجري أمامهم حتى صارت من أشد ما ارتكز في ذاكرتهم وثبت في أذهانهم أن علياً من النبي لا يؤدي عنه إلاّ هو، وقد فهم المكيون يومها أن خليفة النبي القادم بعد حين ووزيره والمبلغ عنه هو ابن أبي طالب الذي عهدوه مسلماً مؤمناً منذ صباه وقد لازم محمداً وترعرع في أحضانه؛ فلا غرابة أن يعهدوه خليفةً ووزيراً بل كان مجيئه إليهم وتبليغه سورة براءة يتلوها على أسماعهم هو أنسب للمكيين لما تركه ابن أبي طالب من ذكريات المناصرة والدفاع والفتوة والتضحية لدين ابن عمه فكان تبليغه إليهم أبلغ في نفوسهم من غيره.

ولقد كانت هذه الحادثة الخطيرة قد استوعبت مهمتين في آن واحد، احداهما تنصيب علي بن أبي طالب مبلّغاً عن النبي (ص) اذ لا يؤدي عنه إلاّ هو، وهي في نفس الوقت قد ألغت لياقة غيره في التبليغ عنه، فكيف بخلافته؟ مما حدى بالمكيين أن يسجّلوا هذه الواقعة في ذاكرتهم من أن التبليغ عن النبي لا يؤديه إلاّ علي، فهو بخلافته اذن، أجدر.

المناقشة الخامسة عشر: ـ في أن علياً وليٌّ لكل مؤمن بعد النبي ـ

حرص النبي (ص) على توفير كافة السبل المهمة لخلافة علي لبعد خصوصاً وقد اتخذت تلك الخلافة شرعيتها من القرآن قبلاً. وقد رأينا كيف كان النبي (ص) يهيأ أذهان الأمة لذلك؛ عبر جهوده المبكرة في تعيين خليفته والنص عليه تلافياً للظروف الآتية التي كانت تلوح تباشيرها في أفق الحياة النبوية نفسها.

ولمَ لا؟ وعلي في كل شيء محسود، في طفولته، وصباه، وشبابه، وكهولته، بل حتى في طريقة استشهاده!!.

ومن هنا كان أسلوب التبليغ النبوي للخلافة غير مقتصر على اعلان اسم الخليفة فقط بل دعّمهُ (ص) بتأكيدات استثنائية أودعتها الأمة في ذاكرتها، وسجلها الموروث النبوي جهداً نبوياً ضخماً شارك في خلق الظروف السياسية والدينية الآتية، لذا كانت المناسبات النبوية حافلة باعلان الخليفة الشرعي على الملأ العام من المسلمين، على جماعة منهم، على نفر قليل، على فرد واحد، كل ذلك من أجل تعدد الخطاب النبوي الموجه إلى العموم من المسلمين، أو إلى كتلة منهم، أو نموذج، أو عيّنة، اختارها النبي أو فرضتها ظروفها ليقرر اسم الخليفة الشرعي.

كان الخطاب النبوي ذا لهجات متعددة حافلة بالشعور الضخم الذي يكنّه النبي للخليفة الجديد، فيكتسح كل الأمنيات السياسية أو الفردية التي كانت تراود عصبة من الناس، أو طرفاً سياسياً يعمل في جنح الظلام على ترتيبات أمنية جديدة عند طروّق ما يتطلب اتخاذه من اجراء، لذا تطلّب الخطاب النبوي تشكيلات مختلفة تهدف للوصول إلى المقصود النبوي من نفوس الأمة لتكون مسلّمات بديهية لاتُبارح الذاكرة والوجدان، بل لا تغادرحسابات أي مشروع تقدم عليه الأمة إلاّ وتجعله في مقدمة أولوياتها، فإمّا أن تعمل على تمييعها وطرحها بأساليبها الخاصة، وأما أن تحتضنها وتتبناها طريقة توصلها إلى مراقي الكمال. ولما تعددت مناسبات التنويه عن الخليفة الشرعي والاعلان عن اسمه؛ تعددت معه صيغ الأحاديث فكان كل منها يؤكد الآخر ويترجمه إلى حقيقته المتوخاة، فحديث المنزلة مثلاً أكد حديث المؤاخاة فقوله (ص) لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى كان تأكيداً لقوله (ص) أنت أخي في الدنيا والآخرة[١] أو قوله (ص) أما أنت يا علي فصفيي وأميني[٢].

---

(١) مصابيح السنة لأبي محمد البغوي ص ١٧٣ .

(٢) خصائص أمير المؤمنين للنسائي ص ١٤٢ .

حتى جعل علياً يقول ذلك في حياة النبي ويعلنها صريحة أنه أخوه ووليه، وهو ما أخرجه النسائي عن ابن عباس قال: أن علياً كان يقول في حياة رسول اللّه (ص): إن اللّه تعالى يقول ﴿أفإن ماتَ أو قُتل انقلبتم على أعقابكم﴾ واللّه لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا اللّه، واللّه لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت أو أقتل واللّه إني لأخوه ووليه ووارثه وابن عمه فمن أحق به مني[١].

وقد أكد حديث المنزلة أيضاً في بدء ما أعلنه عن خلافة علي وهو البيان الأول الذي ألقاه على بني عبدالمطلب أهله وخاصته وذلك إبّان البعثة حينما أراد (ص) أن يعلن دعوته فأعلن معها خلافة ابن عمه في حينها على أسماعهم؛ فارتكز في أذهانهم أن محمداً نبيٌ وعلياً وصيه ووزيره، وهو ما أخرجه النسائي عن ربيعة بن تاجد أن رجلاً قال لعلي: يا أمير المؤمنين بم ورثت ابن عمك دون عمك العباس؟ قال جمع رسول اللّه (ص) بني عبدالمطلب فصنع لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كأنه لم يُمس أو لم يشرب، فقال يا بني عبدالمطلب إني بُعثت إليكم بخاصة وإلى الناس بعامة وقد رأيتم من هذه الآية ما قد رأيتم فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي ووزيري فلم يقم إليه أحد، فقمت إليه وكنت أصغر القوم سناً فقال: اجلس، ثم قال ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول اجلس حتى إذا كان في الثالثة فضرب بيده على يدي ثم قال: أنت أخي وصاحبي ووارثي ووزيري، فبذلك ورثت ابن عمي دون عمي[٢].

ومثله كان حديث الولاية يوم غدير خم في قوله عن كثير بن زيد عن محمد بن عمر بن علي عن أبيه عن علي أن النبي (ص) قام بحفرة الشجرة بخُم وهو آخذ بيد علي فقال: أيها الناس ألستم تشهدون أن اللّه ربكم؟ قالوا: بلى قال: وأن اللّه

---

(١) خصائص أمير المؤمنين للنسائي ص ١٣٢ .

(٢) خصائص النسائي ص ١٣٣ .

ورسوله مولاه؟ قالوا بلى. قال: فمن كنت مولاه فإن هذا مولاه وفي حديث آخر عن زيد بن أرقم قال: قال رسول اللّه (ص) من كنت مولاه فعلي مولاه[١].

فهو شاهد ومؤكد لحديثنا المبحوث في قوله (ص): عليٌ مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلاّ علي[٢].

وهكذا تظافر الحديث النبوي الذي يعلن علياً الخليفة الشرعي فيآزر بعضه بعضاً، ويؤكد بعضه بعضاً ويفسر بعضه بعضاً، وهي أروع طريقة بيان وأرقى اسلوب بلاغ وأبدعُ ما قدَّمه المجهود النبوي في الهداية والانذار، فهل بعد هذا للأمة مندوحة اعتذار؟!.

المناقشة السادسة عشر: ـ إن علياً قد امتحن اللّه قلبه على الإيمان ـ

تولى رسول اللّه (ص) مهمة التبليغ للخلافة الشرعية؛ فكان يعلن في كل مناسبة عن اسم خليفته الشرعي؛ بل امتد هذا المجهود فلم يقتصر على المسلمين وحدهم حتى شمل به مشركي قريش أنذاك، فكان تبليغه لخلافة ابن عمه في عرض تبليغه لبعثته (ص)، وكان يتحدى بذلك قوى المشركين وكبريائهم التي ما فتأت تكيد للإسلام وتعلن كفرها وعدائهالنبيه الكريم، وكان رسول اللّه (ص) يتحدى قريشا في كل حين فهو بينما يؤكد لهم بعثته يردفه بدعوته لخلافة ابن عمه، وهو بذلك يطعن في كبريائها ويتحداها بقوتها وخيلائها، لذا أكد في حديثه الشريف أن قوة مشركي قريش وبطشهم يمكن دفعه برجل واحد من المسلمين يقاتلهم ويضرب رقابهم على الدين، وهو الأسلوب الذي أرعب به قريش وجلجل قلوبهم وزعزع أحلامهم، فإن قوتهم هذه لن تصمد أمام رجل يبعثه اللّه لقتالهم ويرشده لهلاكهم،

---

(١) مصابيح السنة للحافظ أبي بكر الضحاك بن مخالد الشيباني ص ٥٩١ ج ٢ طبع المكتب الإسلامي بيروت ط ٢ سنة ١٩٨٥ م .

(٢) سنن ابن ماجة ج ١ ص ٤٤ .

وهي الخطوة الهجومية التي استخدمها النبي لقلع ما في نفوس المشركين من ثقة وكبرياء، بل هي الحرب النفسية التي شنها النبي على صناديد قريش بأنه سيهزمهم برجل واحد يبعثه اللّه إليهم قد أمتحن قلبه على الإيمان؛ ليضم تحت هذا العنوان مكرمات السلم وفتوة القتال، وهو في ساحات الوغى يدفعه إيمانه المطلق باللّه تعالى أن يكتسح أحزاب المشركين ويقتلع كبريائهم، فمن كان في هذا جدير فهو لخلافته أجدر، وإذا كان النبي قد ترك قريش حتى حين، فإن خليفته ابن أبي طالب يتحين الفرصة للفتك بصناديدهم ويعصف بكيانهم وهو متحفز لأمره رهين لاشارته (ص) لذا فقد فهم صحابة رسول اللّه (ص) أن هذه الصفات هي صفات الخلافة ومقتضيات الإمامة حتى قالوا من يا رسول اللّه؟ وانفرد أبو بكر بسؤاله من هو يا رسول اللّه؟ وانفرد عمر بسؤاله من هو يا رسول اللّه؟ فقال ذاك هو الزاهد العابد ابن أبي طالب وقد أكب على خدمة رسول اللّه يخصف نعله ويقوم بجميع أموره. وهل علمت ما الذي دفع الشيخين لسؤال النبي (ص) عمن هو يقاتل المشركين بالسيف على الدين؟ وأنت الخبير اللبيب؟؟؟.

أقول هذه النصوص النبوية الجليلية الشريفة قد عرضناها أمام القارىء البصير، وناقشناها مناقشة سريعة ثم اعتمدنا على فطرة القارىء ووجدانه، ليستنتج حقائق الأمور بعين بصيرة وقلب سليم، وقد اختصرناها بما يقدّم الخطوط العريضة ويعين القارىء على مبتنيات البحث وحسبُنا بالقارىء ثقةً وانصافاً فإنه سيوصل نفسه إلى حقيقة ما جرى من الأحداث الإسلامية إبّان عهد الخلافة ويوقفها على مجريات الأمور.

المدارس الرافضة للنصوص النبوية

تشكّلت هذه المدارس الرافضة مبكراً في عهد النبوة، وتبنت صيغةً أخرى من استخلاف النبي لقيادة الأمة، ونافحت من أجل ايجاد البدائل الأخرى بصيغها التفسيرية لما ورد على لسان النبي (ص) من تقديم خليفته الشرعي للأمة، وشكّلت هذه التكتلات بؤراً اعلامية رافضة تحاول من خلال جهودها التحفز لمباركة أي محاولة انقلابية تطيح بالشرعية، فراحت تمهّد الطريق لهذه الجهود؛ وتهيأ الأجواء لخلق الحالة الأخرى لدى الأمة، وهي حالة قراءة النصوص النبوية بطريقة مقلوبة؛ وتلجأها إلى الفهم المحدود من القصود النبوية؛ والتشويش على صورة الخليفة الشرعي، عندها ستضطرب الرؤية وستتمكن من سحب البساط من تحت أقدام الشرعية؛ وبذلك ستطيح بها وهي لم تشارك مباشرة في الأحداث القادمة. لقد كانت من رواد المدرسة الأوائل أم المؤمنين عائشة حيث التزمت موقفاً خاصاً من بين أزواج النبي لإبعاد الخليفة المعيَن عن ساحة الأحداث، وذلك لأن النصوص النبوية تعدت أباها وقد رغبت أن يكون أبا بكر أول خليفة بعد النبي، وهي الدوافع الإنسانية التي تدفع بالمرء للانتصار إلى خاصته وحامته، بل أهله وعشيرته مراعاة للنزعة الشخصية التي يمتلكها أي إنسان بغض النظر عن الوازع الديني الذي يُرتب ما تبعثر من شعور يدفع المرء للتشبث برغباته وأهوائه وكانت أم المؤمنين عائشة قد تعاملت مع الحدث الإسلامي كإنسان له طموحه ورغباته وميوله دون مراعاة الحيثيات الدينية فهي، ما يملي عليها احساسها وعواطفها وهي تغادر منصبها الرسمي الجليل الذي فرضته أدبيات النبوة وقد كرّمت أزواج النبي (ص) على أنهن أمهات المؤمنين، وكانت السيدة عائشة أم المؤمنين تغادر منصبها بين الحين والآخر ضمن بيتها لتتحرر من قيوده الثقيلة وتمارس حياتها كأي من النساء لها عواطفها

واحساسها تدلي بتصريحاتها المهمة وان كان ذلك على حساب المسلّمات الاسلامية انتصاراً للمدرسة التي انتسبت إليها خارج البيت النبوي المبارك، فكانت أولَ لخطوة اجرائية احترازية قد اتخذتها؛ هي نفيها للموروث النبوي الضخم الذي يؤكد خلافة علي بن أبي طالب، واحتجت بحجة لم تكن تصمد أمام رواد نفس المدرسة التي انتسبت إليها، حيث تولى رد ذلك الإمام السندي في حاشيته على شرح سنن النسائي، وسيأتيك قريباً إن شاء الله تعالى.

السيدة عائشة تنفي النصوص النبوية:

عمدت أم المؤمنين عائشة كما قدّمنا إلى نسف كل المبتنيات التي قامت عليها دعائم الخلافة الشرعية، وكانت مبادرةً جريئةً حقاً في المفاهيم السياسية التي تتولى انقلاباً يطيح بالمنصب الرسمي المعهود، وهي محاولة تستحق الاهتمام جديرة بالدراسة ومعرفة الأسباب والدوافع الكامنة من ورائها، ثم معرفة نتائجها المستقبلية.

لقد نفت عائشة وصية النبي لعلي وقد تحملت مسؤولية نفيها هذه للوصول إلى الهدف المنشود، فقد أخرج البخاري عن الأسود قال: ذكروا عند عائشة أن علياً (رضى الله عنه) كان وصياً فقالت: متى أوصى إليه؟ وقد كنت مسندته إلى صدري أو قالت حجري فدعا بالطست فلقد انخنث في حجري فما شعرت أنه قد مات فمتى أوصى إليه؟[1].

لقد كان هذا التصريح قد تميز بأنه صادر عن زوج النبي (ص) وهي تلتزم مدرسةَ فكرية معيَنة تقدَمها على المدارس الأخرى وتتبنى موقفاً سياسياً يشارك في جزء كبير من الحدث الإسلامي، وقد انفردت بهذا عن ضراتها اللواتي التزمن بوصيّته (ص) كما ورد في كتاب اللّه العزيز: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ فكان الاقرار

---

(١) البخاري ج ٣ باب الوصايا ص ٩٥ ومثله ما رواه ابن ماجة في سننه ج ١ ص ٥١٩ .

بالبيت كناية عن التزام جانب الحق والابتعاد عن الزج في المعتركات السياسية، وعدم ركوب الصعاب فإن ذلك لا يليق بكونها امرأة من نساء المسلمين فكيف بأم المؤمنين، لذا حاول القرآن الكريم مسبقاً إلى غلق طريق السياسة على نساء النبي ولربما كان ذلك تحسباً متيقناً منه إلى استغلال القوى المتصارعة لنساء النبي وأخذ رأيها حجةً تحتج به على مشروعيتها، وبالفعل استفادت بعض المدارس السياسية من استغلال التسرع الذي قاد بعض نساء النبي للزج في معترك الصراع السياسي، واعطاء التأيدات الشخصية لبعض التكتلات الحزبية، وقد كان ذلك باسم البيت النبوي طبعاً كما روّج له رواد هذه المدارس وقنع به البعض، وبذلك كلّفت هذه النزعات المتسرعة من بعض نساء النبي إلى زج الأمة في معارك طحنت فيها أمة من المسلمين، فكانت معركة الجمل أشرس حرب توقد بين فئتين من المسلمين؛ تنفيذاً لمشاريع سياسية فاشلة اربكت استقرار المسلمين ولم شعثهم وهم تحت مظلة الخلافة الشرعية.

لقد ساهمت ام المؤمنين عائشة في رفد الموروث النبوي وسجّلت بعض الوقائع النبوية في ذاكرة الأمة، إلاّ أن تحركاتها كانت مدروسة محسوبة، فعمدت إلى التقليم المتعمد للحديث النبوي وبذلت جهدها في عمليات اخراج تحذف من خلالها مشاهد بعض الأحداث، أو تلغي بعض الشخصيات الإسلامية انسجاماً مع الخط العام لمدرستها الفكرية، فكانت تروي الحادثة مثلاً مع حذف متعمد لبعض الوقائع؛ أو تلغي أدوار شخصية معينة؛ كل ذلك من أجل اخراج الحديث مبوباً على أساس الخط الفكري الذي التزمته، وإليك نموذجاً من هذه الروايات المبرمجة ضمن الحملة التي قادتها للمشاركة في التاريخ الإسلامي ولكن من أبوابه الخلفية، وقد تصدى لها الصحابة ليصححوا ما ورد من أمثال هذه الأحاديث المبرمجة.

فقد روى البخاري عن عبيدالله بن مسعود أن عائشة زوج النبي (ص) قالت لما ثقل رسول الله (ص) واشتد به وجعه استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي، فأذنَ له

فخرج وهو بين الرجلين تخط رجلاه في الأرض بين عباس بن عبدالمطلب وبين رجل آخر، قال عبيدالله فأخبرت عبدالله بالذي قالت عائشة فقال لي عبدالله بن عباس هل تدري من الرجل الآخر الذي لم تُسمِّ عائشة؟ قال قلت لا قال ابن عباس هو عليٌّ[1].

هكذا كان أسلوب الرواية المبرمج لدى عائشة يلغي الأحداث ما لم تنسجم مع مدرستها السياسية، وإذا ضنّت على علي بن أبي طالب بفضيلة بسيطة فهل يرتجى منها أن تعترف بالنص على خلافته؟ وهل ستسمح لها انتماءاتها السياسية أن تروي فضائل ابن أبي طالب وقد جرى بعضها بمحضرها وشهادتها، أم ستسكت عن جملة منها إذا لم تلغِ وقوعها أو تغض النظر على الأقل عن كثير منها؟ لقد كان تحرك السيدة عائشةَ في حياة النبي تحركاً مشحوناً بالعاطفة حتى أحرج موقف ابيها أمام النبي (ص) وهي تنتصر إليه، وأربك جميع الخطط السياسية وبرامج التغيير التي طمح لها أبو بكر في حياة النبي (ص) ليأخذ أدنى تأييد منه لصالحهِ، وكان تسرع السيدة عائشة يسبق تحركات أبي بكر المبرمجة فتودي ببعض خططه وتطيح بأكثر برامجه، وكان تصديها لعلي بن أبي طالب بحضرة النبي يُضعف موقف أبي بكر حتى يترك في نفس النبي ما يوجد على الكتلة التي كانت تنتمي إليها والمتمثلة بشيوخ الصحابة، فكان أبو بكر يتدارك الموقف بالاعتذار إلى النبي أو ما يشبه ذلك، فقد أخرج الحافظ أبي بكر الهيثمي عن النعمان بن بشير قال استأذن أبو بكر على النبي (ص) فسمع صوت عائشة وهي تقول إن علياً أحب إليك من أبي مرتين أو ثلاثاً قال فاستأذن أبو بكر فدخل فأهوى اليها فقال يا بنت فلانة لا أسمعك ترفعين صوتك على رسول الله (ص)[2].

فكانت قد تصورت أن علياً قد نافس أباها في حبه للنبي، وقد غفلت أنه

---

(١) البخاري ج ٣ ص ٩٣ .

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمي ج ٩ ص ١٢٧ .

الوحي وإرادة السماء يتصرفان وليس للعاطفة والقرابة من شأن أو أثر في خلافة اللّه على أرضه، وهو ما أدركه أبو بكر وباقي الأصحاب.

الإمام السندي يرد على السيدة عائشة:

ترك الموقف المتسرع الذي اتخذته عائشة من اعلانها لانتمائها السياسي والتزامها للمواقف الأخرى النافية للنصوص النبوية المتعهدة بتعيين الخليفة الشرعي، كبوات أحرجت نفس المدرسة المنتمية إليها حتى حاولت هذه المدارس تهذيب نظراتها، ومحاولة إصلاح الخلل الفكري الذي تركته الظروف السياسية الحرجة على لسان قادتها، فراح روّاد هذه المدارس المتأخرين إلى برمجة الاشكالات المطروحة من قبل مؤسسي وقادة هذه المدارس ومِن ثَم اصلاحها بما ينسجم وأصول البحث العلمي، وذلك حفاظاً على الأيدلوجية العامة من أن تؤثر عليها بعض الآراء التي لا تنسجم وأصول المنطق؛ إلاّ أنها لم توفق جيداً لمغامراتها في كثير من بديهيات البحث ومسلماته، هذا ولغرض الحفاظ على الهدف الأكبر لهذه المدارس ضحى بعضهم ببعض النظريات المتهافتة وذلك لكسب الجولات القادمة من المناظرات والبحوث التي تقدمها دوريات هذه المدارس، وعلى مدى أجيال من الكتّاب وأصحاب الفنون المنتمين لهذه المدرسة الكلامية، فقد تصدى الإمام السندي إلى الرد على حديث عائشة والذي نفت فيه وصية النبي لعلي فقال: ولا يخفى أن هذا لا يمنع الوصية قبل ذلك ولا يقتضي أنه مات فجأة بحيث لا يتمكن من الوصية ولا نتصور فكيف وقد علم أنه (ص) علم بقرب أجله قبل المرض ثم مرض أياماً[1].

إلاّ إنّ البعض تعهد بالرد بصورة غير مباشرة وعلى لسان بعض الصحابة، فناقض ما رواه البخاري من أن عائشة قالت إنها آخر العهد برسول اللّه (ص) وأنه مات في حجرتها وكان متكئاً على صدرها فخرجت روحه، حيث روى الحافظ

---

(١) سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي وحاشية الإمام السندي ج ٦ ص ٢٤١ دار الكتب العلمية.

الهيثمي ما أخرجه عن أم سلمة قالت والذي أحلف به إن كان علي لأقرب الناس عهداً برسول الله (ص) قالت: عدنا رسول الله (ص) غداة بعد غداة يقول جاء علي مراراً قالت وأظنه كان بعثه في حاجة، قالت فجاء بعد فظننت أن له إليه حاجة، فخرجنا من البيت فقعدناعند البيت وكنت من أدناهم إلى الباب فأكب عليه علي فجعل يساره ويناجيه، ثم قبض (ص) من يومه ذلك وكان أقرب الناس به عهداً[1].

وبهذا تجابه هذه المدارس بتيارات أقوى، فبين معارض ديني كالسيدة أم سلمة تروي خلاف ما روته السيدة عائشة فيتهافت حديثها، وبين معارض علمي وإن كان منتمياً لمدرستها إلاّ إنه رافض لبعض المواقف السياسية غير المسؤولة.

نصوص لا تقبل التأويل:

قدّم المشروع النبوي المبارك جملة من النصوص غير القابلة للتأويل، تؤكد خلافة علي بن أبي طالب داعمةً بذلك النصوص النبوية الأخرى التي ستُقتحم بتأويلات المدارس الفكرية التالية، هادمةً لجميع مبتنيات هذه المدارس منذرةً بأن آخر ما يقدّمه البرنامج الإلهي للاعلان عن اسم الخليفة، هي هذه الترتيبات النبوية الموروثة على شكل نصوص صحيحة صريحة، وهي الفرصة الأخيرة التي ستعطيها أطروحة المشروع النبوي في عمليات منشّطةً تعين الأمة على الصمود أمام التوجهات التأويلية للنصوص المحمدية، بعدها لم يبق مندوحة للأمة أن تعتذر في تبني هذه المدارس التأويلية والتزام مواقفها، وسنلقي الضوء على جملة من هذه النصوص وذلك بسردها دون الحاجة إلى تفسيرها والتعليق عليها، فإن القارىء سيفهم ما تقصده مهما كانت المستويات الثقافية والنظريات الفكرية التي ينتمي إليها:

١ ـ ففي مصنف الصنعاني قال: عن عبدالله بن مسعود قال: كنت مع النبي

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ج ٩ ص ١١٢ .

(ص) ليلة وفد الجن قال فتنفس فقلت: ما شأنك يا رسول اللّه، قال: نعيت إليَّ نفسي يا ابن مسعود، قلت: فاستخلف قال: من؟ قلت: أبو بكر، قال: فسكت، ثم مضى ساعة ثم تنفَّس، قال: فقلت: ما شأنك؟ قال: نعيت إليَّ نفسي يا ابن مسعود قال: قلت فاستخلف قال: من؟ قلت: عمر، قال فسكت ثم مضى ساعة ثم تنفس قال: فقلت: ما شأنك؟ قال نعيت إليَّ نفسي يا ابن مسعود قال: قلت فاستخلف قال: من؟ قال: قلت: علي بن أبي طالب، قال: أما والذي نفسي بيده لئن أطاعوه ليدخلنَّ الجنة أجمعين أكتعين[1].

٢ ـ حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم: عن الحارث بن حصيرة عن القاسم بن جندب عن أنس، قال: قال رسول اللّه (ص): يا أنس اسكب لي وضوءاً ثم قام فصلى ركعتين، ثم قال يا أنس أول من يدخل عليك هذا الباب أمير المؤمنين وسيد المسلمين وقائد الغرّ المحجلين، وخاتم الوصيين. قال أنس: قلت اللهم اجعله رجلاً من الأنصار وكتمته. إذ جاء علي فقال: من هذا يا أنس؟ فقلت عليّ، فقام مستبشراً فاعتنقه ثم جعل يمسح عرق وجهه بوجهه، ويمسح عرق علي بوجهه. قال علي: يا رسول اللّه لقد رأيتك صنعت شيئاً ما صنعت بي من قبل؟ قال وما يمنعني وأنت تؤدي عني، وتسمعهم صوتي، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدي[2].

٣ ـ وفي خصائص أمير المؤمنين للحافظ النسائي: عن عبداللّه بن بريدة عن أبيه قال: بعثنا رسول اللّه (ص) إلى اليمن مع خالد بن الوليد وبعث علياً رضي اللّه عنه على جيش آخر وقال: إن التقيتما فعلي ـ كرم اللّه وجهه ـ على الناس وإن تفرقتما فكل واحد منكما على جنده.

قال بريدة فلقينا بني زيد من أهل اليمن وظهر المسلمون على المشركين، فقتلنا

---

(١) المصنَّف للحافظ أبي بكر الصنعاني ج ١١ ص ٣١٧ المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

(٢) حلية الأولياء لابن نعيم الأصفهاني ج ١ ص ٦٣ .

المقاتلة وسبينا الذرية فاصطفى علي جارية لنفسه من السبي، فكتب بذلك خالد بن الوليد إلى النبي (ص) وأمرني أن أنال منه، قال: فدفعت الكتاب إليه ونلت من علي رضي اللّه عنه فتغير وجه رسول اللّه (ص) فقلت: هذا مكان العائذ بك يا رسول اللّه بعثتني مع رجل وأمرتني بطاعته فبلّغت ما أُرسلت به فقال رسول اللّه (ص) لي: لا تقعن يا بريدة في علي فإن علياً مني وأنا منه وهو وليكم بعدي[1].

هذه جملة من الأحاديث النبوية، وهي نصوص صحيحة صريحة، وضعها النبي (ص) مؤيدة لما أورده من نصوص أخرى شاركت في دعم البرنامج الإلهي للخلافة الشرعية، وأسهمت في صد الهجمة التأويلية للنصوص النبوية، والتي استخدمت جهودها من أجل ايقاف المد التثقيفي الذي أحدثته النصوص النبوية في تثبيت شرعية الخلافة الإلهية.

اللمسات الأخيرة للمشروع المحمدي:

أحسَ النبي (ص) بخطر التيار المضاد الذي يتوثب للانقضاض على الترتيبات التي وضعها من أجل تعيين الخليفة الشرعي، وخشي أن تكون التيارات السياسية قد أخذت ترتيباتها في سبيل انجاح مهمتها السياسية، فراح (ص) يحث الأمة أن تلتزم بأطروحته التي قدّمها لغرض تعيين الخليفة الشرعي، وأخذ التدابير اللازمة على اقرار خليفته في جمع من المسلمين وهو على فراش الموت، فحاول أن يضع اللمسات الأخيرة على مشروعه الذي كُلّف بتبليغة، وهو تعيين عليٍ من بعده وبحضور جمهور المسلمين، إلاّ أن التيار السياسي المناهض لهذا المشروع تحرّك بكل ثقله، والنبي بعد لما يفارق الدنيا، محاولاً تطويق ما سيتركه النبي من وصيته الخطية التي تقيّد جميع مشاريعه وتكبح جماح طموحاته، فوقف بوجه النبي معارضا معلناً مناهضته لأية وصية تتعهد بذكر الخليفة الشرعي، متحدياً أي جهد يقف أمامه ومهما كانت جهة

(١) خصائص أمير المؤمنين للنسائي ص ١٦٧ .

صدوره، فإن الظرف السياسي الطارئ سيزحف على جميع المشاريع السياسية، ويطيح بكافة الترتيبات التي اتخذتها قواها، لذا عاجلت النبي بالوقوف في وجهه حتى اتهمته بالهجر وعدم وعي ما يقوله وما يكتبه، ولما رأى النبي (ص) خطورة الموقف وتكالب التيارات السياسية وقد ضربت طوقاً شديداً على أي تصرف يصدر من النبي، وأقامت عنده تراقب اي تحرك لغير صالحها، فقد رأى النبي حراجة الموقف وأن جهات سياسية مستعدة لضرب أي جهد يصدر منه بلْ اخفاءه، حتى لو كلف الأمر إلى تمزيق الأمة ونشوب الفتنة، ورأى أن وصيته ستكون بين أمرين لا ثالث لهما، إما إخفاؤها تماماً عن أعين الأمة، وإما طعن ما ورد فيها بأن النبي (ص) ما كتب هذه الوصية إلا وهو في حالة لا يعي ما يقول، فإن مرضه جعله يهجر في قوله، وستزحف هذه التهمة المفتعلة إلى كل حديث قاله في حق الخليفة الشرعي، بل سيكون تفريط القوى السياسية المناهضة للموروث النبوي بأنه ما صدر إلا عن رجل تنتابه حالة الهجر والجنون فحسبنا كتاب اللّه، لذا أعرض النبي ـ بأبي وأمي ـ بعدما رأى شدة الموقف وحراجته عن وصيته الخطية، واكتفى بما تركه للأمة من موروثه المبارك، راجياً من الأمة حفظهُ أمانةً إلهية مصونةً.

فقد روى البيهقي في دلائل النبوة عن سليمان بن أبي مسلم قال: سمعت سعيد بن جبير يقول: سمعت ابن عباس يقول: يوم الخميس... وما يوم الخميس ثم بكى حتى بل دمعه الحصى. قال: قلت يا ابن عباس، وما يوم الخميس قال: اشتد برسول اللّه (ص) وجعه قال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً.

قال: فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا ما شأنه أهجر؟ استفهموه. قال فذهبوا يعيدون عليه. قال دعوني فالذي أنا فيه خيرٌ مما تدعونني إليه. قال وأوصاهم عند موته بثلاث فقال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم. قال: وسكت عن الثالثة أو قال فنسيتُها، هذا لفظ حديث علي بن المديني، وهو أتم، زاد عليٌ: قال سفيان إنما زعموا أراد أن يكتب فيها

استخلاف أبي بكر!!!

ولا يخفى أن الأمر الثالث الذي زعموه لا يتماشى وتطلعات جبهة السقيفة فلو كان الأمر كما زعموا، وهي الوصية باستخلاف أبي بكر، فما الذي دعا عمر أن يتصدى للوصية وينهى عن كتابة الكتاب؟ وهو الذي بذل وسعه من أجل استخلاف صاحبه.

وعن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس قال: لما حُضِر رسول الله (ص) وفي البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب فقال النبي (ص) هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فقال عمرك إن رسول الله (ص) قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت، واختصموا فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم رسول الله (ص)، ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله (ص) قال النبي (ص) قوموا. قال عبدالله: فكان ابن عباس يقول إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله (ص) وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم[1].

وأخرجه البخاري عن سليمان الأحول عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وأخرجه بطريق آخر: عن علي بن عبدالله عن عبدالرزاق عن معمر عن الزهري عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس[2] مثله.

هذا ما كان من وداع النبي لأصحابه دعاهم إلى السعادة والكمال فاختلفوا وتشاجروا، وهو لا يزال بعدُ بين ظهرانيهم وودعهم والألم يحيطه من كل مكان لما رأى أصحابه قد اختلفوا بحضرته فكيف في غيبته؟ وهل ينبغي لهم أن يختلفوا بين يدي رسول الله؟

---

(١) دلائل النبوة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ج ٧ ص ١٨٣ دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٥م .

(٢) انظر البخاري ج ٣ ص ٩١ .

وأخيراً... هل إحتج علي بن أبي طالب بقرآنية الإمامة، ونبوية النصوص؟

قلنا في الفصول السابقة أن تسابق الأحداث والتهالك على القرار النهائي هو من شأن الكتل السياسية التي انبثقت إبّان عهد البعثة، وبعضها تنامى في غضون التدافعات السياسية الطارئة، ومنها ما حل طارئاً بُعيدَ وفاة النبي، وقسمٌ آخر أفرزتهُ الحالة المتشددة والأساليب المنفعلة لبعض الكتل السياسية، وكان الموقف منفلتاً نافجاً حضنيه لاستقبال التكتلات السياسية واستقطاب قوى الصراع، منذراً بانفجار يطيح برسالة النبوة ويهدد الأمة بالارتداد، وكانت ألقوى والحركات السياسية قد اتخذت ما يلزم لخلق هذه الفتنة الصماء، ثم رفعتها شعاراً للانقضاض على الشرعية، إلى هنا لم يبق الموقف غامضاً، فتهافتات المواقف المتشنجة تؤدي بالحدث الإسلامي إلى حرفه جانباً، لتحل بدله الآراء المنتخبة والمخبأة خلف الجدران، والأطروحات التبريرية جاهزة لتقديمها للأمة أكلة معسولة تلوكها صباح مساء، والمحترفون؛ يُخبّئون في أعبائهم الفارغة كلائش للاعتذار، تشهر في وجهِ من أراد الحقيقة، إذن ما الذي تنتظره من ابن أبي طالب أن يفعله أيها السياسي الذي تأبى أن يتحرك وحيداً في خضَم هذه الظروف السياسية المتربصة له بالانقضاض؟ وما الذي ترجوه أنت أيها المؤرخ أن يتخذه ابن أبي طالب وبين يديك نصوصٌ حُبلى بالنزاعات متوثبة لجولة من التخاصم تُسحَقُ فيها كل الثوابت والبديهيات.

وأنت أيها الباحث، تملك موروثاً نبوياً من النصوص تؤكد خلافة ابن أبي طالب وقد وصلت إليك بعد أكثر من عشر قرون، فكيف بمن شهد النبي وهو يعتلي منبر ذلك الغدير الحاشد من المسلمين وهو يقول: ((من كنتُ مولاه فهذا علي مولاه)) وهل غاب عن أحد منهم ذلك المشهد الذي يُمثِلُ فيه عليٌ أمام النبي ليُسمعه كلمات ربه فيه: ((يا علي لا يؤدي عني إلاّ أنا أو أنت)) وهل نسي المسلمون

كيف يُبعث هارون موسى ليحل في هارون محمد بقوله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى؟ كل هذا يقف البعض ليقول بملء شدقيه: وهل احتج عليٌ بهذه النصوص؟

نقول: نعم وألف نعم.. قد احتج ابن أبي طالب في الوقت الذي احتاجت الأمة إلى سماع هذه النصوص، ورددها بعد ما احتاجت تلك النصوص إلى أن تُبعث من جديد، أما حينما كانت النصوص، حيّةً طريةً في أذهان الأمة فلا حاجة إلى ترديدها... وهل إعادتها في تلك الظروف المتشنجة والمتوثبة على انكار أي نص يزاحمها في تحركها ثم يطعن في شرعيتها إلاّ مجازفةً في تلك النصوص النبوية المقدسة؟

وهل من الحكمة أن يعرَض عليٌ هذه النصوص إلى الانكار بل الاخفاء بمجرد احتجاجه في تلك الأيام المعدودة لترتيب تشكيلة الحكم الجديدة، القائمة على انقاض آيات اللّه ونصوص نبيه؟ وهل خفي على المعترض ما احتج به ابن أبي طالب من النصوص؟ وهل كل ما لم يسمعه يدخله في حيز الانكار؟ فهل عدم الوجدان دليل على عدم الوجود؟

أم ماذا؟!!




الباب الثاني

عقيدة الإمامية

في الإمام المهدي عليه السلام




تعتقد الإمامية بظهور المهدي من آل محمد (ص) المشخَّص باسمه واسم آبائه الطاهرين: محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم أفضل صلوات اللّه وتحياته.

لقد تعزز اعتقاد الإمامية بالمهدي فضلاً عما ورد في روايات متواترة، هو إيمانهم بأن الأرض لن تخلو عن حجة يعمل بكتاب اللّه ويقيم حدوده يبيّن معالم دينه، فما في بحار المجسلي عن الصادق عن آبائه عن علي عليه السلام أنه قال في خطبة له على منبر الكوفة: اللهم إنه لا بد لأرضك من حجة لك على خلقك يهديهم إلى دينك ويعلمهم علمك لئلا تبطل حجتك ولا يضل تبع أوليائك بعد إذ هديتهم به إما ظاهر ليس بالمطاع أو مكتتم أو مترقب إن غاب عن الناس شخصه في حال هدنتهم فإن علمه وآدابه في قلوب المؤمنين مثّبتة فهم بها عاملون[1].

ومن هذه الفلسفة الإمامية تكبر فكرة المهدي على مرور الزمن الممتد بالظلم والطغيان لتعم شعوب الأرض المقهورين، بعدما أكدتها الفطرة الإنسانية السليمة بلزوم ظهور المصلح والمنقذ في آخر الزمان، إلاّ أن أطروحة المهدي الإمامية عززتها رؤية إسلامية واضحة، ونظرة محمدية لمستقبل الأحداث، مشحونة بأدلة قرآنية ثابتة وسنة نبوية رشيدة ترتستم خطى المسيرة البشرية الممتدة إلى ما شاء اللّه من القهر والامتهان والانحراف و«ليس المهدي تجسيداً لعقيدة إسلامية ذات طابع ديني فحسب بل هو عنوان لطموح اتجهت إليه البشرية بمختلف أديانها ومذاهبها وصياغة لالهام

---

(١) البحار ٢٣ / ٤٩ دار الكتب الإسلامية طهران .

فطري أدرك الناس من خلاله ـ على الرغم من تنوع عقائدهم ووسائلهم إلى الغيب ـ إن للإنسانية يوماً موعوداً على الأرض تحقق فيه رسالات السماء بمغزاها الكبير وهدفها النهائي... وإذا كان فكرة المهدي أقدم من الإسلام وأوسع منه فإن معالمهما التفصيلية التي حددها الإسلام جاءت أكثر اشباعاً لكل الطموحات التي انشدت إلى هذه الفكرة منذ فجر التاريخ الديني.. وذلك لأن الإسلام حوّل الفكرة من غيب إلى واقع ومن مستقبل إلى حاضر ومن التطلع إلى منقذ تتمخض عنه الدنيا في المستقبل البعيد المجهول إلى الإيمان بوجود المنقذ فعلاً... فلم يعد المهدي ﷺ فكرة تنتظر ولادتها ونبوءةً تتطلع إلى مصداقها بل واقعاً قائماً تنتظر فاعليته وإنساناً معيناً يعيش بيننا بلحمه ودمه نراه ويرانا ويعيش مع أمالنا وآلامنا...»[1].

والإمامية تصدت للأطروحة القرآنية المهدوية بما هي نزعة إصلاح وانقاذ لأمة تعاني من حيث الظالمين، وقد برمجتها أحاديث النبي والأئمة ﷺ بما ينسجم ومفهوم التغيير الإسلامي ومنهجية الاصلاح المحمدي، فمن تلك الآيات القرآنية ما فسّره أهل البيت ﷺ من أن نزولها كان في المهدي وأصحابه فعن الصادق ﷺ «في معنى قوله عزوجل ﴿وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ قال نزلت في القائم واصحابه»[2].

على أن الفهم الإمامي لفكرة المهدي لم يكن استجابة لرغبة عاطفية كانت ردة فعل لظروف الحرمان الاجتماعي، ولمحاولات القهر السياسي، بل هي فلسفة واعية ناضجة تنبثق من الوعي الإمامي لفلسفة الإمامة ولنيل اللطف الإلهي الموصل إلى أرقى درجات اكتمال الشخصية المؤمنة «... والذي يدل على أنها لطف ـ أي الإمامة ـ ما علمناه بجريان العادة: من أن الناس متى كان لهم رئيس منبسط اليد قاهر

---

(١) بحوث حول المهدي للشهيد الصدر رض مطبعة الميناء بغداد ١٩٧٨م .

(٢) الغيبة ـ محمد بن إبراهيم النعماني ص ٣٤٠ مكتبة الصدوِ طهران .

عادل يردع المعاندين ويقمع المتغلبين وينتصف للمظلومين من الظالمين اتسقت الأموروسكنت الفتنة ودرَت المعائش وكان الناس مع وجوده إلى الصلاح أقرب ومن الفساد أبعد.

ومتى خلوا من رئيس ـ صفته ما ذكرناه ـ تكدرت معائشهم وتغلب القوي على الضعيف... وكانوا إلى الفساد أقرب ومن الصلاح أبعد وهذا أمر لازم لكمال العقل من خالف فيه لا تحسن مكالمته»[1] إذن فلم يكن الحرمان السياسي والاجتماعي سبباً في فكرة المهدي كما ادعاها البعض، ولعل محاولات يائسة لصرف الأمة عن أقدس عقيدة؛ نجحت في جمع شتات الأمة الإسلامية المتناثر ولمّ شعثها ولم تجد الأمة ما تتوسل به في تأليف فرقتها ووحدة كلمتها بأروع ما تجده في فكرة الإمام المهدي، فقد اتفقت كتب الفريقين وتسالمت على وجوب ظهور المصلح والمنقذ بعدما تكالبت الفتن وتآزرت قوى الشر للوقعية برسالة السماء، وإذا بالأستاذ أحمد أمين قد تورط في طرح آراء لم يوثّقها بدليل واضح ولا برهان بيّن فيطالعنا بقوله «وفكرة هذه ـ أي فكرة المهدي ـ لها أسباب سياسية واجتماعية ودينيّة ففي نظري أنها نبعت من الشيعة وكانوا هم البادئين باختراعها وذلك بعد خروج الخلافة من أيديهم وانتقالها إلى معاوية وقتل علي وتسليم الحسن الأمر إلى معاوية.. فرأى رؤساء الشيعة أن هذا قد يسبب اليأس في نفوس أتباعهم وخافوا أن يذوب حزبهم فكان منهم بعيدو النظر... واستغل هؤلاء القادة المهرة أفكار الجمهور الساذجة المتحمسة للدين والدعوة الإسلامية، فأتوهم من هذه الناحية الطيبة الطاهرة ووضعوا الأحاديث يروونها عن رسول الله (ص) في ذلك وأحكموا أسانيدها وأذاعوها من طرق مختلفة. وكنت أنتظر من المعتزلة كشف النقاب عن هذا الضلال إلاّ إني مع الأسف لم اعثر لهم على شيء كثير في هذا الباب ولكني أعرف أن الزيدية وهم فرع من فروع الشيعة الذين تأثروا بتعاليم المعتزلة لأن زيداً رئيسهم تتلمذ لواصل بن

---

(١) تخليص الشافعي للشيخ الطوسي ج ١ ص ٧٠ .

عطاء زعيم المعتزلة، كانوا ينكرون المهدي والرجعة انكاراً شديداً»[١] هذا ما في جعبة الرجل عن فكرة المهدي، وقد بنى أفكاره على اتهام رجال الشيعة بالوضع والكذب، ولا نريد أن نستعرض رجال الشيعة ووثاقتهم حتى عند أهل السنة فإن المقام لا يسمح بتفصيل أكثر، لكننا نطمئن «المؤرخ الكبير» الأستاذ أحمد أمين وغيره أن هؤلاء ـ قادة الشيعة ـ هم ممن وثقتهم المدونات الرجالية لأهل السنة، وقد شهدت بفضلهم فضلاًعن وثاقتهم وورعهم، ولقد خفي على أحمد أمين وغيره ما روته كتب قومه في المهدي، وما أكدته صحاحهم، ففي سنن ابن ماجة عن إبراهيم بن محمد بن الحنفية عن أبيه عن علي قال: قال رسول الله (ص) المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة[٢].

وفيه أيضاً عن سعيد بن المسيب قال كنا عند أم سلمة فتذاكرنا المهدي فقالت سمعت رسول الله (ص) يقول المهدي من ولد فاطمة[٣] ومثله ما وراه أبو داود في سننه[٤].

وما أخرجه نعيم بن حماد في كتاب الفتن عن عائشة قالت قال رسول الله (ص) المهدي رجل من عترتي يقاتل على سنتي كما قاتلت أنا على الوحي قال: وهو حديث جيد[٥].

على أن الأستاذ أحمد أمين آسف على عدم عثوره لما يكشف النقاب عن هذا ـ الضلال ـ من قبل رجال المعتزلة ولا أدري لماذا توسل برجال المعتزلة في كشف ما

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين ج ٣ ص ٣٤٣ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

(٢) شرح سنن ابن ماجة للإمام السندي ٢ : ٥١٩ باب خروج المهدي دار الجيل بيروت .

(٣) انظر شرح سنن أبي داود للبستي ٤ : ٣١٧ كتاب المهدي دار الكتب العلمية بيروت .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المهدي المنتظر لابن الفضل عبدالله الصديق الحسني الادريسي الحنفي ص ٥٧ ـ عالم الكتب بيروت طبعة أولى ١٩٨٤ .

خفي عليه وهو يجادل به، ويبدو لي أنه قد فقد الثقة بقوله هذا وهو رد فكرة المهدي لعدم امتلاكه الدليل القاطع لما يرى بأم عينيه من تواتر حديثه في كتب القوم ثم مال على الزيدية يستجدي رداً علمياً قاطعاً مشفوعاً بالبرهان فلم يغيثوه فاكتفى بالقول: إن الزيدية... كانوا ينكرون المهدي والرجعة انكاراً شديداً، وأسفي على الأستاذ أحمد أمين أنه لم يحصل حتى من الزيدية ولا دليلاً واحداً لانكار المهدي ليُثبتَه في كتابه لكنني أذكره أن المعتزلة ومن قال بمقالتهم يوجبون نصب الإمام وأنه لطف وقد مرّ ذكر ذلك في مباحث الإمامة، فلا حاجة للتردد في أنهم يقبلون فكرة المهدي أم لا؟ وهي فرع من فروع الإمامة ولا يعني عدم ذكرهم لفكرة المهدي وتعرضهم لها انكاراً بل لعلهم جعلوها من المسلّمات، واكتفوا بالبحث عن وجوب لطف الإمام ووجوب نصبه، لكن ما حال الأستاذ لو قرأ قول ابن أبي الحديد المعتزلي وهو من رؤوس المعتزلة في شرحه على خطبة أمير المؤمنين عن الإمام المهدي قوله: فإن قيل من هذا الرجل الموعود؟ قيل أما الإمامية فيزعمون أنه إمامهم الثاني عشر وأنه ابن أمة اسمها نرجس، وأما أصحابنا فيزعمون إنه فاطمي يولد في مستقبل الزمان لأم ولد وليس بموجود الآن ثم قال: وأما اصحابنا فيزعمون أنه سيخلق اللّه تعالى في آخر الزمان رجلاً من ولد فاطمة عليها السلام ليس موجوداً الآن وينتقم به وأنه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»[1] وهو شبيه بما ذكره عن البخاري بأنه لم يتعرض لأحاديث المهدي لعدم اعتقاده بأصل الفكرة وكأنه لم يقرأ ما ورد في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول اللّه (ص): العجب أن ناساً من أمتي يؤمون البيت لرجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم فقلنا يا رسول اللّه إن الطريق قد يجمع الناس قال نعم فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتّى يبعثهم اللّه على نياتهم وخرج نحوه

---

(١) البحار للمجلسي ج ٥١ ص ١٢١ .

أبو يعلى بإسناد صحيح[١] وسأطلعك عزيزي القارئ على ما ذكره علماء السنة عن المهدي المنتظر حتى تحكم على ما ادعاه أحمد أمين وأمثاله بأن الشيعة الإمامية هم الذين وضعوا فكرة المهدي وافتروا بأحاديث مكذوبة على رسول اللّه، وسأريك من الوهنِ وقصر النظر في حملات كهذه مسعورة مشبوهة، وسنحاججه بما ذكره علماء السنة عن المهدي وأخباره، منها ما قاله محمد عبدالمحسن العباد المدرس في جامعة المدينة المنورة «إن بعض الكتّاب في هذا العصر أقدم على الطعنِ في الأحاديث الواردة في المهدي بغير علم بل بجهل أو بالتقليد لاحد لم يكن من أهل العناية بالحديث»[٢] ثم عدّ ستّا وعشرين من الصحابة كلهم رووا عن النبي (ص) أخبار المهدي ثم عدّ أسماء المؤلفين الذين كتبوا عن المهدي من أهل السنة وهم أبو بكر بن خيثمة - الحافظ أبو نعيم - السيوطي في كتاب العرف الوردي في أخبار المهدي - عمادالدين ابن كثير في كتابه الفتن والملاحم - ابن حجر المكي في كتابه القول المختصر في علامات المهدي المنتظر - علي التقي الهندي صاحب كنز العمال - ملا علي قاري في كتابه المشرب الوردي في مذهب المهدي - مرعي بن يوسف الحنبلي في كتابه فوائد الفكر في ظهور المهدي المنتظر - محمد بن علي الشوكاني في كتابه التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي والمسيح ومحمد بن علي الصنعاني، ثم ذكر بعض الذين حكوا تواتر أحاديث المهدي منهم الحسن بن محمد بن الحسين الأبري - محمد البرزنجي - محمد السفاريني - محمد بن علي الشوكاني - الشيخ الصدّيق حسن القنوجي - محمد بن جعفر الكتاني. هذه نبذة من محاضرة الشيخ العباد، ثم علق بعد ذلك رئيس الجامعة الإسلامية عبدالعزيز بن عبداللّه بن باز يقول «أمر المهدي أمر معلوم والأحاديث فيه مستفيضة متعاضدة وقد حكى غير واحد من أهل العلم تواترها إلى أن قال... وقد

---

(١) المهدي المنتظر لأبي الفضل بن الصديق الادريسي ص ٥٨ .

(٢) مجلة الجامعة الإسلامية - المملكة العربية السعودية العدد الثالث السنة الأولى شباط ١٩٦٩ م ١٣٨٨ هـ .

أخبر (ص) بهذا الأمر عن الدجال وعن المهدي وعن عيسى بن مريم ووجب تلقي ما قاله بالقبول والإيمان بذلك؛ والحذر من تحكيم الرأي والتقليد الأعمى الذي يضر صاحبه ولا ينفعه لا في الدنيا ولا في الآخرة...»[١].

كما ذكر الشيخ محمد صديق حسن البخاري في كتابه الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ما نصه: المهدي الموعود المنتظر الفاطمي هو أولها والأحاديث الواردة فيه على اختلاف رواياتها كثيرة جداً تبلغ حد التواتر..»[٢].

ثم ذكر أحمد بن محمد الصديق ما نصه «وقد كثر في الناس اليوم ممن يخفى عليه هذا التواتر ويجهله ويبعده عن صراط العلم جهله، ويضله من ينكر ظهور المهدي وينفيه ويقطع بضعف الأحاديث الواردة فيه مع جهله بأسباب التضعيف وعدم ادراكه معنى الحديث الضعيف وتصور مبادئ هذا العلم الشريف وفراغ جرابه من احاديث المهدي الغنية بتواترها عن البيان لحالها والتعريف؛ وإنما استناده في انكاره مجرد ما ذكره ابن خلدون في بعض أحاديثه من العلل المزورة المكذوبة ولمز به ثقات رواتها من التجريحات الملفقة المقلوبة...»[٣] هذا ما أردت أن أُقدّمهُ لك عزيز القارئ كنموذج من أمثال هذه الكتابات حتى لا تتكلف الرد ولا يشق عليك التحقيق بما ورد عن النبي وأجمعت عليه الأمة من حتمية فكرة المهدي وغير ذلك مماراة وعناد لايستحق الوقوف عندها. هذا وتعتقد الإمامية أن اللطف في غيبته هو عينه في ظهوره، ولا يضر طول غيبته أو قصرها، ولا يُنقض عليهم بأن النبي (ص) إنما استتر بعد أداء الأحكام وبيانها ولم يتطاول عليه العهد في الاستتار في غار حراء

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ـ الشيخ محمد صديق حسن البخاري ص ٣٩٠ مطبعة المدني ـ القاهرة .

(٣) إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون ـ أحمد بن محمد الصديق ٤٤٣ مطبعة الترقي الشام ١٣٤٧ هـ .

إلاّ مدة يسيرة جداً، فردت الإمامية على لسان شيخ الطائفة ما نصه «أنه ليس الأمر على ما قالوه لأن النبي (ص) إنما استتر في الشِعب والغار بمكة وقبل الهجرة وما كان أدّى (ص) جميع الشريعة فإن أكثر الأحكام ومعظم القرآن نزل بالمدينة فكيف ادعيتم أنه كان بعد الأداء؟.. فأما التفرقة بطول الغيبة وقصرها فغير صحيحة لأنه لا فرق في ذلك بين القصير المنقطع والممتد المتمادي، لأنه إذا لم تكن في الاستتار لائمة على المستتر إذا أحوج إله جاز أن يتطاول بسبب الاستتار كما جاز أن يقصر زمانه»[١].

ولم يُشكل على الإمامية بعدم امكان أن يعمّر الإنسان هذا العمر المتمادي لأكثر من ألف سنة، حيث رُدّ بأن العلم لا يعارض بقاء الإنسان مدة طويلة جداً فيما إذا أمكن للعلم أن يرفع ما يعرض على الإنسان من موت خلاياه بعروض بعض الأمراض وامكانية بقاء الخلية الحيّة إلى ما شاء اللّه من السنين حيث يتصدى السيد صدر الدين الصدر وهو من علماء الإمامية للرد على عدم امكان بقاء الإنسان أكثر من العمر الطبيعي بقوله: «ولا اشكال في أن رعاية قوانين حفظ الصحة وما قرره الشرع والطب في معيشة الإنسان وتدرجه في الحياة لها دخل عظيم في صحة مزاجه وطول عمره وهكذا العكس، ولذا نرى أن الوفيات في هذا الزمان في بعض الممالك أقل من السابق والمعمرين فيها أكثر من ذي قبل وما هو إلاّ لشدةِ مراعاة مقررات حفظ الصحة فعلاً أكثر من السابق ومن هنا أسست شركات مهمة تضمن حياة الإنسان إلى أمد معلوم، وزمان معين تحت مقررات خاصة وحدود معينة جارية على قوانين حفظ الصحة، ونرى أثرها بالوجدان من اختلاف الصحة وطول الأعمار وقصرها باختلاف كمية المعيشة والمكان الذي يعيش فيه أعدل شاهد وأصدق حاكم على ما قلنا»[٢] على ان طول العمر بهذا القدر لم يكن بدعاً من القول حيث

---

(١) تلخيص الشافي للشيخ الطوسي ج ٤ ص ٣١٦ .

(٢) المهدي ـ السيد صدر الدين الصدر ص ١٣٧ دار الزهراء ـ بيروت ١٩٧٨م .

قالت أمة من المسلمين بحياة الخضر وبقائه ونبوته وقد تطاولت عليه آلاف السنين. فابن عساكر أخرج عن ابن اسحاق قال حدثنا أصحابنا:

ان آدم قد دعا اللّه أن يطيل عُمَر الذي يدفنه إلى يوم القيامة فلم يزل جسد آدم حتى كان الخضر عليه السلام هو الذي تولى دفنه فانجز اللّه ما وعده فهو يحيا ما شاء اللّه له أن يحيا[١].

فإذن لم تكن الإمامية قد تفردت في القول بامكان طول العمر لحدود غير طبيعية، ومن هنا أمكن القول بأنه «لا ينفرد الشيعة الاثنى عشرية بمثل عقيدتهم في المهدي إذ يشاركهم المسلمون في عقائد نص عليها القرآن ولم تدع حجة لمرتاب»[٢].

أخبار المهدي لدى الإمامية:

نقلت لنا كتب الإمامية تراثاً مهدوياً هائلاً من الأخبار الصحيحة والصريحة، وحرصت هذه الأخبار على طرح الفلسفة الإمامية لفكرة المهدي، وتفاصيل خاصة، بما يضمن ايضاحاً لأطروحة الإمامية واستعلاماً لجزئيات الحديث ومبرراته، وحسب تبويب مبرمج تكفلت بها كتب الاختصاص في موضوع الغيبة. ونحن ذاكرون لبعضها كنموذج للطرح الإمامي لفلسفة الغيبة حتى نظرية الظهور، تاركين الباقي لبحوث الاختصاص ومظانّ الحديث: روي عن النبي (ص) لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لطوّل اللّه ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً[٣].

عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول اللّه (ص) لفاطمة في مرضه:

---

(١) الدر المنثور ـ للسيوطي ج ٥ ص ٢٣٤ .

(٢) نظرية الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية ـ أحمد محمود صبحي ص ٤١٣ عن كتاب الإمام المنتظر.

(٣) الغيبة للشيخ الطوسي ص ٣٦١ إصدار مكتبة نينوى الحديثة / طهران.

«««والذي نفسي بيده لا بد لهذه الأمة من مهدي وهو والله من ولدك»»[1].

عن الأعمش قال الصادق ﷺ: لم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة الله ظاهر مشهور أو غائب مستور ولا تخلوا إلى أن تقوم الساعة من حجة لله فيها ولولا ذلك لم يعبد الله قال سليمان: فقلت للصادق ﷺ فكيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور؟ قال كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب[2].

وعن عمر بن حنظلة عن أبي عبد الله ﷺ قال: خمس قبل قيام القائم من العلامات: الصيحة، والسفياني، والخسف بالبيداء، وخروج اليماني، وقتل النفس الزكية[3].

عن داود بن كثير عن أبي عبدالله ﷺ في قول الله عزّوجلّ ﴿هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب﴾ قال من أقر بقيام القائم أنه حق[4].

وعن الباقر عن آبائه ﷺ قال: قال رسول الله (ص) أفضل العبادة انتظار الفرج[5].

وعن زرارة قال: إن للقائم غيبة قبل ظهوره قلت لِمَ؟ قال: يخاف القتل[6].

ثم قال المجلسي تعليقاً على ما أورده على هذه الأخبار قال: أقول:قال الشيخ ـ أي الطوسي ـ لا علة تمنع من ظهوره ﷺ إلاّ خوفه على نفسه من القتل لأنه لو كان غير ذلك لما ساغ له الاستتار وكان يتحمل المشاق والأذى فإنّ منازل الأئمة وكذلك الأنبياء ﷺ إنما تعظم لتحملهم المشاق العظيمة في ذات الله تعالى: فإن قيل هلاّ منع

---

(١) البحار ـ المجلسي ج ٥١ ص ٦٧ مؤسسة الوفاء بيروت .

(٢) البحار ـ المجلسي ج ٥٢ ص ٩٢ مؤسسة الوفاء بيروت .

(٣) الغيبة ـ للطوسي ص ٣٦٧ .

(٤) البحار ج ٥٣ ص ١٣٤ و ١٢٥ على التوالي .

(٥) نفس المصدر.

(٦) نفس المصدر السابق ص ٩٨ .

اللّه من قتله بما يحول بينه وبين من يريد قتله؟ قلنا المنع الذي لا ينافي التكليف هو النهي عن خلافه والأمر بوجوب اتّباعه ونصرته والزام الانقياد إليه وكل ذلك فعله تعالى وأما الحيلولة بينهم وبينه فإنه ينافي التكليف وينقض الغرض بالتكليف استحقاق الثواب والحيلولة تنافي ذلك وربما كان في الحيلولة والمنع من قتله بالقهر مفسدةً للخلق فلا يحسن من اللّه فعلها[1].

هذا ما أمكننا عرضه من الأخبار وتركنا البقية تطلب من مظانّها.

المهدي عند علماء أهل السنة:

لم تخل كتب حديث الفرق الإسلامية على اختلاف مذاهبها ومشاربها من أخبار المهدي، ونقد اتفقت أكثر هذه الأخبار مع صحاح الإمامية واعتنى بها علماؤهم أيما اعتناء وعدّوه من المسلمات المتواترة بل جعلوا منكرها شاذاً نادراً لا يُلتفت إليه، وأنّى له الانكار وقد وردت من أكابر محدّثي الصحاح وأجلّة علماء المذاهب وثقاة رواة الأخبار، وهل بعد الانكار إلاّ التكذيب لإخبار اللّه تعالى على لسان نبيه الصادق الأمين؟ والتهمة لعلماء الأمة والطعنُ على حملة الحديث؟ حتى شدد العلماء للاخذ برواة الحديث وجعلوا ما رووه دليلاً، ولا يحق لأحد أن يقول برأيه قِبال النصوص الصحيحة الواردة، وقد أثنى على جهود علماء الحديث العلامة القاسمي الشافعي وجعل الرد على حملة الحديث بدون دليل تكذيب لقول رسول اللّه (ص) فقال في كتابه قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث يصف شأن حملة الحديث ورواته ومنزلتهم بقوله... ودفعوا عن الدين وضع الوضاعين وانتحال المفترين وذبّوا الكذب عن كلام الرسول الصادق بما مهدوه من تحري كل راو موافق فدونوا ما سمعوه بالسند فراراً عن الرمي باتباع الأهواء وتحكيم الآراء[2] ثم نقل

---

(١) نفس المصدر .

(٢) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي ص ٦٠ .

قول الإمام الشافعي في لزوم الأخذ بالحديث بقوله: قال الإمام الشافعي رضي اللّه عنه في رسالته الشهيرة ((ليس لأحد دون رسول اللّه (ص) أن يقول إلاّ بالاستدلال ولا يقول بما استحسن فإن القول بما استحسن شيء يُحدِثُه لا على مثال سبق))[١].

وهكذا التزم السلف بسنة رسول اللّه (ص) والتسليم بما ورد عنه ولا مندوحة لأحد بالرأي في مقابل النص فقد نصت الصحاح من الحديث على حتمية المهدي، فقد نقل عن الحافظ أبو الحسين الآبي في مناقب الإمام الشافعي ما نصه: تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى (ص) بمجيء المهدي وأنه من أهل بيته وأنه يملأ الأرض عدلاً وأن عيسى ﷺ يخرج فيساعده على قتل الدجال وأن يؤم هذه الأمةوعيسى خلفه في طول من قصته وأمره[٢].

فما الغرابة في أن يجعل اللّه في المهدي آيةً من طول العمر كما جعله لابن مريم من قبل آية؟ أليس غرض بقائهما إلى آخر الزمان من سنخ واحد، لهدف واحد وفي قضية واحدة لا انفكاك بينهما؟ فلماذا التفريق بين عيسى آخر الزمان ومهدي آخر الزمان؟!

قال السفاريني في كتابه الدرة المضيئة في عقيدة الفرقة المرضية: كثرت الأقوال في المهدي حتى قيل لا مهدي إلاّعيسى، وأنه يخرج قبل نزول عيسى ﷺ وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عدّ من معتقداتهم. ثم ذكر بعض الأحاديث الواردة من طريق جماعة من الصحابة ثم قال: وقد روي عمن ذكر من الصحابة وغير من ذكر منهم بروايات متعددة، وعن التابعين من بعدهم مما يفيد بمجموعه العلم القطعي، فالإيمان بخروج المهدي واجب كما هو مقرر عند أهل العلم ومدوّن في عقائد أهل السنّة والجماعة[٣].

---

(١) المصدر السابق ص ٩٤ .

(٢) المهدي المنتظر لابن الفضل الادريسي ص ٧ .

(٣) نفس المصدر ص ١١ .

وقال المحدث أبو العلاء إدريس بن محمد بن إدريس العراقي الحسيني في تأليف له في المهدي «أحاديث المهدي متواترة أو كادت وجزم بالاول غير واحد من الحفاظ النقاد»[١] وقال الشوكاني في كتابه التوضيح في تواتر ماجاء في المنتظر والدجال والمسيح ما نصه: والأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها: منها خمسون حديثاً فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر وهي متواترة بلا شك ولا شبه بل يصدق وصف التواتر على ما دونها على جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي فهي كثيرة أيضاً لها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك[٢].

وقال العلامة أبو عبدالله محمد مسوس في شرح رسالة ابن أبي زيد ما نصه: ورد خبر المهدي في احاديث، ذكر السخاوي أنها وصلت إلى حد التواتر[٣].

وقد رد علماء السنّة بجميع مذاهبم ما أنكره ابن خلدون من أحاديث المهدي، بل أنكروه عليه شذوذه ومخالفته بقولهم: بأن الأحاديث الواردة فيه على اختلاف روايتها كثيرة جداً تبلغ حد التواتر، وهي عند أحمد والترمذي وأبي داود وابن ماجةوالحاكم والطبراني وأبي يعلى والبزار وغيرهم وأسندوها إلى جماعة من الصحابة، فانكارها مع ذلك لا ينبغي والأحاديث يشد بعضها بعضاً ويتقوى أمرها بالشواهد والمتابعات[٤].

المهدي في الصحاح الستة:

وقبل نقلِ ما ورد في الصحاح من أحاديث المهدي، نودُ الاشارة بالقول إلى

---

(١) المصدر السابق ص ٨.

(٢) المصدر السابق ص ٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٩ .

(٤) نظم المتناثر من الحديث المتواتر ـ محمد بن جعفر الكتاني، انظر المهدي المنتظر ص ١١ .

أن من روى أحاديث المهدي في الصحاح الستة وكتب الحديث وهم عمدة الرواة والمحدثين منهم: أبو سعيد الخدري ـ عبد اللّه بن مسعود ـ علي بن أبي طالب ـ أم سلمة ـ ثوبان ـ عبداللّه بن الحرث بن جزء الزبيدي ـ أبو هريرة ـ أنس بن مالك ـ جابر بن عبداللّه الأنصاري ـ عثمان بن عفان ـ حذيفة بن اليمان ـ جابر بن ماجد الصدقي ـ أبو أيوب الأنصاري ـ قرة المزني ـ أبو عباس ـ أم حبيبة ـ أبو إمامة الباهلي ـ عبداللّه بن عمرو بن العاص ـ عمار بن ياسر ـ العباس بن عبدالمطلب ـ الحسين بن علي ـ تميم الداري ـ عائشة ـ عبدالرحمن بن عوف ـ عبداللّه بن عمر بن الخطاب ـ طلحة بن عبيداللّه ـ علي الهلالي ـ عمران بن حصين ـ عمرو بن مرة الجهني ـ عوف بن مالك ـ أبو الطفيل ـ قيس بن جابر ـ سعيد بن المسيب ـ الحسن ـ قتادة ـ شهر بن حوشب ـ معمر[1].

هذه قائمة من خيار الصحابة، وأجلة التابعين، نتلوها عليك لتُطلعك عن كثب على مدى اهتمام الصحابة وتابعيهم وهم ينقلون للأمة ما ستؤول إليه من النصر والفتح والكرامة، على يد المدخر لاحياء السنة وتجديد الشريعة وايحاء معالم المدين، تصديقاً لقوله تعالى ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾[2] فهل بعد هذا إلاّ التصديق، لخلف النبي المرسل، وأمينه المنتخب ووصيه المدخر؟ ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾[3]، فقد ورد عن:

١ ـ سنن الترمذي:

قال رسول اللّه (ص) لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجلٌ من أهل بيتي

---

(١) نظم المتناثر من الحديث التواتر محمد بن جعفر الكتاني / انظر المهدي المنتظر ص ١١ .

(٢) القصص آية ٥ .

(٣) الأنعام آية ٨٩ .

يواطئ اسمه اسمي[1].

٢ ـ سنن ابن ماجة:

عن علقمة عن عبدالله قال: بينما نحن عند رسول الله (ص) إذ أقبل فتيةٌ من بني هاشم، فلما رآهم النبي (ص) اغرورقت عيناه وتغير لونه، قال: فقلت: ما نزال نرى في وجهك شيئاً تكرهه، فقال: إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً. حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يُعطونَهُ. فيقاتلون فينصرون. فيعطون ما سئلوا. فلا يقبلونه حتى يدفعها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطاً وعدلاً، كما ملؤوها جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج[2].

٣ ـ سنن ابن ماجة:

عن أبي سعيد الخدري: أن النبي (ص) قال يكون في أمتي المهدي إن قصر فسبع وإلاّ فتسع، فتنعم به أمتي نعمة لم ينعموا مثلها قط. تؤتي أكلها ولا تدخر منهم شيئاً والمال يؤمئذ كدوس الرجل فيقول يا مهدي أعطني فيقول خذ[3].

٣ ـ سنن ابن ماجة:

عن علي: قال قال رسول الله (ص) المهدي من أهل البيت يُصلحهُ الله في ليلة[4].

٤ ـ سنن ابن ماجة:

عن سعيد بن المسيب قال: كنا عند أم سلمة فتذاركنا المهدي فقالت سمعت

---

(١) سنن الترمذي ج ٤ ص ٥٠٥ .

(٢) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٣٦٦ ، ص ١٣٦٧ على التوالي .

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٣٦٨ .

رسول اللّه (ص) يقول: المهدي من ولد فاطمة[١].

٥ ـ سنن ابن ماجة:

عن أنس بن مالك قال سمعت رسول اللّه (ص) يقول نحن ولد عبدالمطلب سادةُ أهل الجنة أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي[٢].

٦ ـ سنن ابن ماجة:

عن عبداللّه بن الحرث بن جزء الزبيدي قال: قال رسول اللّه (ص) يخرجُ ناس من المشرق فيواطِئونَ للمهدي (يعني سلطانه)[٣].

٧ ـ صحيح مسلم:

عن جابر بن عبداللّه قال رسول اللّه (ص) يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً لا يعدّه عداً[٤].

٨ ـ صحيح مسلم:

عن جابر بن عبداللّه: قال رسول اللّه (ص) يكون في آخر الزمان خليفة يَقسِمُ المال ولا يَعُدّه[٥].

٩ ـ سنن أبي داود:

عن علي رضي اللّه تعالى عنه عن النبي (ص) قال: لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم لبعث اللّه رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً[٦].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) سنن ابن ماجة ج ٣ ص ١٣٦٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) صحيح مسلم ج ٨ ص ١٨٥.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) سنن أبي داود ج ٤ ص ١٠٧ و ١٠٨.

١٠ ـ سنن أبي داود:

عن أم سلمة: قالت سمعت رسول اللّه (ص) يقول المهدي من عترتي من ولد فاطمة[١].

١١ ـ سنن أبي داود:

عن هلال بن عمرو: قال: سمعت علياً رضي اللّه عنه يقول: قال النبي (ص) يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث بن حراث على مقدمته رجل يقال له منصور يُوطئ أو يمكّن لآل محمد كما مكّنت قريش لرسول اللّه (ص) وجب على كل مؤمن نصره أو قال اجابته[٢].

وعن سعد بن حذيفة عن أبيه بن اليمان قال: دخلت على النبي (ص) ذات يوم وقد نزلت عليه هذه الآية ﴿ومن يطع اللّه والرسول فأولئك مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾ فأقرأنيها (ص) فقلت: يا نبي اللّه فداك أبي وأمي من هؤلاء إني أجد اللّه بهم حفياً قال: يا حذيفة أنا من النبيين الذين أنعم اللّه عليهم، وأنا أولهم في النبوة وآخرهم في البعث ومن «الصديقين» علي بن أبي طالب ولما بعثني اللّه برسالته كان أول من صدّق بي ثم من «الشهداء» حمزة وجعفر ومن الصالحين الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة (وحسن أولئك رفيقاً): المهدي في زمانه[٣]، هذا ما ادخره الآباء للأبناء من بشائر الفتح، وشرف الكرامة، ومفاخر التراث في كلمة اللّه التامة، ووعده الحق ووعيده الصدق، ليملأنها عدلاً وقسطاً على يد المدّخر لنصر الملّة والشريعة، ذلكم مهدي آل محمد ـ وأيم اللّه أقسم صادقاً ـ ما تنازعت أمة في كتاب ربها وقول نبيّها إلاّوسلط اللّه عليها الذل والفشل والهوان وقد حذرّنا بقوله: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) شواهد التنزيل لقواعد التفضيل للحاكم الحسكاني الحنفي النيشابوري ج ١ ص ١٥٥ .

وتذهب ريحكم﴾ وأمتنا الإسلامية الجديرة بالانتظار لوعد اللّه الصدق من النصر والغلبة، وقد تكالبت عليها قوى الاستكبار والطغيان، والظلم يمد جناحيه ليسود أهل هذه الأرض المقهورين فهل بغير المصلح للخلاص من سبيل؟!!

﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم كُذِبوا جاءهم نصرنا﴾[1].

(١) يوسف آية ١١٠ .




الباب الثالث

عقيدة الإمامية في العصمة




تعتقد الإمامية بعصمة الأنبياء وكذلك الأئمة، فإن ما يقال في النبي وهو مبلّغ لرسالات ربه، قيل في الإمام وهو مبلّغ لأحكام ربه، وليس في العصمة فرق بين النبي والإمام، ذلك لأن مناط العصمة هو التنزهُ عن الكذب والنسيان سهواً أو عمداً وارتكاب كبائر الذنوب وصغائرها قبل البعثة وبعدها، فلو جاز إرتكاب الذنوب في حقهما أو جوزنا عليهما الكذب أو النسيان لزم هنا محذوران:

أما وجوب اتباعهما وقد تلبّسا في المعصية، وهذا خلاف قول الإمامية حيث «ذهب الإمامية إلى أن النبي ﷺ يريد ما يريده اللّه تعالى ويكره ما يكرهه وأنه لا يخالفه في الإرادة والكراهة»[1] فهل أراد النبي المعصية موافقة لإرادة اللّه؟ وقد حثَّ عباده على متابعةِ أنبيائه فيتبعون النبي في معصيتهِ ثم يعاقبهم اللّه على ارتكابهم المعاصي ومقارفة الذنوب؟ وهل هذا إلاّ تغريرٍ قبيح؟ تعالى اللّه عنْ ذلك علواً كبيراً. هذا هو المحذور الأول، أما الثاني وهو عدم طاعته بل لزوم نهيه عن ارتكاب القبيح من باب وجوب النهي عن المنكر، فأي فائدة تبقى بعد ذلك في البعثة؟ وهل يصدق عليها إنها لطف؟ على أنا لا نسلّم مع غير المعصوم في صحة ما بلّغ به لاحتمال خطأه أو كذبه أو نسيانه، فهل يبقى بعد هذا كله حاجة لبعثة الأنبياء والرسل؟ و«لا شبهة في أن من تجوز عليه كبائر المعاصي ولا نأمن منه الاقدام على الذنوب لا تكون أنفسنا ساكنة إلى قبول قوله، أو استماع وعظه، كسكونها إلى ما لا يجوز عليه شيئاً من ذلك، وهذا هو معنى قولنا إن وقوع الكبائر ينفّر عن القبول، والمرجع فيما ينفر وما

---

(١) نهج الحق وكشف الصدِ للعلامة الحلي ص ١٠٠ دار الكتاب اللبناني - بيروت.

لا يُنفر إلى العادات واعتبار ما تقتضيه، وليس ذلك مما يستخرج بالأدلة والمقائس ومن رجع إلى العادة علم ما ذكرناه وأنه من أقوى ما ينفر عن قبول القول فإن حظ الكبائر في هذا الباب لم يزد على حظ السخف والمجون والخلاعة ولم ينقص منه»[١].

صحيح إن العقل لا يمنع من وقوع الذنوب والقبائح من قبل النبي والإمام، ولا نقول بأن النبي أو الإمام ليس لهما القدرة على ارتكاب المعصية فإن ذلك يبطل امتداحهما أو الثناء عليهما؛ ولا فضل لهما بعد ذلك على عدم اقتراف القبيح، لكنا نمنع أن يكون الفيض الإلهي من الأوامر والنواهي قد وصل على يد من ارتكب ما نُهي عنه أو امتنع عما أمر به، والإنسان مفطورٌ لأن يأنس إلى كل كمال غيرُ ناقص وكل جمال غيرُ مسلوب، فلزم أن يكون المبلّغ معصوماً عما يُنهي عنه، مبادراً إلى ما يأمر به، هذا تقرير وجوب العصمة عقلاً أما من حيث النقل، فهو ما ورد في كتاب اللّه تعالى ﴿إنما يُريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾[٢].

ومن جملة الرجس، الكذب وهو منفي بنص الآية، ضرورةً فلا يصح عليهم كل رجس، وقد فسرناه بكبائر الذنوب وصغارها فلزم تنزيه ساحتهم من القبيح، والقول بوجوب عصمتهم، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾[٣] حيث صريح النص هو عدم جواز إمامة الظالم، فإن اطلاق اللفظ عليه يشمل حتى من ارتكب المعصية فيكون ظالماً لنفسه فضلاً عن الغير، ففي تفسيره لقوله تعالى ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ كما أورده الطبرسي عن الصادقين (عليهما السلام) لا يكون الظالم إماماً للناس، ثم قال الطبرسي «واستدل أصحابنا ـ أي الإمامية ـ بهذه الآية على أن الإمام

---

(١) تنزيه الأنبياء ـ للسيد المرتضى ص ٤ منشورات مكتبة بصيرتي قم طبع ١٣٥٠هـ .

(٢) الأحزاب آية ٣٣ .

(٣) البقرة آية ١٢٤ .

لا يكون إلاّ معصوماً عن القبائح لأن اللّه سبحانه نفى أن ينال عهده ظالم في حال ظلمه، فإذا تاب لا يسمى ظالماً فيصح أن يناله، فالجواب: أن الظالم وإن تاب فلا يخرج من أن تكون الآية قد تناولته في حال كونه ظالماً فإذا نفى أن يناله فقد حكم عليه بأنه لا ينالها والآية مطلقة غير مقيدة بوقت، فيجب أن تكون محمولة على الأوقات كلها فلا ينالها الظالم وإن تاب فيما بعد»[1].

هذا ما يمكن أن يكون دليلاً على العصمة، فضلاً عما عرفت من كون العقل دليلاً علمياً قاطعاً تستند إليه، وتحتج به وحسبك بالعقل هادياً ونصيراً.

المفاسد المترتبة على القول بالخطأ والسهو على الإمام:

ثم إن علماء الإمامية قدّموا للأمة أدلة عقليةً أخرى وهي عبارة عن المفاسد المترتبة على القول بالخطأ والسهو وارتكاب الذنوب ومقارفتها من قبل النبي والإمام، وهو يُغنيك عن كثير تكلف في البحث، أو تجشم في التحقيق،وسيوفر لك عناء التنقيب في مسألة عقلية تسالم عليها العقلاء في كل زمان حيث عد الحر العاملي هذه المفاسد بقوله:

الأول: حط منزلته من القلوب وسقوط محله من النفوس.

الثاني: احتجاج المعصوم إلى رعيته كما تقدم.

الثالث: عدم امكان الفرق بين السهو والنسخ.

الرابع: عدم كون فعله وقوله حجة مطلقاً واشتباه التبليغ بغيره غالباً.

الخامس: امكان وقوع المعصية وفعل المحرم وترك الواجب سهواً وهو باطل اجماعاً من الإمامية.

السادس: اختصاص العصمة بوقت التبليغ وجواز المعصية قبله عمداً وسهواً وهو أوضح بطلاناً.

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ج ١ ص ٣٠٣ مطبعة الفرقان صيدا طبع ١٣٣٣هـ .

السابع: وجوب أمر الرعية له بالمعروف ونهيهم إياه عن المنكر.

الثامن: جواز كونه غير مقبول الشهادة والرواية في بعض الصور.

التاسع: جواز قتله للمؤمنين بل المعصومين سهواً، وترك جهاد الكفار نسياناً[1].

العاشر: جواز تعدي الحدود سهواً.

الحادي عشر: جواز الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف في الصور الجزئية سهواً.

الثاني عشر: جواز كون بعض رعيته أفضل منه في بعض الصور فيلزم تقديم المفضول على الفاضل وهو باطل»[2].

على أن الامام لو لم يكن معصوماً وجوّزنا عليه الخطأ لاحتاج الى امام آخر يصلحه ويسدده فيمنعه من ارتكاب الذنب واقتراف المعصية، وهي نفس علة احتياج الأمة الى امام، وهكذا كل امام يحتاج الى امام غيره فيتسلسل، وهو باطل، لذا كان من باب اللطف على الله تعالى أن يكون النبي أو الامام معصومين، وللامامية أدلة نقلية وعقلية كثيرة تطلب من مظانها.

العصمة بين الأشاعرة والمعتزلة:

لا يذهبَنّ بك القول إن الإمامية تفردت بوجوب العصمة، وهي من منكرات أقوالهم ومبتدعات مذهبهم، بل اضافة إلى ما رأيت من موافقة العقل لهم، فقد وافقهم أكثر المعتزلة وبعضٌ من متأخري الأشاعرة، وجمعٌ من أهل الفلسفة، قدمائهم ومحدثيهم، وسنستعرض بعض ذلك في عجالة من البحث والتحقيق.

---

(١) ظاهر قوله المعصومين أي معصومي الدم فلعل خطأه ونسيانه يوهمه عند الحكم بالأمر بقتل معصوم الدم اشتباهاً وعند ذلك ينتفي كون وجوده رحمة وبعثته لطف.

(٢) التنبيه بالمعلوم من البرهان على تنزيه المعصوم عن السهو والنسيان للحر العاملي ص ٥٥ قم طبع ١٤٠١.

العصمة عند المعتزلة:

وافقت المعتزلة قول الإمامية بوجوبِ العصمةِ، لكن لا على اطلاقه بل خالفتهم في جواز ارتكاب الصغائر ما لم تكن هذه الصغائر منفّرةً أو دنيئة، تتسافل فيها منزلته، ويتصاغر قدره لدى الناس، فقد صرّح بذلك ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه للنهج قائلاً «فالذي عليه أصحابنا من المعتزلة رحمهم اللّه أنه يجب أن يُنزّه النبي قبل البعثة عما كان فيه تنفيرٌ عن الحق الذي يدعو إليه وعما فيه غضاضةٌ وعيب، فالأول نحو أن يكون كافراً أو فاسقاً.. والثاني نحو أن يكون حجاماً أو حائكاً أو محترفاً بحرفة يقذرها الناس ويستخفون بصاحبها.. ووافق هذا القول جمهور المتكلمين.. ومنع أصحابنا المعتزلة من وقوع الصغائر التي ليست بمنفّرة منهم»[1] إلى هنا توضح رأي المعتزلة.

العصمة عند الأشاعرة:

أما العصمة عند الأشاعرة: فقد تفطن بعض متأخري الأشاعرة إلى موافقة الإمامية في القول بالعصمة على تفصيل، فراراً من مخالفة العقل في جواز ارتكاب القبائح والكبائر المنفّرة من قبل الأنبياء، لئلا يلزم الاذعان بما ورد من روايات مستهجنة أحسبها من اسرائيليات الحديث تحكي ما كان يفعله النبي أثناء سهوه ونسيانه، وبما يؤدي إلى ايذاء القدس النبوي واتهامه بما لا يليق في شأنه ومنزلته. فقد نسب للرازي قوله بعصمة الأنبياء عن الكبائر والصغائر على سبيل العمد بما ذكره في قصة آدم عليه السلام حيث قال أحمد محمود صبحي في نظرية الإمامة «غير أن الرازي قد عبّر بعد ذلك عن رأي مخالف، إذ ذهب إلى أن الأنبياء معصومون في زمان النبوة عن الكبائر والصغائر بالعمد أما على سبيل السهو فهو جائز، ذلك أن اللّه قد قال فيهم

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ج ٧ ص ١٠ .

﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾، ثم قال في تفسير قوله تعالى ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ العهد الذي حكم الله تعالى بأنه لا يصل إلى الظالمين، أما أن يكون عهد النبوة أو عهد الإمامة والأول هو المقصود وإن كان الثاني فالمقصود أظهر، لأن عهد الإمامة أقل درجة من عهد النبوة فإذا لم يصل عهد الإمامة إلى المذنب العاصي فلأن لا يصل إلى عهد النبوة أولى[١].

على أن التفتازاني وافقه بقوله «والمذهب عندنا منع الكبائر بعد البعث مطلقاً والصغائر عمداً لا سهوا»[٢] وفي رده على اشكالات البعض في قصة آدم قال أحد متأخريهم «إن ما حصل من الذنب صغير وهذا لا يتأتى إلاّ على رأي من يقول إن الأنبياء غير معصومين من الصغائر.. وأن ذلك قبل النبوة المستلزمة للعصمة»[٣] وهكذا تجد ميلاًواضحاً نحو العصمة لكن الاختلاف في بعض مفاهيمها.

تقييمٌ لأراء المعتزلة والأشاعرة:

لم يكن القول في العصمة عند المعتزلة ومتأخري الأشاعرة؛ بمستوى الطموح فيما هو عند الإمامية، ذلك لأن الإمامية نزّهت ساحة الأنبياء عن محقّرات الذنوب وكبائرها قبل البعثة وبعدها، أما بعد البعثة فلا أحد يجرأ في القول بارتكاب الكبيرة.

أما الصغائر فقد أصرت الإمامية على عدم وقوعها كذلك قبل البعثة وبعدها، لأن للنبي أو الإمام توفيق في عدم مقارفة الذنوب، وقد توطنت بنفسه على الطاعة وعدم المعصية حتى صارت ذاته مهيئة لتلقّي الكمال الربوبي، والنور الملكوتي، لقبول الفيض الإلهي الأقدس «ثم إن هذا المعنى أعني الإمامة على شرافته وعظمته،

---

(١) الأربعين في أصول الدين للفخر الرازي ص ٣٣٤ الطبعة الأولى دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٣هـ .

(٢) شرح المقاصد للتفتازاني ج ٥ ص ٥١ .

(٣) قصص الانبياء عبدالوهاب النجار : ١١ الطبعة الثالثة دار احياء التراث العربي بيروت .

لا يقوم إلاّ بمن كان سعيد الذات بنفسه، إذ الذي ربما تلبّس ذاته بالظلم والشقاء، فإنما سعادته بهداية من غيره وقد قال اللّه تعالى ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلاّ أن يهدى﴾ وقد قوبل في الآية بين الهادي إلى الحق وبين غير المهتدي إلاّ بغيره، أعني المهتدي بغيره، وهذه المقابلة تقتضي أن يكون الهادي إلى الحق مهتدياً بنفسه وأن المهتدي بغيره لا يكون هادياً إلى الحق البتة»[1]، هذا ما تقرره الإمامية من أمر النبي أو الإمام قبل البعثة والإمامة، وهو قولٌ لا يجيز عليهما أن تدنّس ساحتهما برجاسة الذنوب مطلقاً، فإن طهارة الذات ثابتةٌ لهما قبل وبعد البعثة، للزوم أن يكون وعاء الفيض الإلهي مبرّءً من القبيح المنافي لشأن التبليغ والهداية الربانية.

على أن المعتزلة والأشاعرة جوّزوا الصغائر قبل البعثة وبعدها على سبيل السهو كما قالته الأشاعرة، أو أن لا تكون الصغائر عمدية ومنفّرة في ارتكابها كما هو عليه المعتزلة، وقد منعت الإمامية ذلك مطلقاً، للزوم تنفير الخلق عنهم، وعدم سكون النفس إليهم، حيث أن طباع الناس تأنس إلى مَنْ لا يتركب الذنوب مطلقاً، ويسكنون إلى مَنْ لم يقارف صغائر المعاصي أبداً، ذلك أن كثيراً من المباحات وإن لم يكن على مرتكبها لوم ولا لفاعلها عقاب إلاّ أنها منفّرةٌ للطباع، موجبةٌ لتسفيه صاحبها، وكذلك هو حال الصغائر وإن كان معفوٌ عنها مغفورٌ لصاحبها خصوصاً في ورودها مورد السهو والنسيان، وكم هو فرق بين مَنْ نزّه نفسه عن صغائر الذنوب وبين مرتكبها ولو على سبيل الغفلة والنسيان؟.

فكيف في مَنْ بعثهُ اللّه وقد قال فيه ﴿لقد كان لكم في رسول اللّه أسوةٌ حسنة﴾[2]، وهو ظاهرٌ في الأمر بالاقتداء بالنفوس القدسية المنزهّة عن صغائر الذنوب فضلاً عن كبائرها، والوثوق بعدم التبذل في تسافل النفس والاستجابة

---

(١) الميزان في تفسير القرآن / للسيد الطباطبائي ج ١ ص ٢٧٣ .

(٢) الأحزاب آية ٢١ .

لغرائزها وشهواتها الناتج عن مقارفة الصغائر، فأي مجال يبقى لتجويز الصغائر على الأنبياء والأئمة؟ «والمراد من الوثوق، الوثوق التام الزاجر لمانع عن متابعة مشتهيات النفس ضرورة أن فائدة البعثة والتكليف إنما يُتنى على ذلك، ولا يخفى على المتأمل المنصف أن صدور ذنب ما بل جواز صدوره عنه يستلزم احتمال صدور الكذب في الأحكام الشرعية عند العقل، فيحيل الوثوق، فلا يحصل ذلك الوثوق التام إلاّ إذا وجب الاجتناب عن المعاصي كلها»[1] هذا ما أردنا عرضه لوجدان المنصف وعقله، وهو حريّ في قبول الحق ومتابعته، وكم للفطرة السليمة وللعقل الحر من مواقف في تمييز الحق ورفض كل ما هو قبيح بل محال؟. وقد يقال: إنكم إذا منعتم على الإمام الخطأ والنسيان والسهو وحتى الصغائر، كان قولكم إلى المحال أقرب، وعن الحق والواقع أبعد، لعدم توفر ذلك، لدى نفس الإنسان المجبولة على ارتكاب القبيح ولو قهراً بالنسيان أو السهو أو غيرهما، وإذا جوّزنا عليه قبيح الصغائر والسهو والنسيان، وأبعدنا ساحته عن الكبائر، كنا إلى الواقع أقرب، ومن فرض المحال أبعد، ذلك لأن الأمة من وراء الإمام، تعزلهُ متى صدر منه خطأ لتقييم غيره، فينتفي الغرض من مقالتكم بعدم جواز الصغائر والسهو، وكنا وإياكم سواء.

قلنا: هذا غير صحيح، لأن العصمة ملكة نورانية جعلها الله لأنبيائه وأوصيائه من الأئمة المهديين، بعدما عرف الصدق منهم، في طهارة ذواتهم، واستعداد نفوسهم المتعلقة بجماله وجلاله والتائقة دائماً إلى الحق تعالى، ولا يُفهم من ذلك اضطرارهم إلى العصمة وعدم قدرتهم على مقارفة الذنوب لبطلان المدح لهم والثناء عليهم، بل نقول إن العصمة تسديد إلهي وهِبَةً قدسية، لمن أوجد من نفسه استعداداً فائقاً على مجاهدة النفس ولاصبر على الطاعة، والتوطن على بُعد المعصية، وإلى هذا أشار الشيخ الطوسي بقوله «ونعني بالعصمة وجود أمر في الإنسان المعصوم يصونه

---

(١) مفتاح الباب الحادي عشر أبو الفتح بن مخدوم الحسيني ص ١٧٦ طبع استان قدس رضوي شهر ١٣٧٠هـ.

عن الوقوع فيما لا يجوز من الخطأ والمعصية»[1].

وليس في ذلك من محال على الله تعالى ولا على أنبيائه وأوصيائهم ببعيد. وكذا فإن الغرض من تنصيب الإمام هو ارشاد الخلق إلى الحق، وتقويم الأمة عند خطأها لا تقويم الإمام إذا أخطأ أو تسديده إذا نسي، ولو صح ذلك لكان من لم يقع منه الخطأ، لم يكن محتاجاً إلى إمام وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة من وجوب الحاجة إلى إمام لعموم المكلفين مطلقاً، ولقد أجاد شيخ الطائفة في جوابه عن هذا الاشكال بقوله إن «هذا باطل لان علة الحاجة إلى الرئيس ليست هي وقوع الخطأ، بل هي جواز الخطأ عليهم، ولو كانت العلة وقوع الخطأ لكان من لم يقع منه الخطأ لا يحتاج إلى إمام وذلك خلاف الاجماع. ومع هذا فلا يجوز أن يكون الشيء يحتاج إلى غيره في وقت يحتاج ذلك الغير إليه بعينه، لأن ذلك يؤدي إلى حاجة الشيء إلى نفسه وذلك لا يجوز»[2] وعلى هذا فلا بد من القول بتنزيه النبي والإمام عن مطلق الذنب أياً كانت صفته وحجمه صغيرةً أو كبيرةً، قبل البعثة وبعدها.

ما قرره الفلاسفة من وجوب العصمة:

لما كانت العصمة مسألة عقلية اشترك في القول بها مطلق العقلاء، وقرره كل منهم بما استحسنه من وجوبها وحاجة الخلق إليها لتقرير العقل وتأييد الفطرة. ولا يخفى على الفيلسوف مدى الحاجة إلى حاكم معصوم منزه ليسود العدل والأمان في أوساط الناس، وليضمن بذلك مدينته الفاضلة التي أنشدها أفلاطون من قبله، وحدد صفات الحاكم الفاضل، ومعالم ذاته بالصفات التالية: « رغبة ملحة لمعرفة الوجود الحقيقي ـ كراهية الباطل والتعلق بمحبة الحق ـ احتقار ملذات الجسد ـ عدم الاهتمام بالمال ـ سمو العقل والسماحة ـ الاتصاف بالعدالة واللطف ـ سرعة الفهم

---

(١) الميزان في تفسير القرآن للسيد الطباطبائي ح ٢ ص ١٣٤ .

(٢) الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد للشيخ الطوسي ص ١٩٠ مطبعة الخيام قم ١٤٠٠ هـ .

والذاكرة الجيدة»[1]، ومن هذه الصفات الخيرة تلمح شخصية المعصوم التي حَلِمَ بها أفلاطون وزملاؤه من ذي قبل، وللفارابي أمنيةٌ في الحصول على شخصية الحاكم الفاضل فترتسمُ في مخيلته شخصية المعصوم، لينصبهُ إماماً لمدينته الفاضلة بقوله في صفات الرئيس «بأنه متصلٌ بالعقل الفعال فيقترب بذلك من اللّه ولا يستطيع ذلك إلاّ الأقلون الذين لم يشغلهم عالم المادة عن عالم الروح، فسعوا إلى اختراق حُجبُ الأرض وتطلعوا إلى اجتلاءِ نور السماء»[2].

هذه هي تطلعات الفلاسفة إلى شخصية المعصوم وقد قررها الإمامية، بما يوافق العقل ويناغم الفطرة السليمة.

العصمة كما وردت في الصحاح الستة، وروايات أهل الحديث والتفسير:

تكاثرت الروايات الواردة في وجوب تنزيه النبي عن الخطأ والسهو والنسيان، ويمكن للمتتبع أن يجد من الأحاديث الصحيحة ما يُحتّم القول بعصمة النبي وكذا الإمام، وقد أكّدَ أهل التفسير على القول بوجوب منع الخطأ والسهو على النبي؛ ولا مجال في تأويلها بأن الخطأ والنسيان لا يحصلان في تبليغ الأحكام، أما في غير ذلك فجائز عليه، لكنا نقول إن ضرورة اطلاق عدم الجواز الوارد في الروايات المتواترة يستفاد منه المنع من جواز الخطأ مطلقاً وكذا القول في أوصيائه ﷺ، وإليك ما ورد في الصحاح.

١ ـ صحيح مسلم:

عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة خرج النبي من غداة وعليه مرط

---

(١) جمهورية أفلاطون المقدمة ص ١٨ دار المعارف بمصر .

(٢) نظرية الإمامة عند الشيعة الاثنا عشرية ص ١٣٦ .

مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله فجاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال: إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا[١].

٢ ـ صحيح الترمذي:

عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي (ص) قال: لما نزلت هذه الآية على النبي (ص) ﴿إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ في بيت أم سلمة، فدعا فاطمة وحسناً وحسيناً، فجللهم بكساء وعلي خلف ظهره ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي اللّه؟ قال ابقي على مكانك، وأنت على خير[٢] وعلى هامش الصحيح وفي نفس الصفحة عن النووي في معنى الرجس: هو اسم لكل عمل مستقذر. وقد أخرجه الترمذي بثلاث طرق.

والمستفاد من هذا الحديث أن الرجس منفيٌ عنهم بنص الآية، ضرورة، ومن الرجس المنفي عنهم هو الكذب، فهم لا يكذبون في تبليغهم للأحكام مطلقاً.

٣ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل:

عن أبي هريرة عن رسول اللّه (ص) أنه قال لا أقول إلاّ حقاً، قال بعض أصحابه فإنك تداعبنا يا رسول اللّه، فقال إني لا أقول إلاّ حقاً[٣].

٤ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل:

عن عبداللّه بن عمرو قال كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول اللّه (ص) أريد حفظهُ فنهتني قريش فقالوا إنك تكتب كل شيء تسمعهُ من رسول اللّه (ص) وهو بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكتُ عن الكتاب فذكرتُ ذلك لرسول اللّه

---

(١) صحيح مسلم ج ٧ ص ١٣٠ .

(٢) صحيح الترمذي ج ٥ ص ٣٥١ دار احياء التراث العربي بيروت .

(٣) المصدر نفسه.

(ص) فقال: أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلاّ حق[١].

٥ ـ دلائل النبوة للبيهقي:

عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه (ص) إن اللّه عز وجلّ قسّم الخلق قسمين، فجعلني في خيرهما قسماً إلى أن قال... ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً وذلك قوله تعالى (انما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب[٢].

وقد أخرج هذا الحديث: الحكيم الترمذي، الطبراني، ابن مردويه، أبو نعيم جميعهم عن ابن عباس. راجع الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي الجزء السادس صفحة ١٢٢ طبع المكتبة الإسلامية طهران.

٦ ـ الدر المنثور:

في تفسير قوله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ قال أخرج ابن مردويه عن أبي الحمراء وحبّة العرني، قالا أمر رسول اللّه (ص) أن تسد الأبواب التي في المسجد فشق عليهم قال حبة، إني لأنظر إلى حمزة بن عبدالمطلب وهو تحت قطيفة حمراء وعيناه تذرفان وهو يقول أخرجت عمك وأبا بكر وعمر والعباس وأسكنت ابن عمك فقال رجل يومئذ ما يألو يرفع ابن عمه، قال فعلم رسول اللّه (ص) أنه قد شق عليهم فدعا الصلاة جامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فلم يسمع لرسول اللّه (ص) خطبة قط كان أبلغ منها تمجيداً وتوحيداً، فلما فرغ قال يا أيها الناس ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسكنته ثم قرأ ﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى﴾[٣].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٢ ص ١٦٢ ص ٣٤٠ على التسلسل .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ح ١ ص ١٧٠ دار الكتب العلمية بيروت طبعة أولى ١٩٨٥ .

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور سيوطي ج ٦ ص ١٢٢ طهران المكتبة الإسلامية.

٧ ـ وأخرج الطبراني والضياء:

عن أبي أمامة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه (ص) قال ليدخل الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي، مثل الحيين أو مثل أحد الحيين، ربيعة ومضر فقال رجل يا رسول اللّه وما ربيعة من مضر قال إنما أقول ما أقول[١].

٨ ـ وأخرج البزار:

عن أبي هريرة عن رسول اللّه (ص) قال ما أخبرتكم أنه من عند اللّه فهو الذي لا شك فيه[٢].

٩ ـ وأخرج الدارمي:

عن يحيى بن أبي كثير قال كان جبريل ينزل بالسُنة كما ينزل بالقرآن[٣].

١٠ ـ تفسير القرطبي:

في تفسير قوله تعالى ﴿ما ينطق عن الهوى﴾ إلخ قال فيه مسألتان: الأولى قوله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ قال قتادة وما ينطق عن هواه.. أي ما يخرج نطقه عن رأيه إنما هو بوحي من اللّه تعالى.. الثانية وفيها أيضاً دلالة على أن الحسنة كالوحي المنزل في العمل..»[٤].

١١ ـ تفسير الدر المنثور:

أخرج عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ قال يخبره أنه كائن في ذريته، ظالم لا ينال عهده ولا ينبغي له أن يوليه شيئاً من أمره[٥].

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ج ١ ص ١١٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٨٦ دار احياء التراث العربي بيروت ١٩٨٥ .

(٥) الدر المنثور للسيوطي ج ٦ ص ١٨٨ .

١٢ ـ تفسير الدر المنثور:

عن مجاهد في قوله ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ قال لا طاعة إلاّ في المعروف[١].

وعن عمران بن حصين سمعت النبي (ص) يقول لا طاعة لمخلوق في معصية اللّه[٢].

١٣ ـ ينابيع المودة:

عن ابن عباس قال سمعت رسول اللّه (ص) يقول: أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون[٣].

خاتمة في بحث العصمة:

يمكننا أن نخلص إلى القول بما يلي:

١ ـ استدلت الإمامية على قولها بالعصمة، بدليلي العقل والنقل، أما العقل فطريقه وجوب اللطف على اللّه تعالى، وأما النقل في الكتاب بآيات التطهير، وعهد الإمامة، وعدم النطق عن الهوى، ومن السنة فما تواتر من طرق الفريقين.

٢ ـ إن ما يقال في النبي، يقال في الإمام، لوحدة الغرض من تنصيبهما، ذلك لتبليغ رسالاته وتبيين معالم دينه ليكون للّه على الناس الحجة البالغة.

٣ ـ وافق المعتزلة وبعض متأخري الأشاعرة، الإمامية في وجوب العصمة، على خلاف مرّ في مطاوي البحث سابقاً، وقالت الفلاسفة بمثل مقالة الإمامية مع

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ج ٦ ص ١٠٥ .

بعض الاختلاف في القولين، وذلك تحصيلاً للغرض المنشود وهو تكامل الفرد الإنساني بما يضمن الوصول إلى غايات الكمال والصلاح.




الباب الرابع

عقيدة الإمامية في البداء




تحتل مسألة البداء، مساحة واسعة من الخلاف بين متكلمي الفريقين وعلمائهم، وقد أدى عدم وضوح معناه، وارباك الفهم، واضطراب التصور إلى نزاع متشنج، هو في حقيقة أمره موهوم، لذا فان ذلك صار سبباً لأن يتعرض الامامية الى حملة واسعة من التشنيع على مقالتهم في البداء، واتهامهم بنسبة الجهل الى اللّه تعالىوانكارهم لعلمه المطلق، وماذلك إلاّ لغياب فكرة البداء عن أذهان البعض فتسرعوا ـ وللأسف الشديد ـ الى انكار هذه العقيدة القرآنية دون استيعابها ومن ثم التروي في اتهام أمة من الموحدين بالانحراف والضلال، لكن شيئاً من التروي في التحقيق، ووقفة قصيرة على معنى البداء سيتيح لنا جميعاً، أن ننصف هذه المقالة. لنعطي حقها من الفهم والبحث، وسنعتز بها نحن المسلمين كونها تراثاً قرآنياً خالداً وفكرة محمدية خالصة ﴿لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكادُ زيتها يُضيء لو لم تمسسهُ نار نورٌ على نور يهدي اللّه لنوره من يشاء﴾[1].

ما هو البداء؟

إن النزاع في معنى البداء بين الإمامية وبين فرق المسلمين ظاهره لفظي، لاتفاق الجميع على ثوابت هي من أصول الدين وأساس التوحيد. وسنستعرض معنى البداء عند الإمامية لنجد هل هناك خلافٌ بينهم وبين عامة المسلمين في هذا المعنى؟ أم هو قصورٌ في التصور، وسنسرد ذلك بالنقاط التالية:

أولاً: البداء هو ظهور الشيء بعد خفائه، كما لو بدا للإنسان رأي جديد في

(١) النور آية ٣٥ .

شيء، وكان قد عزم على عمله من قبل، ثم تجلت مصلحة قد غفل عنها لجهله بها، وعدم احاطته بأسبابها، ثم بدا لـه أن يستأنف العمل على حسب ما ظهر لـه من الصلاح والرضا. وكل هذا غير جائز على اللّه تعالى، ذلك لمطلق احاطته بعلل الأشياء وأسبابها، وشرائط الأمور وعواقبها. فلا نقض في إرادته، ولا تبدّل في عزمه، ولا فراغ عن الأمر بعد خلقه، ومن نسب لـه خلاف ذلك، فإن الإمامية منه براء وهو عندهم كافر، وقد تبعوا في ذلك قادتهم الأئمة الهداة، عليهم من اللّه الزاكيات الطيبات، فقد أوصوا شيعتهم وشددوا في أمر ذلك وعلى لسان صادقهم ﷺ بقوله ((إن اللّه لم يبد لـه من جهل)) وقوله ((من زعم أن اللّه بدا في شيء لم يعلمه أمس فابرأ منه)) وقوله ((من زعم أن اللّه تعالى بدا له في شيء بداء ندامة فهو عندنا كافر)). هذا هو قولهم في البداء، وهذه هي فلسفتهم في علم اللّه، وهذا هو دينهم في مصالح الأمور وعواقبها، ومن نسب إليهم خلاف ذلك فقد حاد عن الحق والصواب.

ثانياً: تعتقد الإمامية أن الأشياء مشروطةٌ بشروطها، وموقوفةٌ على تمامية عللها، وايجاد مقتضياتها، يشاركهم في ذلك كافة العقلاء، ولما كان البداء معناه تعليق أمر على آخر، وحصول المشروط عند تحقق شرطه، فإن أموراً ستحصل عند توفر شرائطها، وايجاد متعلقاتها، كما ورد في أخبار النبي والأئمة الأطهار ﷺ، بأن مضاعفة الأرزاق وتأخير الأعمار عن آجالها مشروطة بالدعاء وصلة الارحام، وعلى العكس فإن نقص ذلك، مشروطةٌ بقطيعة ما أمر به أن يوصل وهو الرحم، وارتكاب ما نُهي أن يُرتكب وهو الظلم إلى غير ذلك، ولا أظن أحداً من المسلمين يخالف الإمامية في ذلك لورود نفس الأخبار عن طرق الفريقين كما يأتي قريباً.

ثالثاً: ومن الأمر الثاني يظهر معنى البداء، ذلك أن الخلق إذا خفي عليهم شرط من شروط تحقق أمر ما، أو توهموه، وظنوا خطأً أن هذا الشرط يحقق المشروط ويكون موجباً لايجاد القضية الفلانية، وقد اشتبه عليهم أمر معرفة الشرط الواقعي

الذي منه سيحقق اللّه تعالى هذا الشيء، فإذا تحقق بعد ذلك أمر موقوفٌ على شرطه الواقعي الذي لا يعلمه إلاّ اللّه، وبخلاف ما توقعه الناس، فإنه سيظهر حقيقة هذا الأمر بخلاف ما احتملوه وتوقعوه، أي سيكون البداء في علمنا نحن المكلفون لا في علم اللّه تعالى، وبذلك ظهر الأمر على خلاف علمنا وتوقعنا، كما قال المحقق الكراجكي:

«إن المراد من البداء أن يظهر للناس خلاف ما توهموه، وينكشف لهم غير ما كانوا يعتقدون من دوام الأمر واستمراره، وسمي بداء لمشابهته لمن يأمر بالشيء ويجزم به ثم ينهي عنه في وقته»[1] وإلى هنا فلا خلاف بين المسلمين في هذا المعنى.

رابعاً: البداء الذي تقول به الإمامية يقع في القضاء غير المحتوم، أما المحتوم فلا يتخلف، وقسّموا القضاء إلى ثلاثة: قضاء لم يطلع عليه أحد من العباد وهو المسمى بالعلم المخزون الذي استأثر اللّه به لنفسه، ولا يقع في هذا القسم البداء، وقضاء اللّه الذي أخبر به أنبيائه وملائكته بوقوعه حتماً فلا يجري فيه البداء أيضاً. وقضاء أخبر به أنبيائه وملائكته بوقوعه في الخارج إلاّ أنه موقوف على أن لا تتعلق مشيئته بخلافه، وهذا القسم يقع فيه البداء[2].

هذه خلاصة فكرة البداء عند الإمامية فهل من شيء فيه يخالف أهل القبلة، أو يناقض أصول التوحيد؟ وهل هذا إلاّ محض العبودية وأساس الوحدانية للّه تعالى؟ ولا أجد فيما عرضناه ما يخالفه المسلمون أو يدينون بغير ذلك.

الفرق بين النسخ والبداء:

سيقترب معنى البداء بشكل أوضح حينما نتصور معنى النسخ ما هو؟ وبذلك

---

(١) الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة هاشم معروف الحسني ص ٢٣٢ دار القلم بيروت.

(٢) انظر البيان في تفسير القرآن فقد قسّم السيد الخوئي رحمه اللّه القضاء وفق المفهوم الإمامي فراجع ص ٢٧٢.

ستتقارب الفجوة بين الفريقين وسيجد من يقول بالنسخ من المسلمين قائلاً بالبداء لا محالة.

فالنسخ[1] هو ارتفاع الأمر الثابت في الشريعة المقدسة، وذلك بارتفاع أمره وزمانه، وقد أجمع المسلمون على امكان النسخ وجوازه، حيث أن كثيراً من أحكام الشرائع السابقة قد نُسخت بأحكام الشريعة الإسلامية، وإن جملة من أحكام هذه الشريعة قد نُسخت بأحكام أخرى من هذه الشريعة نفسها، كما في نسخ التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس، للتوجه إلى الكعبة المشرفة وهذا ما يقول به المسلمون جميعاً وهو قوع النسخ في الشريعة لا محالة.

أما البداء فهو النسخ في التكوينيات على ما أوضحناه سابقاً.

وبمعنى آخر أن النسخ نوعان، نسخ في الأمور التشريعية، وهو معنى النسخ المتعارف عند المسلمين، ونسخ في الأمور التكوينية وهو معنى البداء. هذا ما تقول به الإمامية، ويتنازع معها المسلمون على أمر قدأقروا به من قبل فلا جديد. وهل من نزاع حقيقي بين فرق المسلمين وبين الإمامية؟ أم هو نزاع لفظي عندئذ؟

النزاع في البداء حقيقي أم لفظي؟

أجمع المسلمون على عدم تبدل علم اللّه تعالى لاحاطته بكل مخلوقاته، ولم يقل أحد منهم بتبدل علمه تعالىوظهور ما هو الأصلح ثانية، واتفق المسلمون جميعاً على أن الأشياء موقوفة على تمامية عللها وتوفر شروطها وايجاد أسبابها ومقتضياتها، فالشيء لا يكون إلاّ بتوفر سببه وعلته. هذا ما تقول به الإمامية وهو ما تطلق عليه البداء كما أوضحناه سابقاً، فأي خلاف تجده بين الجميع غير الخلاف

---

(١) راجع البيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي مباحث النسخ وقد قدمها بصورة وافية، ص ١٨٩ .

اللفظي الذي تفردت به الإمامية وأطلقت على النسخ في التكوينيات لفظ البداء؟ وقد صرّح العلامة الطباطبائي من كبار علماء الإمامية ما لفظه «والذي أحسب أن النزاع في ثبوت البداء كما يظهر من أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام ونفيه كما يظهر من غيرهم، نزاع لفظي، ولذا لم نعقد لهذا البحث فصلاً مستقلاً على ما هو دأب الكتاب، ومن الدليل على كون النزاع لفظياً استدلالهم على نفي البداء عنه تعالى بأنه يستلزم التغيير في علمه مع أنه لازم البداء بالمعنى الذي يفسر به البداء فينا لا البداء بالمعنى الذي يفسره به الأخبار فيه تعالى»[1]، إذن بعد التأمل في معنى البداء عند الإمامية فلا نزاع بين المسلمين على معنى البداء عقلاً ولا نقلاً.

ما ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام عن معنى البداء:

قدّم أئمة الهدى من آل البيت عليهم السلام نصوصاً هي من روائع الكلم،وألقوها للأمة جميعاً وأمروهم بالتدين بها والالتزام بمضامينها، ونبذ النزاع العقيم في قضية بديهية هي من أساسيات التوحيد ومن منطلقات العبودية للّه الواحد الأحد. وسنستعرض نماذج من أحاديثهم عليهم السلام ليتبين لنا حرص القادة الأطهار عليهم السلام على الأمة بما يضمن توطيد علاقة العبودية ومحض الاخلاص للّه تعالى.

١ ـ عن زرارة بن أعين عن أحدهما عليهما السلام قال: ما عبداللّه بشيء مثل البداء.

٢ـ عن ابن البختري وغيره عن أبي عبداللّه عليه السلام قال في هذه الآية ﴿يمحو اللّه ما يشاء ويثبت﴾، قال: فقال وهل يمحي إلاّ ما كان ثابتاً وهل يثبت إلاّ ما لم يكن.

٣ ـ عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول العلم علمان، فعلم عند اللّه مخزون لم يطلع عليه أحد من خلقه، وعلمٌ علّمه ملائكته ورسله، فما علّمه

---

(١) الميزان في تفسير القرآن للسيد الطباطبائي ح ١١ ص ٢٨١ بيروت ١٩٧٢ مؤسسة الأعلمي.

ملائكته ورسله فإنه سيكون، لا يكذّب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلم عنده مخزون يقدّم منه ما يشاء ويؤخر منه ما يشاء ويثبت ما يشاء.

٤ - عن الفضيل بن يسار قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: من الأمور أمور موقوفة عند الله يقدّم منها ما يشاء ويؤخّر منها ما يشاء.

٥ - عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال إن لله علمين، علم مكنون مخزون، لا يعلمه إلاّ هو، من ذلك يكون البداء، وعلمٌ علّمه ملائكته ورسله وأنبيائه فنحن نعلمه.

٦ - عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ما بدا لله في شيء إلاّ كان في علمه قبل أن يبدو له.

٧ - عن مالك الجهني قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول لو علم الناس ما في البداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه.

٨ - عن عمرو بن عثمان الجهني عن أبي عبدالله عليه السلام قال إن الله لم يَبْد له من جهل(١).

٩ - عن الريان بن الصلت قال سمعت الرضا عليه السلام: يقول ما بعث الله نبياً إلاّ بتحريم الخمر وأن يقر لله بالبداء.

١٠ - عن معلى بن محمد قال سئل العالِم عليه السلام كيف عِلْم الله؟ قال عَلِم وشاء، وأراد وقدّر، وقضى وأمضى، فأمضى ما قضى، وقضى ما قدّر وقدر ما أراد، فبعلمه كانت المشيئة وبمشيئته كانت الإرادة وبإرادته كان التقدير وبتقديره كان القضاء، وبقضائه كان الامضاء، والعلم مقدم على المشيئة، والمشيئة ثانية، والإرادة ثالثة، والتقدير واقع القضاء بالامضاء، فلله تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء وفيما أراد، لتقدير الأشياء فإذا أوقع القضاء بالامضاء فلا بداء، فالعلم في المعلوم

---

(١) الأحاديث المذكورة وردت عن كتاب الشافي في شرح الكافي للشيخ عبدالحسين المظفر ج ٣ ص ٢١١ مطبعة النجف ١٣٧٧ هـ.

قبل كونه، والمشيئة في المنشأ قبل عينه، والإرادة في المراد قبل قيامه، والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عياناً ووقتاً، والقضاء بالامضاء وهو المبرم من المفعولات ذوات الأجسام المدركات بالحواس من ذوي لون وريح ووزن وكيل وما دب ودرج من أنسوجن وطير وسباع وغير ذلك مما يدرك بالحواس فلله تبارك وتعالى فيه البداء مما لا عين له، فإذا وقع العين المفهوم المدرك فلا بداء والله يفعل ما يشاء فبالعلم علم الأشياء قبل كونها، وبالمشيئة عرف صفاتها وحدودها، وأنشأها قبل اظهارها، وبالإرادة ميّزأنفسها في ألوانها وصفاتها، وبالتقدير قدّر أقواتها وعرف أولها وآخرها، وبالقضاء أبان للناس أماكنها، وأدلهم عليها، وبالامضاء شرح عللها وأبان أمرها وذلك تقدير العزيز العليم[1].

وإنما حرصنا على نقل الرواية بطولها، لما تضمّنته من مضامين عالية تنطق عن لسان أهل بيت الحكمة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي، يتبدد من جوانبها الفيض الإلهي الأقدس، وقد حرصت المشيئة الإلهية أن تجعله على لسان خاصتها من المصطفين الأخيار... ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره.

شروط البداء وأسبابه:

أما ما هي شروط البداء وأسبابه، فهذا ما تكفلت به الروايات الآتية عن آل البيت عليهم السلام حيث بيّنوا منشأ البداء بأسباب عدة ستتعرض لها هذه الروايات التالية:

١ ـ عن زرارة قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: الدُعاء هو العبادة التي قال الله عز وجل ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي...﴾ الآية ادعُ الله عز وجل ولا تقل: إن الأمر قد فُرغَ منه.

قال زرارة: إنما يعني لا يمنعك إيمانك بالقضاء والقدر أن يُبالغ بالدعاء وتجتهد

(١) ورد في الشافي في شرح الكافي ج ٣ ص ٢١١ أحاديث (٩) (١٠) ولفظ العالم هو لقب من ألقاب الامام موسى بن جعفر عليه السلام.

فيه[١].

٢ ـ عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي ألا أدلك على شيء لم يستثن فيه رسول اللّه (ص)؟ قلت بلى، قال: الدعاء يرد القضاء وقد أبرم ابراماً ـ وضم أصابعه ـ [٢].

٣ ـ عن أبي ولاّد قال: قال أبو الحسن موسى عليه السلام عليكم بالدعاء قال الدعاء للّه، والطلب إلى اللّه يردُ البلاء وقد قُدِرَ وقضي ولم يبقَ إلاّ امضاؤه، فإذا دُعي اللّه عز وجل وسئُل صرف البلاء صرفة[٣].

٤ ـ عن اسحاق بن عمار قال: قال أبو عبداللّه عليه السلام إن اللّه عز وجل ليدفع بالدعاء، الأمر الذي علمهُ أن يُدعى له فيستجيب ولولا ما وفق العبدُ من ذلك الدعاء لأصابه منه ما يجثهُ من جديد الأرض[٤].

٥ ـ عن محمد بن عبيداللّه قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: يكون الرجل يصل رحمهُ فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيّرها اللّه ثلاثين سنة، ويفعل اللّه ما يشاء[٥].

٦ ـ عن أبي حمزة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: صلةُ الأرحام تزكي الأعمال، وتُنمي الأموال، وتدفع البلوى ، وتسير الحساب، وتنسأ في الأجل[٦].

٧ ـ عن اسحاق بن عمار قال: قال أبو عبداللّه عليه السلام: ما نعلم شيئاً يَزيدُ في العمر إلاّ صلة الرحم، حتى أن الرجل يكون أجله ثلاث سنين فيكون وصولاً للرحم

---

(١) الكافي للكليني ج ٢ ص ٣٣٩ .

(٢) صحيح الكافي محمد باقر المحمودي ص ١٣٧ مكتبة الإسلامية طبعة أولى ١٩٨١ .

(٣) الكافي ج ٢ ص ٣٤١ .

(٤) الكافي ج ٢ ص ٣٤١ .

(٥) الكافي ج ٢ ص ١٢١ .

(٦) المصدر نفسه .

فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة،ويكون أجله ثلاثاً وثلاثين سنة، فيكون قاطعاً للرحم فينقصهُ الله ثلاثين سنة، ويجعل أجله إلى ثلاث سنين[1].

كلمات علماء الإمامية في القول بالبداء:

حرص علماء الإمامية أن يتصدوا لمفهوم البداء، وأن يقدّموا للأمة مفهومه بشكل لا يبقي حجةً لمرتاب، ولا مندوحة لقمصّر، وقد تبعوا في ذلك أئمة الهدى من آل البيت ﷺ حيث قرأوا إطروحتهم الإلهية بتمعن ليبثوا ما فهموه إلى الأمة ويُلقوا ما وعوه عن أئمتهم، وإليك نصوص ما ورد في مطولاتهم الكلامية حتى يتبين لك الحق:

١ ـ الشيخ المفيد:

قال في أوائل المقالات ما نصه «أقول في معنى البداء ما يقوله المسلمون بأجمعهم في النسخ وأمثاله من الافقار بعد الاغناء والإمراض بعد الإعفاء والاماتة بعد الاحياء، وما يذهب إليه أهل العدل خاصة الزيادة في الآجال والأرزاق والنقصان منها بالأعمال، فأما اطلاق لفظ البداء فإنما صرت إليه بالسمع الوارد عن الوسائل بين العباد وبين الله عز وجل ولو لم يرد به سمع أعلم صحته ما استجزت اطلاقه، كما أنه لو لم يرد على سمع بأن الله تعالى يغضب ويرضى ويحب ويعجب لما أطلقتُ ذلك عليه سبحانه، ولكنه لما جاء السمع به صرت إليه على المعاني التي لا تأباها العقول، وليس بيني وبين كافة المسلمين في هذا الباب خلاف، وإنما خالف من خالفهم في اللفظ دون ما سواه، وقد أوضحت من علتي في اطلاقه بمايقصر معه الكلام، وهذا مذهب الإمامية بأسرها وكل مَنْ فارقها في المذهب يُنكرهُ على ما وضعت من الاسم دون المعنى ولا يرضاه[2].

---

(١) الكافي ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) أوائل المقالات للشيخ المفيد ص ٩٤ طبعة الأولى مطبعة الرضا في تبريز ١٣٦٣هـ .

٢ـ الشيخ الطوسي:

قال الشيخ في العدة: وأما البداء فحقيقته في اللغة، الظهور ولذلك يقال «بدا لنا سور المدينة» و «بدا لنا وجه الرأي» قال تعالى ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾ ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾، ويراد بذلك كله ظَهَر. وقد يستعمل ذلك في العلم بالشيء بعد أن لم يكن حاصلاً وكذلك في الظن، فأما إذا أضيفت هذه اللفظة إلى اللّه تعالى فمنه ما يجوز اطلاقه عليه ومنه ما لا يجوز، فأما ما يجوز من ذلك فهو ما أفاد النسخ بعينه ويكون اطلاق ذلك عليه، على ضرب التوسع وعلى هذا الوجه يُحمل جميع ما ورد عن الصادقين عليهما السلام من الأخبار المتضمنة لاضافة البداء إلى اللّه تعالى دون ما لا يجوز عليه من حصول العلم بعد أن لم يكن ويكون وجه اطلاق ذلك عليه والتشبيه هو أنه إذا كان ما يدل على النسخ يظهر به للمكلفين ما لم يكن ظاهراً ويحصل لهم العلم به، بعد أن لم يكن حاصلاً وأطلق على ذلك لفظ البداء[1].

٣ ـ الشيخ فخر الدين الطريحي:

قال في مجمع البحرين في باب (بدا): بدا له في الأمر إذا ظهر له استصواب شيء غير الأول. والاسم منه البداء ـ كسلام ـ وهو بهذا المعنى مستحيل على اللّه تعالى كما جاءت به الرواية عنهم عليهم السلام بأن اللّه لم يبدُ له من جهل. وقد تكثرت الأحاديث من الفريقين في البداء. مثل ما عُظم اللّه بمثل البداء، وقوله ما بعث اللّه نبياً حتى يقر له بالبداء، أي يقر له بقضاء مجدد في كل يوم بحسب مصالح العباد لم يكن ظاهراً عندهم، وكأن الاقرار عليهم بذلك للرد على من زعم أنه تعالى فرغ من الأمر وهم اليهود. وفي الخبر: الأقرع والأبرص والأعمى بدا للّه عز وجل أن يبتليهم أي قضى بذلك وهو معنى البداء هاهنا لأن القضاء سابق ومثله في اليهود «بدا للّه

---

(١) مجمع البحرين / الشيخ فخر الدين الطريحي ص ٤٥، ص ٤٦ ج ١ طبع مطبعة طراوت طهران ط ثاني ١٣٦٢هـ.

يبتليهم›› أي ظهر له إرادة وقضاء مجدّداً بذلك عند المخلوقين. وفي حديث الصادق عليه السلام ‹‹ما بدا للّه في شيء كما بدا له في إسماعيل ابني›› يعني ما ظهر له سبحانه أمر في شيء كما ظهر له في إسماعيل ابني، إذ اخترمه قبلي ليُعلم أنه ليس بإمام بعدي. كذا قرره الصدوق››(١).

٤ ـ السيد الخوئي:

قال في بيان تفسيره: فإن البداء بالمعنى الذي تقول به الشيعة الإمامية هو من الابداء (الاظهار) حقيقةً، واطلاق اللفظ عليه مبني على التنزيل والاطلاق بعلاقة المشاكلة(٢).

العوامل التي دفعت الإمامية إلى القول بالبداء:

هناك عدة عوامل دفعت الإمامية بتوجيه من أئمتهم عليهم السلام إلى القول بالبداء، وكانت ضرورةً ملحةً للالتزام بهذه الفلسفة، وتقديمها إلى محافل المسلمين، تدرعاً من عدة أمور كانت ضمن تشكيلة العقل المسلم في غياب أطروحة البداء؛ نتيجة لمدلهمات الأمور السياسية المتفاقمة آنذاك؛ والتي لم تتح للفكر الإمامي أن يشق طريقهُ وسط زحمة من الأفكار المعتادة القادمة من خلف الحدود الإسلامية، والداخلة من خلال ثغرات الفكر المقهور بالأطروحات السياسية المنحرفة الحاكمة، هذا وقد دعت الإمامية إلى القول بالبداء، أمورٌ منها:

١ ـ أن القول بالبداء، كان ضربةً حاسمةً للشبهات الاسرائيلية، التي أثارها اليهود وحاولوا من خلالها ارباك الفكر المسلم، وإشغاله بشبهات واهية، منها أن اللّه لما خلق الخلق فرغ منه وتركه وشأنه فقالت كما عبّر القرآن الكريم ﴿يد اللّه مغلولةٌ﴾

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) البيان في تفسير القرآن / السيد الخوئي ص ٢٧٦ .

فأجابهم ﴿غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان يُنفقُ كيف يشاء﴾[1].

فكان القول بالبداء ظهيراً لجواب القرآن ورده الحاسم.

٢ـ عظَم آل البيت في مقالة البداء، العلم الإلهي المطلق التام بجميع المخلوقات، وذلك بالفرق بين علم اللّه تعالى الكامل الشامل الدائم، وبين علم العبد الناقص المنقطع المحتاج إلى عناية الفيض الإلهي، ومنه تظهر السلطة المطلقة للّه تعالى وسطوته على جميع خلقه.

٣ ـ إن القول بالبداء يُمتّن علاقة العبودية بين العبد وربه المتمثلة بالدعاء والانقطاع إلى اللّه تعالى، ذلك أن العبد إذا اعتقد أن اللّه قد فرغ من الأمر بعد ما جرى قلم التقدير، وليس للإرادة دخلٌ بعد ذلك فإنه يوجب اليأس والاحباط النفسي لدى العبد وانقطاعه عن التوسل والدعاء إلى اللّه تعالى وقد ورد أن الدعاء أفضل العبادة، في حين أن القول بالبداء يبعث الأمل والرجاء، ويُعيد الثقة بالنفوس المنكسرة نتيجة ما أصابها من عناء الحاجة والحرمان.

٤ ـ إن القول بالبداء مصداقاً لقوله تعالى ﴿ادعوني أستجب لكم﴾، فكيف يتم هذا دون الإقرار بأن اللّه يُغيّر القضاء بعدما أُبرمَ ابراماً، ويمحو اللّه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، وهو عين فلسفة البداء ومبرراته.

الصحاح الستة وما ورد في معنى البداء:

ورد معنى البداء في الصحاح الستة وغيرها من كتب الحديث المعتبرة، وهو المعنى الذي أراده الإمامية تماماً، ولا يضر الاختلاف في الاطلاق اللفظي، لوحدة المراد والغرض المقصود، وهو أن اللّه تعالى لم يفرغ من الأمر لقدرته التامة الدائمة، وأن الأشياء موقوفة على عللها وتحقق شرائطها، وإليك ما ورد من الروايات

---

(١) المائدة آية ٦٤ .

الصحاح:

١ ـ صحيح البخاري:

عن أنس بن مالك أن رسول اللّه (ص) قال من أحب أن يُبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه[١].

وقد علّق الكرماني في شرحه على البخاري بقوله «قوله ينسأ من النسأ وهو التأخر، وأثر الشيء هو ما يدل على وجوده ويتبعه، والمراد به هاهنا الأجل، وسمي به لأنه يتبع العمر، وفيه سؤال مشهور وهو أن الآجال مقدرة وكذا الأرزاق، لا تزيد ولا تنقص، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فأجيب بأن هذه الزيادة بالبركة في العمر بسبب التوفيق في الطاعات وصيانته عن الضياع، وحاصله أنها بحسب الكيف لا الكم، ويأتها بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة في اللوح المحفوظ بالمحو والاثبات فيه، فيمحو اللّه ما يشاء ويثبت، وكما أن عمر فلان ستون سنة، إلاّ أن يصل رحمه فإنه يزاد عليه عشرة فهو سبعون، وقد علم اللّه سبحانه بما سيقع له من ذلك فبالنسبة الى اللّه تعالى لا زيادة ولا نقصان، إنما نتصور الزيادة بالنسبة إليهم ويسمى مثله بالقضاء المعلق لا المبرم[٢].

هذا ما أدلى به الكرماني في شرحه على البخاري، وغيره من العلماء، فهل تجد من فرق بين هذا وبين من قال بالبداء سوى اللفظ، وإذا أردنا استقصاء كلمات علماء المسلمين لوجدنا مقالتهم موافقة لقول الإمامية في البداء تماماً.

٢ـ صحيح مسلم:

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه (ص): ان اللّه خلق الخلق حتى اذا فرغ منهم قامت الرحمة فقالت هذا مقام العائذ من القطيعة قال: نعم. أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك.

---

(١) صحيح البخاري كتاب البيوع باب من أحب البسط في الرزِ ٣: ٧٣ دار الجيل بيروت .

(٢) البخاري بشرح الكرماني ج ٢ ص ١٥٧ .

ثم قال رسول اللّه (ص)؛ أقرؤا ان شئتم: فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. اولئك الذين لعنهم اللّه فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها[١].

٣ ـ سنن الترمذي:

عن عبدالرحمن بن عوف قال: قال رسول اللّه (ص) قال اللّه تعالى: أنا اللّه وأنا الرحمن، خلقت الرحمة وشققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته[٢].

٤ ـ سنن الترمذي:

عن ابن عمر قال رسول اللّه (ص) إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد اللّه بالدعاء[٣].

٥ ـ سنن أبي داود:

عن أنس قال قال رسول اللّه (ص): من سرّه ان يُبسَط اللّه عليه في رزقهِ وينسأ في أثرهِ فليصلَ رحمَهُ[٤].

ما روي في معنى البداء في كتب أهل الحديث:

١ ـ مُسند الإمام أحمد بن حنبل:

عن ثوبان: قال رسول اللّه (ص)، أن الرجل يحرم من الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلاّ الدعاء. ولا يزيد في العمر إلاّ البر[٥]. ومثله أخرج ابن ماجة في

---

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب ٦ ح ٤: ١٩٨١ دار الفكر ١٤١٩ .

(٢) سنن الترمذي ح ٣ ص ٢٢١ دار الفكر ١٤٠٣ بيروت .

(٣) سسن الترمذي ج ٥ ص ٥٥٢ دار الفكر ١٤١٣ .

(٤) سنن ابي داود كتاب الزكاة باب في صلة الرحم ٢: ٥٨ دار الفكر .

(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٥ ص ٢٧٧ .

صحيحه الجزء الأول صفحة ٣٥.

٢ ـ **كنز العمال**: عن ثوبان: لا يرد القدر إلاّ الدعاء، لا يزيد في العمر إلاّ البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه[1].

٣ ـ **الدر المنثور للسيوطي**:

في تفسير قوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) عن علي عليه السلام أنه سأل رسول الله (ص) عن هذه الآية، فقال لأقرنّ عينيك بتفسيرها ولأقرن عين أمتي بعدي بتفسيرها، الصدقة على وجهها وبر الوالدين واصطناع المعروف يحول الشقاء سعادة ويزيد في العمر ويقي مصارع السوء. وعن ابن عباس (رض) (يمحو الله ما يشاء ويثبت) قال من أحد الكتابين هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت وعنده أم الكتاب أي جملة الكتاب.

وعن مجاهد قال: قالت قريش حين أنزل (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ باذن الله) ما تراك يا محمد تملك من شيء ولقد فرغ من الأمر، نزلت هذه الآية تخويفاً لهم ووعيداً لهم (يمحو الله ما يشاء ويثبت)، إنا إن شئنا أخدثنا له من أمرنا ما شئنا ويحدث الله تعالى في كل رمضان، فيمحو الله ما يشاء ويثبت إلاّ الشقاوة والسعادة والحياة والممات[2].

٤ ـ أخرج ما رواه الديلمي والطبراني عن سلمان والحاكم عن وثبان، وأحمد والطبراني روياه عن معاذ بن جبل مرفوعاً: لن ينفع حذر من قدر ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم بالدعاء عباد الله[3].

---

(١) كنز العمال ج ٢ ص ٦٨ ك وكذا رواه عن طريق آخر ج ٢ ص ٦٦ .

(٢) الدر المنثور للسيوطي ج ٤ ص ٦٥ .

(٣) كشف الخفاء ومزيل الالباس للمحدث الجرجاني ج ١ ص ٤٠٣ دار احياء التراث العربي بيروت طبعة ثالثة ١٣٥٢ .

هذا ما يمكن تقديمه حول عقيدة الإمامية في البداء، ولعل هذا البحث مقدمة لبحوث أوسع يستطيع المتتبع حصولها من خلال النص القرآني الكريم والموروث النبوي الشريف، فضلاً عما صرح به الأئمة المعصومين عليهم السلام.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

المحتويات

البَابُ الأَوّلُ

عقيدة الإمامية في الإمامة

«١٧ ـ ١٦٩»

خصائص علي عليه السلام

مناقشة النصوص

البَابُ الثّاني

البَابُ الثّالِثُ

البَابُ الرّابِعُ